



OSMANIA UNIVERSITY LIBRARY

Call No.

٩٠٤ / س - ت

Accession No.

١٤٨٢

Author

سید ابوبکر اشراقی

Title

تاریخ الحضارة

This book should be returned on or before the date last marked below

تاريخ الحضارة

تأليف

المسيو شارل سنيوبوس
أحد أساتذة كلية السوربون في باريس



تعريب
محمد كرد علي
منشيء المقتبس

إدارة مطبعة الطاهر شراب بالقاهرة

جملة للمعرب

بسم الله وبه تقى

هذا هو الجزء الاول من تاريخ الحضارة لمؤلفه العلامة المسيو شارل سنيوبوس احد اساتذة كلية السوربون بباريز شرح فيه الحضارة التي أثرت على كل امة من الامم منذ عرف التاريخ الى يومنا هذا . وفي هذا الجزء كلام موجز على الشعوب الشرقية القديمة كالمصريين والفينيقيين والبابليين والاشوريين والفرس واليهود وكلام مطول على مدينة اليونان والرومان نفتح المؤلف مئات من الكتب حتى كتب كتابه فجاء زبدة الزبدة وتوخى الايجاز والسهولة في معظم مصنفه وبالغ في حسن تنسيقه وتجويد اسلوبه فرأيت ان انقله من الاخرسية الى العربية ليم نفعه ابتداء وبني في هذا الشرق كما بني في الغرب فانه اسأل ان ينفع به ويمن بالتوفيق لتعريب الجزئين الآخرين من الكتاب وهو في الهداية القاهرة في ٢٤ شعبان سنة ١٣٣٦ و ٢٠ شباط سنة ١٩٠٨

البشر والشعوب

علم خصوصيات الشعوب — يعمر الارض ناس قليا يتشابهون ،
يختلفون بالطول وهيئة الاعضاء والرأس وسياء الوجه ولون العيون والشعور
ويتباينون باللغات والذكاء والاحساس . وبهذا التمايز ينقسم سكان المعمور
الى عدة اقوام تدعى اجناساً . فالجنس مجموع ناس يتماثلون ويباينون جنساً .
آخر وما يمتاز به جنس عن غيره من العلامات العامة ويسمى طبائع وأخلاقاً
هو الذي يتألف منه مجموع خواصه . فيعرف الجنس الزنجي مثلاً بجلد
أسود، وشعور مجعدة، واسنان بيضاء، وأنف أفطس، وشفاه خشن، وفك
ضخم . ويدعى درس احوال الاجناس وما يتشعب عنها « اثنوغرافيا »
أي علم خصوصيات الشعوب . وهو علم لم يرتق بعد لحدائه وضعه وما برح
مشوشاً منتشراً لكثرة مجموع خواص البشر وصعوبة التمييز بينها احياناً .
الاجناس — أخص الاجناس الجنس الابيض وهو يسكن أوروبا وشمال إفريقيا
وغربي آسيا . والجنس الاصفر ينزل في آسيا الشرقية ومنه الصينيون والمغول
والترك والمجر . ومن دخل أوروبا منهم من الفاتحين فبشرته صفراء وعيونه
خُرُز مقطبة ووجنته ناثثة ولحيته خفيفة . والجنس الاسود يقطن أواسط
إفريقية وهم الممتازون باديم اسود وأنف أفطس ووفرة كالصوف . والجنس
الاحمر يستوطن أمريكا ومنهم هنود تلك القارة حمر الاديم سبط الشعور

الشعوب المتحضرة — يُعدُّ أهل الجنس الابيض من المتحضرين
الا قليلاً أما سائر الاجناس فقد ظلوا على حالة الهمجية والبربرية كما كان الناس
قبل زمن التاريخ . قامت الشعوب المتقدمة على تخوم قارتي آسيا وإفريقية فقام

المصريون في وادي النيل والكلدان في سهل الفرات . وكلهم أهل فلاح وحرث ألفوا الإقامة وجنحوا للسلم . أديمهم مشيع ، وشعرهم قصير أثيث ، وشفاههم مبرطمة ، ولا يعلم على التحقيق من أين . نبعثهم . ولم تتفق آراء العلماء على تسميتهم فيدعونهم تارة كوشيين وأخرى شاميين . وقد انسلت من جبال آسيا بين القرن العشرين والخامس والعشرين ق . م عصابات من الرعاة أهل غارة وزمما فتنة فانتشروا في أطراف أوروبا كافة وفي غرب آسيا . ويقسمهم العلماء الى قسمين آريين وساميين .

الآريون والساميون — ليس بين هذين الجنسيتين من علامة خارجية جليلة فكلاهما من الجنس الابيض : اهلجية سحناتهم ، متناسبة أعضاؤهم ، صافية جلودهم ، أثينة شعورهم ، نجل عيونهم ، رقيقة شفاههم ، منتصبه أرقبتهم ، وهم في الاصل رعاة من سكان الجبال يألفون الارتحال والقتال . ساميتهم من أرمينية ، وآريتهم من وراء جبال حملايا ، وهم يتنازون بالعقل واللسان خاصة امتيازهم بالديانة قديماً . وقد وقع الاتفاق على تسمية الشعوب التي تتكلم لغة آرية بالآريين وهم الهنود والفرس في آسيا . والروم والطيان والاسبان والجرمان والسكنداريون والسلافيون (الروس والبولونيون والصرب) والسلت (١) في أوروبا . والساميون هم الشعوب التي تتكلم لغة سامية وهم العرب واليهود والسوريون ، ومما يفني ان يعلم ان بعض الشعوب تتكلم لغة آرية او سامية ، وليست من الآريين والساميين في شيء . كما ان الزنجي قد يتكلم الانكليزية وليس فيه عرق من الانكليز . وربما عدنا كثيراً من الاوريين في مصاف الآريين وليست اصولهم في الواقع الامن

(١) الانكليز والفرنسيين من السلتين والجرمانيين

جنس غلب عليه الآريون فاقبس لغاتهم على نحو ما اقتبس الفرس لغة العرب أيام غلبوهم على أمرهم فهذان الاسمان الآري والسامي يطلقان اليوم على فريقين من الشعوب وليساً جنسين حقيقيين . ولا بأس ان يقال بناء على هذا المعنى ان الشعوب المرتقية كانت كلها سامية وآرية فنشأ من الساميين الفينيقيون رجال البحار واليهود رجال الدين والعرب رجال الحرب . فصار فريق من الآريين الى الهند واذصرف آخر الى اوربا فنشأت منهم تلك الامم التي كانت ولا تزال في مقدمة العالم . ولقد امتاز الهنود في القديم بأرائهم العالية الفلسفية او الدينية واليونان بايجاد الصنائع والعلم والفرس والرومان بتأسيسهم في الشرق والغرب مملكتين عظيمتين من اضخم الممالك التي نشأت في الايام الخالية

وبدأ تاريخ الحضارة بالمصريين والكلدانيين حتى اذا كان القرن الخامس والعشرون للميلاد يصير عبارة عن تاريخ الشعوب الآرية والسامية

التاريخ

الاساطير — نقلت أساطير الاولين عن روايات متسلسلة ظالماتحدث الناس بها قبل ان يدونوها لذلك تراها مشوبة بحكايات وخرافات . فتحدث اليونان ان أقدم أبطالهم أبادوا الغيلان وقتلوا الجبابرة وكافحوا الآلهة وزعم الرومان ان روملس ربه ذئبة ورفع الى السماء وقص جماع الشعوب عن طفوليتهم اساطير من هذا القبيل لاثقة بها عند التمهيص مهماقدم عهدا

التاريخ — يبدأ التاريخ حقيقة لدن وجود اخبار صحيحة دونها اهل نمة وتلو سماع . وليس هذا الدور واحداً في الكلام على الامم كلها فتاريخ مصر يبدأ قبل ثلاثة آلاف سنة ق . م وتاريخ اليونان يكاد لا يتعدى

الثمانمائة سنة ق . م وليس لالمانيا تاريخ يعرف الا في القرن الاول
للميلاد ويعرف تاريخ روسيا منذ القرن العاشر وليس لبعض القبائل المتوحشة
الى اليوم تاريخ في نشأتها

تقسيم التاريخ الكبيرة — يبدأ تاريخ الحضارة باقدم شعب متدث
وينتهي بايامنا فعنى القرون الماضية الدور العريق في القدم جداً ومعنى القرون
الحديثة الدور الذي نحن فيه

التاريخ القديم — يبدأ التاريخ القديم بالامم القديمة المعروفة من
المصريين والكلدانيين أي من نحو ثلاثة آلاف سنة ق . م ويم شعوب
الشرق من هنود وفرس وفينيقيين ويهود ويونان ورومان وينتهي حوالى
القرن الخامس ب . م بسقوط المملكة الرومانية

التاريخ الحديث — يبدأ التاريخ الحديث باواخر القرن الخامس عشر
زمان اختراع الطباعة واكتشاف اميركا وبلاد الهند ونهضة العلوم والصنائع
ولم يذكر شعوب الغرب خاصة من اسبان واطليان وفرنسيس والمان
وروس واميركان .

القرون الوسطى — هي عبارة عن عشرة قرون مضت بين القرون
التقدمة والحديثة فلا هي قديمة لما اعتور الحضارة القديمة من الاضطلال ولا
هي حديثة لان التمدن الحديث لم يتكون بعد . وهذا ما يدعى بالجيل المتوسط .
مصادر تاريخ الحضارة القديمة — ليس في الوجود اليوم اشوريون ولا
يونان ولا رومان فقد بادت الشعوب القديمة كافة وما خلوه من العاديات
هي فهرست نستنتيه للبحث عن اديانهم وأخلاقهم وصنائعهم . والعاديات
هي الكتب والرسوم والآثار واللغات . هذه عدتنا في دراسة الحضارة

القديمة وهي تدعى مصادر لاننا نستقي منها معلوماتنا . والتاريخ القديم يتفرع من هذه الاصول .

الكتب - وضع القدماء الكتب أيام عرفوا الكتابة فكان لبعضهم مثل الفرس واليهود والهنود كتب مقدسة وخلف الرومان واليونان تواريخ وقصائد وخطباً ومقالات فلسفية . وقلما نجد في الكتب المواد اللازمة لمباحثنا اذ ليس لدينا كتاب اشوري ولا فينيقي أما ما بقي من أسفار الشعوب الأخرى فتافه جداً . ولقد كان القدماء يكتبون ولكن أقل منا ولذلك كانت تأليفهم اندر ولم يكن لهم من كل مصنف إلا نسخ قليلة لما ان الحال كانت تقضي باستنساخها كلها باليد وقد دثر غالب هذه النسخ أوضاع أو تعذرت قراءة ما بقي منه ويسمى علم حلها «باليوغرافيا» أي علم الخطوط والكتابات القديمة .

المعاهد - أقامت الشعوب القديمة لانفسها معاهد مثلثان من مثل معابد لارباهما وقصور الملوكها وقبور لموتاهما وقلاع وجسور وقنوات وأقواس نصره . ولقد تهدم كثير من هذه المعاهد واستؤصل وتجزأ بيد العدو أو بيد سكان البلاد ومنها ما لم تقو الغير على تقويض دعائمه وما فثنت ماثلة للعيان متداعية مثل القصور العتيقة لا تقطاع الايدي عن تعهدها . وقد بقيت بقية يعلم منها ما كانت عليه سالفاً . وما زال بعض هذه المعاهد فوق التراب كألاهram في مصر ومعابد ثيبة وجزيرة فيلا وقصور الهرسوبوليس في فارس والبارتينون في اليونان والكوليزة في رومية والبيت المربع وجسر الحرس في فرنسا . وان السائح لهدنا لينظر الى هذه الآثار نظره لا رحديث . وقد ردم أغلب هذه المعاهد على التدرج بتراب أو رمل أو فتات أرضية وانقاض فينبغي

تخليصها من هذا الساف الكثيف أو حفر أرضها وكثيراً ما تكون عمقة للغاية . ولم يثر على القصور الاشورية الا بخرق آكام وتلال . وقد حفرت حفرة عمقها اثنا عشر متراً للوصول الى قبور ملوك ميسينا

وبعد فان عفاء هذه الخرائب لم يكن بصنع الدهر وحده فللبشر اليد الطولى في ذلك . ولم يكن القدماء ليتنبون مثلنا في التقدير والقياس لاقامة البناء . وما عنوا بنزع الردم من أما كنه بل كانوا يركمون الانقاض ويبنون عليها ولا ينزعونها حتى اذا أشرف البناء الجديد على السقوط تنضم انقاضه الى اطلال اخواتها القديمة وهكذا تتألف طبقات عديدة من الانقاض . وقد جاز أحد السياح المدعو شيلمان بحفرة في مكان مدينة تروادة خمس طبقات من الاطلال اذ كان ثمت خمس مدن خربة كلها واعتقها على عمق خمسة عشر متراً . وما برحوا يعثرون في رومية في الاحياء على ثلاث بنايات منضدة بعضها فوق بعض وقد تراكت عليها الاطلال فعلا التراب في سفح التلال بضعة أمتار

بقيت مدينة برمتها لم تمسها طوارق الحداث وذلك بحادث طبيعي جرى عام ٧٩ للمسيح وهو ان بركان فيزوف في ايطاليا قذف سيلاً من الحم مائة أمطرت رماداً فانكشنت للحال مدينتان رومانيتان كانتا مدفونتين وهما هيركولانوم وپومبيه . كانت الاولى تحت الحم السائلة والثانية تحت الرماد . وقد أحرقت الحم المتاع وغشاها الرماد وحفظها من الهواء فبقيت سالمة . وكلما أزيح الرماد تظهر مدينة پومبيه للعين على نحو ما كانت عليه منذ ثمانية عشر قرناً . وانك ترى في بلاطها بمدججرات العجلات وآثار سير المركبات وصوراً خُطت بالتحم في الحيطان ونقشاً واثناً وماعوناً

وخبزاً وجوزاً وزيتوناً في الدور والمساكن وهياكل عظام من دهمتهم الكارثة
مبعثرة مبددة. وبهذا عرف القاري أن الآثار والمعاهد تفيدنا كثيراً
في الوقوف على حالة الشعوب القديمة. ويدعى علم الأزمنة القديمة «أركيولوجيا»
الرسوم — نغني بالرسوم كل ما يشمل الخطوط عدا الكتب فمعظم
الرسوم زبرت على الحجر وحفر بعضها في صفائح من القلتر ووجد منها في
مدينة بومبيه مازبر على الجدران بالأصباغ أو بالدهن. وإن بعض هذه
الرسوم لتمثل تذكارات وقائع أو رجال كما هو جار الآن عند الإفرنج فيما
يقيمونه من تماثيلهم وبنائهم. هكذا نرى الإمبراطور اغسطس دون
حياته على معبد أنسير ومعظم هذه الرسوم عبارة عن كتابات زبرت على
القبور ويمائل بعضها الاعلانات لمهدنا فتحتوي على قانون أو نظام تراد
إذاعته بين القوم. ويدعى علم الرسوم «إيكروفا»

اللغات — تفيد اللغات التي نطقت بها الشعوب القديمة في بيان تاريخهم
فاذا فهم الباحث كلمات من لغتين مختلفتين ينجلي له أحياناً أن أصل هذين
اللسانين واحد ويسجل بأن الشعوب التي تتكلم بها خرجت من نبتة واحدة.
ويدعى علم اللغات «لينكستيك»

النواقص — لا يذهبن ذاهب إلى أن الكتب والمعاهد والاطلال
واللغات تكفي للاحاطة بتاريخ القرون السالفة فإن فيها تفاصيل جمة يمكن
الاستغناء عنها وما ترغب نفوس الباحثين في استبطان حقيقته قد يمز عليها
ويفر منها. وما برح العلماء يحفرون ويحللون ويظفرون كل يوم باطلال
ومعاهد لم تعرف من قبل وقد بقيت مع هذا نواقص وسيبقى كذلك
أبد الدهر

مصر

بلادها - مصر عبارة عن وادي النيل وهي في مضطرب ضيق خصيب ممتد على ضفتي النهر بين سلسلتين من الصخور طولها ٢٤٠ فرسخاً ويكاد عرضها لا يتجاوز خمسة فراسخ وعند منقطع الصخور تبدأ الدلتا . وهناك سهل واسع تخلله شعب النيل وترعه . فمصر كما قال هيردوتس أبو التاريخ هبة من النيل .

النيل - يزخر النيل كل سنة في الانقلاب الصيفي بمصارات تلوج بلاد الحبشة فيفيض على أراضي مصر المغطى يرتفع ثمانية أمتار وأحياناً عشرة فتصبغ البلاد كالبحيرة وتبرز القرى المشيدة على الآكام كأنها جزيرات ثم تنخفض المياه في أيلول (سبتمبر) ويعود النهر في كانون الأول (ديسمبر) إلى مجراه الأصلي وقد ترك في كل مكان طبقة من الطين خصبة وهي الاءلز وتسمى الطمي . هذه الرواسب تقوم مقام السماد ويكاد يزرع في التربة الزدية بدون حرث . فالنيل إذا يأتي مصر بالماء والتربة وإذا تحول عنها تعود مصر كالبلاد المحيطة بها قاعاً صفصفاً، ورمالاً مجذبة، ما امطرتها السماء وابلا ولا رذاذاً . ولم يجمل المصريون فيما مضى ما يجوده نيلهم من الخيرات الجسان وهاك نشيداً كانوا ينشدونه تمظيماً له : « سلام عليك أيها النيل أنت الذي تتجلى على هذه الارض وتأتي بسلام فتحيي موات مصر . أنت اذا انجليت تملأ الارض طرباً ، والقلوب بشراً ، فينال كل مخلوق قوته ، وكل سن ما تقضه ، رحك انك تأتي بالارزاق الطيبة وتنتج كل خير ومير وتثبت للبهائم مرعاها

غنى هذه البلاد - مصر على التحقيق واحة في قفر إفريقية تبت تربتها البر والفول والدس وأنواع البقل . والنخيل فيها غابات وآجام . وفي تلك المروج التي يروها النيل بمائه ترعى قطعان الغنم والثيران والعز والاوز وتكاد مساحتها تساوي بلاد البلجيك (٢٩٤٠٠ كيلو متر مربع) ومصر اليوم تقوم بأود ١١ مليوناً (١) من السكان وهي نسبة لاتعهد في أوربا على ان مصر كانت آهلة بالسكان قديماً أكثر منها اليوم

روايات هيرودتس - عرف اليونان مصر أحسن من مرقهم سائر الممالك الشرقية فزارها هيرودتس أبو التاريخ في القرن الخامس ق . م ووصف في تاريخه فيضان النيل واخلاق السكان وازياءهم ودينهم وذكر حوادث من تاريخهم وحكايات لقنها من أدلائه . وتكلم ديودور وسترابون على مصر أيضاً . بيد ان كل من ذكروها رأوها في انحطاط فلم يتيسر لهم ان يعرفوا شيئاً عن قدماء المصريين .

/ شامبوليون - دعت حملة الفرنسيس على مصر (١٧٩٨ - ١٨٠١) الى فتح أبواب الديار المصرية للعلماء فهرعوا اليها يزورون الاهرام وخرائب ثيبة عن أمم ويمودون منها وقد حذل وطالبهم بالصور والآثار . ولم يكن لاحد ان يحل الخط المصري المسمى بالهيروغليفي . وتوهم الناس ان كل خط من هذه الكتابة يقوم مقام كلمة حتى اذا كان عام ١٨٢١ خالفهم شامبوليون احد علماء الفرنسيس وعمد الى طريقة أخرى وجاء أحد الضباط من رشيد بأثر ذي خطوط ثلاثة كانت الخطوط الهيروغليفية المسطورة بها مترجمة الى الرومية . وهذا الأثر يمثل الملك بطليموس محاطاً بدائرة . فنوصل

شامبوليون بهذا الاسم الى الاطلاع على حروف PTOLMIS ولدى مقابقتها باسماء ملوك آخر وكانت ايضا محاطة بدائرة اكتشف حروف الهجاء . ولما تيسرت له قراءة الخطوط الهيروغليفية ظهر له انها كتبت بلغة تشبه القبطية وهي اللغة التي شاعت بمصر على عهد الرومان وعرفت حق معرفتها .

علماء الآثار المصرية - جاء بعد شامبوليون زمرة من العلماء توفروا على دراسة أحوال مصر واكتشاف جليها وخفيها وتدعى هذه الفئة من العلماء اجتولوك أي المشتغلون بالآثار المصرية ولهم رصفاء في ممالك أوروبا كافة . وقد أجرى ماريت (١٨٢١ - ١٨٨١) من المشتغلين بالآثار المصرية على نفقة خديوي مصر . ما يقتضي من الحفريات وأحدث متحف بولاق . وانشأت فرنسا في القاهرة مدرسة لتعليم الآثار المصرية ناطت ادارتها بالمسيو ماسبرو .

الاكتشافات الحديثة - لا يمتد في بلد من بلدان الارض على خبايا ثمينة كخبايا مصر ودقاتها لان المصريين كانوا يبنون قبورهم أشبه بدور يضعون فيها ما يقتضي للميت من ضروب الامتعة والاثاث والرياش والسلاح والطعام وقد غصت البلاد بالقبور الطافحة بهذه الذخائر والاعلاق . وساعد اقليم مصر الجاف الهواء على حفظ هذه الامتعة سالمة بعد مضي اربعة او خمسة آلاف سنة . فلم يترك شعب من الشعوب القديمة أثراً كآثار قدماء المصريين وما عرفنا شعباً معرفتاله .

الملكمة المصرية

قدم الشعب المصري - قال كاهن مصري لهيروتس : انتم معاشر اليونان اطفال . كلام يفهم منه ان المصريين كانوا يرون انفسهم أقدم أمم العالم فقد قامت ست وعشرون سلالة ملكية الى عهد الفتح الفارسي سنة ٥٢٠ ق م ترتقي اولها الى أربعة آلاف سنة . وكانت مصر دولة في خلال هذه الاربعين قرناً فجعلت منفيس في بلاد الصعيد عاصمتها اولاً الى عهد السلالة العاشرة (وهو دور الدولة القديمة) ثم صارت مدينة ثنية في مصر العليا (وهو دور الدولة الحديثة)

منفيس والاهرام - بنى مدينة منفيس أول من ملك مصر وسورها بسور منيع فبقيت سالمة من بوائق الايام زهاء خمسة آلاف سنة ثم أخذ السكان أحجار انقاضها في القرن الثالث عشر وبنوا بها مساكن القاهرة وما تركوه منها أنى عليه النيل وسدل دونه حجاباً . أما الأهرام فلا تبعد كثيراً عن منفيس ويرد عهدا أيضاً الى الدور القديم وهي قبور ثلاثة ملوك من السلالة الرابعة وعلو اعظمها ١٤٧ متراً عمل في بنائه مئة الف عامل مدة ثلاثين سنة . وقد اقيمت سدود منحدره قليلاً لرفع الاحجار الى شاهق ثم خربت التمدن المصري - يدل ما يتخرج من قبور تلك الاعصر من هياكل وصور وأدوات على أن هناك شعباً متمدناً . فقد عرف المصريون قبل ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة للبلاد حرارة الارض ونسج الثياب وتطريق المعادن والنقش والرسم والخط وكانت لهم ديانة منظمة وملك وادارة . على حين كانت الامم النبية وهم الهنود والفرس واليهود واليونان والرومان في

حالة من الحمجية مأثورة مذكورة .

ثيبة - خلفت ثيبة مدينة منفيس فصارت عاصمة البلاد على عهد السلالة الحادية عشرة ولم تزل خرائبها المدهشة في لوح الوجود وهي ممتدة على ضفتي النيل ومحيطها نحو اثني عشر كيلو متراً . وعلى الشاطئ الشمالي صف من القصور وهي لقصر والكرنك تبعد بعضهما عن بعض نصف ساعة بنيت كلتاها وسط الخرائب ويجمع بينهما شارع ذو صفين من تماثيل أبي الهول وكان هناك قديماً أكثر من ألف أبي الهول . وأعظم هذه المعابد الخربة معبد عمون في الكرنك أحيط به سور محيطه ٢٣٠٠ متر . وان طول اشهر قصر (ايبوستيل) وأعظمه في العالم ١٠٠ متران وعمقه ٥٣ متراً وهو حجم عمود فاندوم . وكانت ثيبة عاصمة ومدينة مقدسة ومقر الملوك ومسكن الكهنة نحو ألف وخمسمائة سنة

فرعون - يعتبر ملك مصر المعروف بفرعون ابن رب الشمس ومثاله على الارض ويزعمون انه كان هورباً . وقد شوهدت صورة الملك رعحميس الثاني جالسا بين ملكين . فالملك يتعبد انساناً ويعبد ملكاً . وفرعون سلطة مطلقة على البشر ربو بيته فيحكم حكم المولى على كبار سادات قصره وعلى مقاتلة ورعاياه كافة والكهنة في عبادتهم إياه يلتفون من حوله ويحرسونه فيكون رئيسهم الكاهن الاعظم للرب عمون المستأثر بالحول والطول دونه وقد يحكم باسم الملك ويخلفه في الاحاين

الرعايا - يملك مصر من أعلاها الى أسفلها الملك والكهنة والجند والوالي وما عداهم فوصفاء يستخدمونهم في حث الارض وعمال الملك يلاحظونهم ويقبضون ثمار عملهم بضرب العصي أحياناً واليك ما كتبه

أحد هؤلاء الموظفين الى صديق له : ألا تذكر حالة الفلاح الذي يحرق الارض فان جاني الاموال يقف على الرصيف المعد لجباية عشر الفلات وثلة من العمال بمصيدهم يتبعونه وزنوج ماسكون بايديهم سعفات النخل يصرخون بصوت واحد : البدار البدار الى تسليم الحبوب . واذا لم يكن للفلاح ما يؤديه من الفلات يلقونه على الارض ويشدون وثاقه ويجرونه في التربة رأسه الى تحت وقدماه الى فوق

كيفية حكم مصر — كان الشعب المصري أبداً ولم يزل بمسء فرحا لا يهتم خاضعاً خائفاً أشبه بالطفل المستسلم الى ظالمه . وكانت العصافي هذه البلاد أداة التربية والحكومة حتى كان أعوان الملك يقولون : (خلق ظهر الفتى ليضرب فهو لا يمتثل الأمر الا اذا ضرب) ذكر أحد سياح الفرنسيين انه كان واقفا ذات يوم أمام خرائب ثيدة فهتف قائلاً : ليت شعري كيف بنوا كل هذا . فاستضحك دليله وقال ماسكاً بيده مشيراً الى نخلة : « بهذه بنوا هذا اجمع » اعلم يا مولاي انه اذا كثرت مئة ألف سفعة من سعف النخل على ظهر من اكتافهم عربانة أبداً تبنى قصور كثيرة ومعابد اعتزال المصريين — فلما خرج المصريون من بلادهم لما انهم حاذروا ركوب البحر ولذلك لم تكن لهم ملاحه وما انجروا والشعوب الاخرى ولم تترف لهم بحرية الا على عهد الدولة السادسة والعشرين وما كانوا أمة حربية قط . ولقد قاد ملوكهم الجند في حروبهم واتخذوا القتال دينهم فبعثوا البعث الى زنوج الحبش تارة والى القبائل السورية أخرى فاذا غلبوا صوروا صورة النصره على جدران قصورهم ومتى قتلوا راجعين من غزاتهم يأتون

بالاسارى فيستخدمونهم في بناء المعاهد على انهم ما حرزوا قط نصراً مؤزراً
ولا فتحوا فتحاً مييناً فدهم الاغيار مصر اكثر مما حل المصريون على الاغيار

ديانة المصريين

يقول هيرودتس ان المصريين من أشد البشر تديناً ولا يعرف شعب
بلغ في التقوى درجتهم فيها فان صورهم بحملتها تمثل ناساً يصلون أمام رب
وكتبهم على الجملة أسفار عبادة وتسلك .

الارباب المصرية — رب الشمس رأس الارباب (الالهة) عندهم
وهو الخالق المحسن العليم الكائن منذ البدء له امرأة وابن عريقان مثله في
الربوبية وكان المصريون يتعبدون بهذا التثليث الذي تختلف اسماؤه وان
اتحدت مسمياته فكان اهل كل إقليم يسمي كلاً من هذه الاسماء الثلاثة باسم
يختلف عن الآخر . ففي منفيس سعى الاب فتاح والام سيخت والابن
ايموتس وفي أيدوس سموها أوزيريس ، اريس ، وهوروس ، وفي ثيبة
عمون ، وموت ، وشونس . ثم اختار اهل كل إقليم أرباب الاقاليم الأخرى
وقد يشقون من كل رب تثليث أرباب أخرى وهكذا تعدد الارباب
وتشوش الدين

اوزريس — لهذه الارباب تاريخ وهو تاريخ الشمس فكان هذا الكوكب
يتراءى للمصريين كما يتراءى لغالب الشعوب الاصلية انه أقدم المخلوقات
وبعبارة أخرى أنه من الارباب فاوزيريس أي الشمس قتلها سيت رب الليل
وايزيس القمر امرأته بكيه وتدفعه وهوروس ابنه الشمس الساطعة يأخذ
ناره قاتلاً قاتله

عمون وا — هو رب ثيبة عندهم صور يجتاز السماء كل يوم في قارب

وأرواح الموتى تقذف به بمجازيف طويلة فالرب يقف في المقدم مستعداً لضرب المدور برمحه . وهاك النشيد الذي كان يتغنى به تعظيماً له . « السلام عليك انت تهب محسناً انت تهب صادقاً يامولى الاقنين انت تطوف السماء من عل وأعداؤك هالكون . السماء في أنس والارض في فرح والارباب والناس في عيد وكلها اجتمعت للتمجد » را « يشاهدونه في قاربه وقد كسر العدى . يارا هب فرعون حياة طيبة وامنحه ما يقوته من خبز ويرويه من ماء وطيب شعره وعطر اردانه . »

أرباب رأسها رأس حيوان — مثل المصريون أربابهم في صورة آدمية تارة وعلى مثال البهيمة أخرى . ولكل رب حيوانه فيتجسد فتاح في الجمل . وهوروس في الباشق . وازوريس في النور . وتختلط الصورتان طوراً في انسان رأسه رأس حيوان او في حيوان رأسه رأس انسان . ولرب عندهم أن يكون ذا أربع صور وأشكال فيكون هوروس مثلاً باشقاً او انساناً برأس باشق أو باشق برأس انسان

حيوانات مقدسة — لا يعلم لماذا كان يعنى المصريون بهذه الاشارة من اتخاذ الحيوانات التي تشبه الارباب مقدسة مباركة مثل الثور والجمل وايس (طائر طويل الرجل) والباشق والقط والتمساح فيتوفرون على إطعامهم وحمايتهم . فقد قتل أحد الرومانيين في القرن الاول قبل الميلاد قطاً في الاسكندرية فخار الشعب وقبض عليه فذبحوه رغم ارادة الملك وشفاعته فيه فعلوا ذلك على حين يهرب المصريون بأس الرومانيين كثيراً وكان المصريين رب يعبدونه في كل معبد وقد قص سترابون كيفية زيارته تمساحاً مقدساً في ثيبة فقال : كان هذا الحيوان رايضاً على شط غدير فاقرب منه الكهنة

وتقدم اثنان منهم فقتحاه وجاء ثالث وحشاه حلويات وسمعكاً مشويا
وشراباً من عسل مصفى

الثور ايسس — اجل هذه الحيوانات المربوبة او المؤلفة الثور ايسس فانه
كان يمثل اوزيريس وفتح معاً ويش في منفيس في مصلى له يخدمه الكهنة
فيه حتى اذا مات هذا الثور يكون حاله حال اوزيريس (رب الشمس)
فيجنط وتجعل مومياءه في ناووس اما قبر أوسارها ني فهو من المعاهد الهائلة
وقد فتح ماريث الفرنساوي مقبرة السرايوم عام ١٨٥١

عبادة الموتى — عبد المصريون أيضاً أرواح الموتى ويظهر أنهم كانوا
يعتقدون أولاً ان لكل انسان قريناً (كا) فاذا مات يخلفه قرينه في حياته
وهو اعتقاد اعتقده كثير من الشعوب المتوحشة وكان القبر المصري يدعى
قديماً « بيت القرين » وهو عبارة عن مكان منخفض منظم كالغرفة يزين من
اجل القرين بضروب الآثار من كراسي ومناضد وسرر وصناديق وأصونة
واغشية وأقمشة والبسة وادوات زينة واسلحة ويضعون تارة مركبة حربية
وما شاء للذته من تماثيل وصور وكتب ولطعامه من بر وكل ما حلا بالعين
وحلي بالثم ويضعون فيه طورا قرين الميت وهو تمثال من خشب او حجر صنع
على صورته ومثاله ثم يسور مدخل الناووس فيبقى فيه القرين ومعنى الاحياء
بامرءه فيجلبون له طعاماً او يتوسلون الى أحد الارباب ان يرزقه طعاماً على
نحو ما تراه في هذا الرسم المزبور: على الحجر (قربان لا زوريس ليعطي زاداً من خبز
وشراب وثيران وأوز ولبن وخمر وجعة ولباس وعطور وكل ما طاب وصفا
الى المتوفى فلان)

حشر الارواح — انشأ المصريون منذ السلالة الحادية عشرة يعتقدون

ان الروح تنفصل عن الجسد وتلحق بأوزيريس تحت الارض حيث تغيب الشمس كل يوم فيما يظهر . هناك يتصدر اوزيريس في محكمته وقد أحاط به اربعة وعشرون محكماً فيؤتى بالروح امامهم فتحاسب عما قدمته بين يدي نجومها في الحياة فتوزن اعمالها بميزان الحق وتطلب شهادة القلب . فيهتف الميت قائلاً : « ياقلب اني ورثتك عن أمي منذ درجت على الارض فلا تقم علي شاهداً تتجني علي أمام الرب المتعال » فالنفس الشريرة تعذب قروناً ثم تهلك والنفس الطيبة تطير احقاباً وبعد عن كثيرة تنضم الى زمرة الارباب وتنفى فيهم

المومياء — تستطيع الروح في خلال هذه الزيارة الدخول في الجسد لتستريح ولذا اقتضى ان يظل الجسد سليماً . ومن اجل ذلك تعلم المصريون طريقة تحنيط الجثث فيملأون الجثة عنبراً ونفطسونها في مستحم من النطرون ويصبونها بعصيات فتصير مومياء . هكذا توضع المومياء في تابوت من خشب اوجبس وتودع في القبر مصحوبة بما يقتضي لها من ضروريات الحياة

كتاب الاموات — كان يوضع بجانب المومياء كتاب صغير اسمه كتاب الموتى يذكر فيه ما ينبغي للنفس أن تقوله في العالم الثاني دفاعاً عن نفسها امام محكمة أوزيريس وهو : « ما ارتكبت خيانة وما عذبت أيماً وما ارتكبت محرماً ولا ألفت البطالة ولا وشيت بالبعد الى مولاه ولا حبست الخبز عن المعابد ولا سرق عصيات الموتى ولا طعامهم ولا طففت مكاييل الحبوب ولا صدت الحيوانات المقدسة ولا قبضت الاسماك المقدسة . اطعمت الجوعان واسقيت العطشان وكسوت الريان وقدمت الضحايا

للارباب وصنعت الوضائم للموتى اهـ، وهنا تستبان حكمة المصريين وهي الاحتفاظ بالرسوم والتكاليف واحترام ماله علاقة بالارباب وان يكون المرء مخاصاً محشماً محسناً

الصنائع

الصناعة — المصريون أول من مارس الصنائع التي تـمس حاجة الشعب المتحضر اليها فكانت الصور في القبور من عهد السلائل الاولى أي من نحو ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد تمثل ناساً يحرثون ويزرعون ويحصدون ويدرسون ويزرعون الجبوب وقطماناً من ثيران وخرافاً واوزاً وخنازير واعياناً حسنة ثيابهم واحتفالات واعياداً يحتفل فيها بضرب العيدان أي كما كانت حياة هذه الامة بعد ثلاثة آلاف سنة حذو القذة بالقذة . وقد عرف المصريون لذلك العهد صنع الذهب والفضة والفلز والاسلحة والحلي والزجاج والخزف والمينا ونسج الثياب من صوف وكتان وانسجة شفافة او موشاة بالذهب

تتود الابدية — كن المصريون اندر البنائين القدماء في العالم أقاموا المعاهد الدائمة حتى صارت كأنها خلدة بحيث لم يتو الزمن لمهدنا على تقويضها وتبيدها ولم يبذوا مثلنا يوتاً لسكن الاحياء بل كانت مبانهم خاصة بالارباب والموتى فينبون لهذا الغرض المعابد والمقابر . ولم يبق من مساكنهم الارسوم بحيلة أما تصور الملوك فلم تكن على قول اليونان غير خانات بالنسبة للقبور . ذلك لان المسكن ينبنى ليأوي اليه الانسان في حياته والقبر يبقى خالداً على الدهر القبور — أصل الهرم الكبير قبر ملوكي والقبور القديمة هي من هذا النوع . وترى في مضر السفلى الى اليوم اهراماً مصطفة كالشوارع أو

مبددة هنا وهناك تختلف في الكبر والصغر . ثم صارت تقام القبور تحت الارض يعمر بعضها تحت التراب وينحت الآخر من حجر الصوان « الكرايت » في الجبال ولكل جبل قبور جديدة . وكانت مدينة الموتى أي مدافنهم على مقربة من مساكن الاحياء ولكنها ازهى وأوسع المعابد — يتطلب الارباب كذلك مساكن طيبة خالدة وتتألف معابدهم من هيكل جميل وهو مأوى الرب تكنته القصور والحدائق وغرف الكهنة وحاشيتهم ودروج جواهرهم وأدواتهم وملابسهم وقد صنع مجموع هذه الابنية المسورة في عصور كثيرة . فاشترك ملوك من جماع السلالات المصرية في تشييد معبد عمون في ثيبة من السلالة الحادية عشرة الى السلالة الاخيرة ومن العادة ان يفتح في أول المعبد باب عظيم محني الجوانب وتقام على طرفيه مسلتان مبنيتان بشعاف الصخر مذهبة الاطراف أو تمثالان من الحجر على مثال جبار جالس . وقد يوصل الى المعبد من طريق طويل نصبت في جوانبه تماثيل ابي الهول مصنوعاً من الحجر على صفيين . هذه الاهرام والمنحنيات والتماثيل وأبو الهول والمسلات تنفي بما بلغه المصريون من العناية بعقود الابنية وكلها نخبنة قصيرة عميقة بحيث تبدو هذه المعاهد ضخمة لا يليها الدهر ولا تفتنها الغير

صناعة النحت — حاكي النحاتون من المصريين الطبيعة بنقوشهم . وان الناظر ليدعش من أقدم التماثيل لما فيها من الحياة والبساطة ولا شك انها كانت صور الموتى . ومن هذا الجنس صورة ذاك العامل الجاثي المحفوظة في متحف اللوفر بفرنسا . وعلى عهد السلالة الحادية عشرة تقيد النحات بقاعدة مقررّة دينية فلم يعد يمكنه تمثيل الجسم الانساني على حسب ما يظهر

له وأخذت التماثيل منذ ذلك العهد تتشاكل وغدت السوق متأزقة والارجل ملتفة والاذرع مشتبكة على الصدور والهيئة غير متحركة لكنها مهية وأبدأ ذات جلال ومتحدة في النوال فانقطعت هذه الصناعة عن محاكاة الطبيعة وغدت رمزاً متفقاً عليه

الرسم — استعمل المصريون أصباغاً لاتنصل بقيت باهية زاهية بعد مضي خمسة آلاف سنة عليها . على أنهم لم يعرفوا غير تلوين الرسم وظلوا ولا خبرة لهم بتوزيع الالوان ولا رسم الظلال والاشباح البعيدة . وكان للرسم كما للنقش قواعد دينية مطردة فاذا عرض على صانع ان يرسم خمسين شخصاً يصورهم على هندام واحد ونظام واحد .

الآداب — للمصريين آداب خاصة بهم فقد عثر في النواويس على كتب طب وسحر وزهد كما عثر على قصائد ورسائل ورحلات وروايات مصير التمدن المصري — احتفظ المصريون بآدابهم ودينهم وصنائعهم الى ما بعد سقوط مملكتهم فخضعوا للفرس ثم لليونان ثم للرومان ولم يطرخوا شيئاً من عاداتهم القديمة ولا نسوا خطهم ومومياءهم وحيواناتهم ثم دثر التمدن المصري ببطء بين القرن الثالث والثاني ب م

الاشوريون والبابليون

بلاد الكلدان

وصفها — ينبجس من قم جبال أرمينية المغطاة بالثلوج نهران سريع جريهما بعيد غورهما وهما الرافدان دجلة والفرات الاول من الشرق والثاني من الغرب . يتقاربان أولا ثم يتباعدان عند بلوغهما السهل فيستقيم دجلة في جريته وينعطف الفرات في صحاري الرمال ثم يجتمع النهران قبل أن يصلا الى البحر . فالبلاد التي يجتازها هذان النهران هي بلاد الكلدان . وهي بسبب من صلصال تمطره السماء قليلا وتشتد فيه الحرارة والقيظ بيد أن الانهار تسقي بجداولها هذه الارض الصاصالية فتصيرها من أخصب بقاع الارض وانبث قيعاتها . وان حبة القمح والشعير لتأتي متين وفي أعوام الرخاء ثمانية والنخيل في تلك البلاد غابات غيباء يستخرج منه الخمر والعسل والطحين

الامة الكلدانية — باكرت الحضارة بلاد الكلدان في العهد الذي باكرت فيه مصر فسكنها شوب . تمدنة . وتدهاجر اليها عدد من الاجناس من أصقاع كثيرة فاجتمعوا وامتزجوا في هذه السهول الفسيحة الارجاء . جاءها من الشمال الشرقي ناس من التورانيين أهل اللون الاصفر وهم يشبهون الصينيين وأتاهم من الشرق طائفة من الكوشيين ولونهم أسمر قاتم وهم أنسباء المصريين ونزل اليها من الشمال فئة من الساميين وألوانهم صافية وهم أقرباء العرب فتألف الشعب الكلداني من هذا المزيج

منها — زعم كهنة الكلدان ان ملوكهم تسعوا في مناحي الساطعة منذ مائه وخمسين الف عام وهو زعم خرافي يمدرون عليه لان الحامل لهم عليه توغل مملكة الكلدانيين في القدم . هذه الارض تخللها هضاب وآكام

كلها كومة أنقاض من بقايا بلد غفته طوارق الدهر. وقد فتح كثير منها واخرجت منه عدة دقائن مثل «أور» و «لارسام» و «بال ايلو» وظفر الباحثون بعدة آثار. وما برح أمر هذه الشعوب مستورا عن الانظار مجهولة حقيقتهم على أرباب الافكار على انه من المأمول أن يظفروا بكتابات جديدة في الاماكن الكثيرة التي لم تتناولها الايدي بالحفر واستخراج الدقائن. وبعد فقد دعت هذه الامم نفسها بالسوميريين والاكاديين وانقرض ملكهم حوالي سنة ٢٣٠٠ قبل المسيح وربما كانت اذ ذاك في ابان قدمها فيرد عهدها اذا الى ثلاثين قرنا قبل الميلاد على الاقل

الاشوريون

أشور — هذه البلاد واقعة وراء بلاد الكلدان على شاطي، دجلة وهي مخصبة التربة قائمة على تلعات كثيرة فيها واحادير. تحترقها هضاب وتتخللها صخور. تتلجج فيها السماء في الشتاء لقربها من الجبال وتهب عليها الاعاصير في الصيف

أصولهم — زخر بحر العمران في بلاد الكلدان فكان فيها امصار عاش فيها الاشوريون خاملين في جبالهم وقد اغار ملوكهم بجيوشهم الجرارة في القرن الثالث عشر على السباسب والقدادف فاسسوا مملكة ضخمة عاصمتها نينوى

أساطير قديمة — لم نكد نعرف عن الاشوريين منذ أربعين سنة الا قصة ذكرها ديودورس الرومي من أهل جزيرة صقلية وقيل أن نينوس بن مدينة نينوى وافتتح آسيا الصغرى جملة واستخضمت امرأته سميراميس بلاد مصر وكانت من الارباب فاستحالت بعد حمامة فخلقها ملوك خاملون

مدة ١٣٠٠ سنة . حوَّصر آخرهم في عاصمته واسمه ساردانابال فحرق نفسه ونسأه الى ما شا كل ذلك من الاقاصيص التي قل فيها الصدق واعوزت كلمة الحق

نينوى - هذا ما عرف عن مملكة اشور القديمة الى ان اكتشف الميسو بوتا قنصل فرنسا في الموصل سنة ١٨٤٢ اطلال قصر عظيم بالقرب من قرية خراساباد الحفيرة وقد غشيتها رمال صيرتها رابية . وهذه هي المرة الاولى التي شوهدت فيها الصناعة الاشورية بمظهرها ووجدت الثيران المجنحة بالاحجار سالمة ماثلة على باب القصر . وقد جي بها الى باريز فجعلت في متحف اللوفر . ولقد استلفت بوتا بحفرياته أنظار أوروبا فانفذت بعثات كثيرة وخصوصاً الانكليز . توفر بالاس ومارد على الحفر في آكام أخرى فاكشفت قصور غير هذه . سلمت هذه الخرائب لجفاف الهواء في تلك الارعاء وبما غشيتها من طبقات التراب . ثم انه عثر على جدران منقشة بتقوش بارزة وصور وتماثيل وكتابات كثيرة فتسنى درس حال تلك الممارات في اما كتبها وأخذت عنها صور المعاهد والتقوش . وأول ما اكتشف قصر خراساباد وهو الذي بناه الملك سراغون مكان نينوى عاصمة ملوك اشور وهي قائمة على عدة هضاب يحيط بها سور ذو أبراج مربع الاضلاع ذرعه ٢٦٠ غلوة (نحو ٤٣ كيلو متراً) وقد بني خارج الجدران بالقرم ودواخله تراب مهيل . أما دور المدينة فقد دثرت ولم يبق منها أثر ضئيل ولا رسم محيل . بيد انه ظهرت عدة قصور شادها غير واحد من ملوك اشور . وقد ظلت نينوى عاصمة الملوك الى ان اوغل الماديون والكلدانيون في احشاء مملكة اشور ومزقوها شذر بذر .

كتابات القرمذ - يتألف كل حرف في الكتابات الاشورية من مجموع علامات على شكل سهم او زاوية ولذلك دعي هذا الخط بالخط السماري وكانوا يستعملونه خنجراً مثلث النصل في آخره حد مثلث الاضلاع لرسم هذه العلامات يبلونه في صحيفة من الخزف الرطب ثم يدخلونه التنور فيصير صلباً لا ينمحي أثره . وقد كشفت في قصر اسوربانيال مكتبة تامة من الصفائح قام فيها القرمذ مقام الورق

الخط السماري - غالى جملة من رجال العلم في حل هذا الخط أعواماً كثيرة فتعذرت عليهم قراءته اذ كان لاول عهده يستعمل في كتابة خمس لغات متباينة وهي الاشورية والسوسية والمادية والكلدانية والارمنية . دع عنك الفارسية القديمة . وكانت تلك اللغات مجهولة فدامت اللغة التي نتكلم عليها الآن مشوشة كل التشويش لاسباب عديدة أهمها تركبها من خطوط رمزية ينوب كل منها مناب كلمة مثل «شمس» «رب» «سمك» ومن خطوط ذات مقاطع . ولان لهذه اللغة مائتي خط ذي مقاطع يتشاكل بعضها مع بعض ويسهل التباسها وإشكالها ولان الخط الواحد كثيراً ما ينوب عن كلمة وعن مقطع ولان الخط الواحد يقوم مقام مقاطع مختلفة بمعنى أن خطأ واحداً يقرأ «ايلو» تارة «وآن» طوراً وهو أصعب هذه الصور وأشكلها .

كان هذا الخط عسراً حتى على من يكتبونه . ونصف مالدينا من الآثار السمارية هو كتب إرشادات من نحو ولغة وصور مما ساعد على حل النصف الآخر فتأني الرجوع اليها في حل المشكلات على ما كان عليه شأن المعلمين في مملكة آشور منذ ٢٥٠٠ سنة وقد أفلح العلماء في حل الكتابات الاشورية

كما أفلحوا في حل الكتابات المصرية . فكانت لهم كتابة مستطيلة في لغات ثلاث آشورية ومادية وفارسية ونفقت الفارسية في حل غيرها .

الشعب الاشوري - فطر الاشوريون على حب الصيد والحرب وان نقوشهم لتمثلهم مدججين بالاقواس والرمح راكبين صهوات الخيول ~~ساع~~ ساع أن يوصفوا بانهم كمة مجال وأبطال يحسنون الكر والفر . وان استوحى في أعينهم رواحهم الى مناوشة ومغادهم في حرب زبون . ولقد عرفوا بالخير يوسفك الدماء فوطثوا آسيا ستة قرون وخرجوا من جباههم يفيرون على جيرانهم . ولظالموا آبا من غزواتهم وقد أسروا شعوباً باجمعها والظاهر أنهم عاشبون غيرهم القتال لمحض حب السفك والتدمير والهب فأنهم أشد خلق الله بأساً وأقساهم قلوباً .

الملك - رأى الاشوريون لملكهم الخلافة عن الله في الارض جرياً على المادة الآسيوية ~~لما~~ طاعوه طاعة عمياء وبذلوا في حبه مهجهم . فكان الملك عندهم سيداً مطلقاً في حكمه رعاياه مهما اختلفت طبقاتهم يدعوم الى حمل السلاح تحت لوائه فيقاتل بهم شعوب آسيا حتى اذا قفل منصوراً يصور ما أثره على جدران قصره ذا كراً انتصاراته وما ناله من الغنائم وحرقة من المدن وذبحه من الاسرى وسلخه من احيائهم

الحملات - اليك بعض فقرات من نشرات الحروب قال اسورنازيرهابال عام ٨٨٢ : انني عمرت جداراً امام ابواب المدينة العظمى وساخت جلود زعماء الثورة وغطيت هذا الجدار بجلودهم وقد دفن بعضهم احياء في اساس البناء وصاب فريق آخر وجعلوا على أوتاد في الخائط وساخت جلود

كثيرين في حضرتي وكسوت الحائط بها وجمعت رؤوسهم على هيئة التيجان وضمنت جثثهم الى أشكال الا كاليل

وكتب توكلا بالازار عام ٧٤٥ م انصه : حبست الملك في عاصمته ورفعت كروما من الجثث أمام الابواب . هدمت مدنها كلها ودمرتها وأحرقها وأفقرت البلاد وصيرتها آكاما وقاعا نصفاً ينق فيها يوم الخراب . وقال سنحاريب في القرن السابع : « اطلقت كالعاصفة المدمرة فسبحت السروج والاسلحة في دماء الاعداء كلها في نهر والتراب مبلل وجمعت جثث جندهم كما تجمع القناثم وبترت أطرافهم وقضت عظام من أخذتهم أحياء على نحو ما تقصف التينة وقطعت أيديهم عقاباً لهم بما جنت أيديهم » هذا وقد صورت في إحدى النقوش التي تمثل مدينة سوس وهي ترد الى عهد اسوربانيبال وشوهدت فيها رؤوس المغلوبين يمدبهم الاشوريون وقد صلمت آذان بعضهم وسملت أعين آخرين ونفت لحاهم . وهناك رجل يسلم جلوده وهو حي مما دل على ان أولئك الملوك كانوا يرتاحون الي ما يتم على أيديهم من الحرائق والمذابح والعذاب

خراب المملكة الاشورية — بدأت هذه الطريقة في الحكم في القرن الثالث عشر زمن الاستيلاء على بابل وذلك نحو عام ١٢٧٠ وظل الاشوريون منذ القرن التاسع يسرحون الحملات ويشنون الغارات حتى أخضعوا وان شئت فقل خربوا بلاد بابل وسورية وفلسطين ومصر وكان المغلوبون يشعرون في غضون تلك المدة بلا انقطاع والمذابح قائمة على ساق وقدم . ثم ضعفت قوى الاشوريين واتحد البابليون والماديون فقلعوا عرش مملكتهم بنوى عاصمة بلادهم سنة ٦٢٥ وهي المدينة التي سماها أنبياء بني اسرائيل « عرين

الاسد » ومدينة الدم والفنيمة فتيسر الاستيلاء عليها وخربت فلم تبق لها قائمة بمد . قال النبي ناحوم (خربت نينوى فمن يشفق عليها ياترى)

البابليون

المملكة الكلدانية — قامت مملكة اشورية جديدة مكان بلاد الكلدان القديمة الدائرة دعيت مملكة البابليين او المملكة الكلدانية الثانية . وقد تكلم احد انبياء اسرائيل على لسان الرب فقال : « انا احبي الكلدان تلك الامة الظالمة وسرعان ما تطوف الارض للاستيلاء على ساكني غيرها وان خيولها لا تخف سيراً من الثمر وفرسانها لينثشرون في الاطراف ويطيرون كأنهم ينقض على قنيصته » وبالجملة فقد ألف الكلدانيون الفروسية والحرب والفتح وهم يقاتلون الاشوريين كل الماثلة فاستولوا على بلاد الفرس والجزيرة وبلاد اليهود وسورية وكانت مدة حكمهم قصيرة فقد أنشئت المملكة البابلية سنة ٦٢٥ وابادها الفرس سنة ٥٣٨ ق م .

بابل — كان يختصر (٦٠٤ — ٥٦١) من اقدر ملوكها وهو الذي خرب بيت المقدس وساق اليهود امرى واسس في بابل عاصمة بلاده كثيراً من المعابد والقصور . اقيمت هذه المعاهد بالآجر لقلة الحجر في سهل الفرات . ولما كتب عليها الدثور والنفاء لم يبق منها الا كوم من انتراب والانقاض وقد عثر في المكان الذي كانت فيه بابل على بعض كتابات ففرت هيئة المدينة . بيد ان هيرودتس اليوناني وصف مدينة بابل وصفاً مسهباً وكان زارها في القرن الخامس ق م فاذا هي محاطة بسور مربع يشقه الفرات وكانت المدينة تشغل حيزاً من الارض مساحته ٥١٣ كيلومتراً مربعاً

(أي سبعة اضعاف مدينة باريز) ولم تكن كل هذه البقعة الفسيحة الارجاء عامرة بالدور والمساكن بل كان يتخللها حقول مزروعة تقوم باراد السكان آونة الحصار . فكانت بابل من ثم اشبه بمعسكر حصين منها بمدينة . وفي جدرانها ابراج ولهامة باب من النحاس الاصفر وكان سمكها صالحاً لمرور مركبة عليها وفي حيال السور خندق عريض عميق مليء ماء وسترت حافته بالقرمد . وكانت دورها ذات ثلاث طبقات او اربع والشوارع وسطها زوايا قائمة . وما اعجب بناء جسر الفرات وارصفته والقصر الحصين والجنان المعلقة احدى عجائب الدنيا السبع . وهذه الجنان سطوح مفروسة بالاشجار قائمة على عمد وقباب مصفوفة طبقات الاولى بعد الثانية .

برج بابل - بني بختنصر في طرف المدينة برج بابل وقال في احدى كتاباته «لقد جددت اعجوبة بورسيبا (من ضواحي بابل) ايمجب الناس منها وهو معبد السيارات السبع في الدينا فاعدت تأسيسه على النحو الذي كان عليه في الازمان السالفة » . وهذا المعبد على شكل مربع مؤلف من سبعة ابراج بعضها على بعض وخص كل برج باحدى السيارات السبع وصور باللون الذي اختاره الدين لتلك السيارة . وهذه الالوان اذا بدى بها من أسفل فهي : زحل (سواد) والزهرة (بياض) والمشتري (ارجوان) وعطارد (ازرق) والمريخ (قرمزي) والقمر (فضي) والشمس (ذهبي) . وكان في أعلى الابراج مصلى ومنضدة من ذهب وفراش وثير تسكن اليه كاهنة .

اخلاقهم وديانهم

اخلاقهم — لانعرف هذه الشعوب الا بمآهدها ومآهدها تكاد لاتعدى اعمال ملوكها فلا ترى الاشوريين أبداً الا وهم مصورون في حرب او في صيد او في احتفالات وما صور نساؤهم قط اذ كنّ حلس بيوتهن لا يخرجن للناس . وعلى العكس في الكلدان فلهم كانوا اهل حراثة وتجارة ولكننا لانعرف شيئاً عن حياتهم . يقول هيرودتس ان هذه الامة كانت تجمع البنات في مدنها مرة واحدة في العام لتزويجهن فيديمون الجميلات منهن ويؤخذ ثمنهن ليعطى جهازاً الى مشوهات الخلقة . قال وعندي ان هذا القانون من احكم ماوضع من القوانين والشرائع .

ديانهم — دين هاتين الامتين واحد فالاشوريون تمذهبوا بمذهب الكلدانيين وقد التبس علينا هذا الدين لانه نشأ كدين الشعب الكلداني من مزيج ديانات متباينة مشوشه كلها . فكان التورانيون يعتقدون على نحو ماتوهمه قبائل سبيريا الصفر ان العالم غاص بالشياطين (مثل الطاعون والحمى والاشباح والغاريت) دأبها تربص البشر بالشر والاخذ بمنقهم ولذلك تراهم لا يلجأون الى السحرة ليطردوا عنهم هاته الشياطين برقياتهم . وكان الكوشيون يعبدون رين ذوي اقنومين الذكر وكان القوة بزعمهم والانثى وهي المادة وكان الكهنة الكلدان وهم مجموع طوائف قوية من المنعة بحيث ساع لهم ان يعنوا بتوحيد الدينين .

الارباب — الرب المتعال هو ايلو في بابل واسور في اشور وقلم يقيمون له معبداً ومنه يشتق ثلاثة ارباب وهم آتو رب الظلمة وصورته صورة رجل وذنب نسر معصّب رأسه برأس سمكة . وبعل ملك الارواح مصور

كالملك على عرشه . ونواح وهو العالم المنظور هيئته هيئة جبار ذي اربعة اجنحة
 منتشرة . ولكل من هذه الارباب ربة انثى اشارة الى كثرة الاولاد
 والذري . ثم ترد من اسفل صور القمر والشمس والسيارات الخمس
 والكواكب وفي هواء بلاد الكلدان الشفاف يضيئ سناها اضاءة لم نعهدها
 فتتألق كالارباب . وقد اقام الكلدانيون معابدهم باسم هذه الارباب وما
 هي في الحقيقة الامراض يتمكن منها المتعبد من مراقبة سير الافلاك .
 علم التنجيم — ذهب الكهنة الى ان هذه الكواكب ارباب عظيمة
 تعمل عملها في حياة الانسان . فكل امرئ يولد في الدنيا في طالع كوكب
 من الكواكب فينتأى التنبؤ بسعده اذا علم الكوكب الذي ولد في
 طالع . ومن هنا نشأ علم التنجيم والفأل فما يحدث في السماء علامة على
 ما سيحدث على الارض . فالنجم المذنب مثلاً تأتي بحدوث ثورة .
 ويعتقد كهنة الكلدانيين انهم اذا رصدوا القبة الزرقاء وسياراتها يتنبأون
 بالحوادث وهذا أصل التنجيم .

علم السحر — للكلدان ضروب من الرقى والطلسمات يدممون بها
 لطرد الارواح أو استحضارها . وهذه العادة من بقايا ديانة التورانيين وهي
 أصل السحر . نشأ علم السحر والتنجيم في بلاد الكلدانيين وانتشر في أفق
 المملكة الرومانية ثم تعداها الى بلاد أوروبا . عرف ذلك من تتبع القوانين
 السحرية في القرن السادس عشر وكان فيها اذ ذاك كلمات آشورية محرفة .
 العلوم — نشأت علوم النجوم في بلاد الكلدان فنها عرفنا منطقة
 البروج وتألف الاسبوع من سبعة أيام اكراماً للسيارات السبع وتقسيم السنة
 الى اثني عشر شهراً واليوم الى أربعة وعشرين ساعة والساعة الى ستين

دقيقة والدقيقة الى ستين ثانية . وعندهم أخذنا طريقة الاوزان والمكاييل محسوبة على مقياس الطول مما ألف بالاستعمال عند الشعوب القديمة كافة

الصنائع

علم عقود الابنية — لا نعرف صنائع الكلدانيين حق معرفتها اذ قد سجل العفاء على معاهدهم . وقد هذا أهل الصنائع من الاشوريين ممن رأينا صنائهم حذو الكلدانيين فصح الحكم على الملكتين جملة واحدة . كان الاشوريون يبنون كالكلدانيين بأجر مجتهد بالشمس ويفشون ظواهر الابنية بالاحجار .

القصور — اقام الكلدانيون قصورهم على آكام صناعية جعلوها واطئة مسطحة تشبه سطوحاً كبيرة واقتضى جمل العماري والفرف ضيقة واطئة واكتفي بتطويلها كثيراً لان الآجر لم يكن لينفع في بناء القباب المنبسطة العالية . فالقصر الاشوري يشبه سلسلة أروقة ودهاليز . والسقوف سطوح ممتدة ذات شرفات وفي الباب ثيران ضخمة مجنحة على هيئة الانسان . والجدران منسأة من الداخل تارة بروافد من الخشب النفيس وطوراً من الآجر المزين بالمينا وأخرى بصفايح من الرخام الابيض المنقوش وآتات تزدان الفرف بالصور ويحلى الاثاث بالترصيع البديع

النقش — يعجب المرء من نقوش الصور الاشورية خاصة ومن المحقق ان التماثيل نادرة ولا اتقان فيها لان النحاتين يؤثرون تحت صفائح كبيرة من الرخام ونقوش ناتئة تشبه الصور ويرسمون مشاهد لانظام فيها احياناً وحروباً وصيوداً وحصارات مدن واحتفالات يخرج الملك بها في مركب حفل وهناك تتجلى التفاصيل الدقيقة . فترى بنات الخدام الموكلين بطعام

الملك وزمر العملة يبنون له بلاطه والحدائق والحقول والغدران والاسماك في الماء والطيور ترفرف على وكناتها أو تتطاير من شجرة الى أخرى . وترى صور الكبراء من جوانب وجوههم لان أهل الصناعة ما عرفوا تصوير هامن الامام . ولكنك تقرأ في سحناتهم الحياة والشرف . وتظهر الحيوانات في الاحايين وخصوصاً في الرسوم البارزة في الصيد وفي العادة أن تنقل نقلاً حقيقياً مدحشاً . وكان الاشوريون يتألمون الطبيعة ويرسسونها أصح رسم وبهذا تعرف قيمة صنائعهم حتى ان اليونان اقتدوا بمذهبهم في الصنائع بان قلدوا النقوش الاشورية ففاقوا مقلديهم وليس في الاعمى حتى ولا اليونان أنفسهم من أحسنوا تصوير الحيوانات كالاشوريين /

الفينيقيون

صور وقرطاجنة

وصفها — فينيقية من بقاع الارض الضيقة طولها خمسون فرسخاً وعرضها من ثمانية فراسخ الى عشرة وهي بين بحر سورية واعلى سلسلة في جبل لبنان . بل هي على التحقيق عبارة عن سلاسل أودية ضيقة ومجار - رجة متخللة بين هضاب وعرة ممتدة الى البحر ومسائل من الثلوج . تبيت بها العواصف الى آخر الربيع اماني الصيف فينضب . ماؤها الاماخرن منه في الآبار والصحارى . ولقد كسيت جبال هذه الناحية بالاشجار فكان في القمم ارز لبنان المشهور وفي المنحدرات الصنوبر والسرو وفي السفوح اشجار النخيل بالغة شاطئ البحر وفي الاودية ينو الزيتون والكرم والتين والرمان .

مدنها - تألف عن بعد على طول الشاطئ الصخري رؤوس من البحر او جزر منه تكون منها مرافئ طبيعية في هذه المواني أقام الفينيقيون مدنها . فقامت صور وارواد في جزيرة يزدحم فيها السكان في المنازل وكانت ذات طبقات ست وسبع وثمان . ويجلبون الماء لشفاهم في القوارب . أما مدينة جبيل ويروت وصيدا فكانت في اليبس . ولم تكن أرض هذه البلاد لتقوم باود هذا العدد الدثر من الناس ولذلك مال الفينيقيون الى الملاحة والتجارة .

• الخرائب الفينيقية - لم يحفظ عن الفينيقين كتاب فقد ضاعت حتى كتبهم المقدسة . ولقد جرى الحفر في مواضع مدنها ولكن الخرائب على ما قال العالم المندوب الى ذلك لم تسلم إلا في البلاد المهملّة المتروكة . على ان السوريين عنوا كثيراً بالخرائب فانتهكوا حرمة القبور واخذوا حلي الموتى رهدموا العمارات ليستعينوا باحجارها على البناء وحطموا النقوش وذلك لكرهه المسلم الصور المنحوتة بحيث لم يبق اليوم سوى شقيف من الرخام المحطم واحواض ومعاصر نحتت في الصخر وبضعة نواويس من الحجر . اطلال قلما تجدي ثقباً وتأثي العلم بفوائده . وليس ما عرف عن الفينيقين إلا ما علمناه كتاب اليونان وانباء اسرائيل .

حكومة الفينيقين - لم تكن فينيقية مملكة قائمة برأسها بل كان لكل مدينة ناحية صغيرة تستقل بها ولها مجالس وملك تحكم نفسها بنفسها وتبعث بمندوبيها الى أنظم مدينة فينيقية لفض المصالح المشتركة وكانت صور محط رحال المندوبين منذ القرن الثالث عشر . واذا لم يكن الفينيقيون أمة حربية خضعوا السطوة جماع التأمحين من مصريين واشوريين وبابليين وفرس وادوا لهم الجزية عن يد وهم صاغرون .

صور - كانت هذه المدينة منذ القرن الثالث عشر من أهم المدن الفينيقية ضاقت على أهلها فاقامت اذ ذاك مدينة جديدة قبالتها . ولقد أسس تجار صور مستعمرات في البحر الابيض كله يصيدون الفضة من مناجم اسبانيا وطلع العالم القديم أجمع ، دعاهم أشعيا النبي الامراء ووصف حزقيال النبي تلك القوافل التي كانت تأتيتهم من كل صوب وأوب وطلب سليمان النبي الى هيرام احد ملوك صور عملة يشغلهم في بناء القصر والمعبد في بيت المقدس .

قرطاجنة - كانت هذه المدينة مستعمرة صور فقاقت هذه بالمعظمة وذلك ان الصوريين نبذتهم احدى الثورات فاسسوا مدينة قرطاجنة على شاطئ افريقية بالقرب من تونس بشتمهم على ذلك امرأة اسمها ايليسار ونحن ندعوها ديدون (الفارة) ويحكى ان سكان البلاد ابوا ان يبيعوها إلا مسافة تكفي لتغطية جلد ثور ففصلت جلد الثور سيوراً رقيقة بحيث اقتضت مكاناً واسعاً يستوعبها فبنت القلعة اذ ذاك . ولقد اتسمت قرطاجنة لموقعها في منتصف البحر الرومي ولان فيها مرفأين فاقامت مي أيضاً مستعمرات وفتحت فتوحاً حتى آل امرها الى ان حكمت شاطيء افريقية باجمعه واسبانيا وسردينيا وكان لها في كل مكان مكاتب لتجارها ورعايا يؤدون لها الجزية .

الجيش القرطاجني اقتضى لقرطاجنة ان تدرب لها جيشاً لتصون مكاتبها التجارية من حيف الوطنيين وتربأ برعاياها عن الانتقاض . ومن ثم كانت حياة القرطاجني ثمينة لا يخاطر بها إلا عند الضرورة . آثرت قرطاجنة اكتراء الجند فجندت لها جنداً من البربر سكان بلادها ومن متشردى كل صقع وناحية فصارت صبغة جيشها مبرقشة ملونة يتكلم اللغات كلها ويدين بالاديان كافة . ولكل جندي بزته واسلحته الخاصة به تخالف بزة رصيفه

واسلحته . فترى فيهم النوميديين يلبسون جلد الاسد يتخذونه وطاء كما يتخذونه غطاء . يركبون خيلاً سريعة صغيرة بدون نظام ويطلقون القوس وخيولهم تمدو عدواً . كما كنت ترى فيهم الليبيين وجلودهم سوداء مساحين بحراب . وطائفة من الايبيريين في اسبانيا لباسهم بياض مزين بحمرة وسلاحهم سيف طويل محدد . وغالين عراة الى الزنار يحملون تروساً كبيرة وسيفاً محدداً يمكنه بكتا يديهم . وجماعة من البالياريين مدربين من طفولتهم على رمي الحجارة او كرات الرصاص بالمقاليع . أما القواد فكانوا قرطاجنيين يخافهم الحكومة فترقبهم عن أمم وربما صلبتهم اذا غلبوا ولم يحرزوا نصراً مؤزرًا .

القرطاجنيون - كان في قرطاجنة ملكان والامر والنهي لمجلس الشيوخ وهو مؤلف من أغنى تجار المدينة ولذلك كانت كل قضية ينهى بها الى الحكومة مسألة تجارية . كره الناس القرطاجنيين لقسوتهم وطعمهم وغدرهم ولما كان لهم أسطول منظم وعندهم مال يستأجرون به جنداً وحكومة باطشة تهيأ لهم توطيد دعائم ملكهم في غرب البحر المتوسط مدة ثلاثة قرون (من القرن السادس الى الثالث) بين ظهري شعوب بربرية منشقة على نفسها مختلفة كلتها الديانة الفينيقية - للفينيقيين والقرطاجنيين دين يشبه الديانة الكلدانية فالرب الذكر ويسمى عندهم بعل هو الشمس والربة الانثى وتدعى بعلت هي القمر والشمس والقمر في نظر الفينيقيين قوى هائلة تحمي وتحمي . ولكل من المداين الفينيقية ربان . فلصيدا بعل صيدون (الشمس) وعشروت (القمر) ولقرطاجنة بعل عمون وتانيت ولجبل بعل تموز وباليث . ويختلف اسم الارباب في الاعبارات ايجاداً وعمداً وهكذا يمد بعل . مثلاً في قرطاجنة باسمه وارش ويعتبر عمداً . وقد تنوب عن هذه الارباب أصنام ولها معابد ومذابح وكنة

يعظمون من شأنهم ويقيمون لهم المآدب والاعیاد الخافضة باعتبار كونهم
 موجدین ويقدمون لهم ضحايا بشرية باعتبار كونهم مخربين وتعبد عشتروت
 ربة الصيد العظيمة في الغابات المقدسة ويصودونها على شكل هلال القمر
 والحمامة ويرسم بمل مولوش في قرطاجنة تمثالاً عظيماً من القنز باسطاً ذراعيه
 ومدليهما واذا ارادوا تسكين غضبه يرفعون على يديه اطفالاً تسقط للحال في
 هاوية من نار. وقد قدم اعيان مدينة قرطاجنة مائتي طفل من اولادهم ضحايا
 للربة مولوش في خلال حصار اغاتوكل لقرطاجنة

هذا وان تلك الديانة على ما نشأت عليه من الشهوات وسفك الدماء
 لترهب الشعوب الاخرى ولكنهم يحاكونها ويأتمنون بها فكان يذبح اليهود
 لبل على الجبال ويعبد اليونان استاريه وصيدون باسم افروديت وبل ملخارت
 من صور تحت اسم هيراكليس

التجارة الفينيقية

اشغال الفينيقيين -- عاش الفينيقيون بالتجارة لازدهام أقدامهم في بقعة
 ضيقة من الارض ولم يكن لسائر شعوب الشرق من مصريين وكلدانيين
 واشوريين ولا قبائل الغرب البربرية (الاسبان والغاليين والاطليان) عهد
 يركوب البحار وشق العباب والفينيقيون وحدهم جروا في تلك الايام على
 تجشم البحر فصيح ان يدعوا من اجل هذا عملاء تجارة العالم القديم وقادة
 البيع والشراء يتعاونون من كل شعب سلمه ويتفايضون معه على غلات البلاد
 الاخرى تجارة كانت مستحكمة الصلات مع الشرق برآ والغرب بحراً
 القوافل -- اعتاد الفينيقيون ان يرسلوا في البر قوافل تسج وجهات ثلاث
 احداها الى بلاد العرب لتأتي منها بالذهب والعقيق الباهي والبخور والصبر

وعطور بلاد العرب واللؤلؤ، والابازير والماج والابنوس وريش النعام وقرود الهند. والقافلة الثانية ترحل الى بلاد اشور لتعود منها بالنسجة القطن والكتان والحر والاحجار الكريمة والماء المطر وحرير الصين . وتقصّد القافلة الثالثة انحاء البحر الاسود لتستجلب منها الخيل والرقيق والاواني النحاسية من مصنوعات سكان جبال قافقاسيا « القوقاز »

بحريتهم - بنى الفينيقيون بخشب ارز لبنان المتين قوارب باسّرة ومجاذيف حملوا عليها متاجرم البحرية وما مست حاجتهم ان يكونوا ابدآ على مقربة من الشواطئ في ركوبهم البحر اذ كانوا يتجهون حيثما ارادوا بجعل نجمة القطب قيد نواظرم وكانوا يستدلون بها على الشمال . ولقد فطر الفينيقيون على الاستخاف بركوب اليمّ فالفوا باقتصمهم في مراكب صغيرة تغدوهم وتروح في اطراف البحر الرومي بل جرأوا على اجتياز مضيق جبل طارق او كما دعاه القدماء « اعمدة هيركول » فيجتازون البحر المحيط الى شواطئ انكلترا وربما يلقوا بلاد الروج . سافرت عصابة منهم في خدمة احد ملوك مصر في القرن السابع وجازت البحر الرومي لتطوف حوالى افريقية ثم رجعت على ما قيل بعد ثلث سنين من البحر الاحمر وغادرت قرطاجنة حملة ضربت نحو شاطئ افريقية الى خليج غينة . وقد كتب القائد هانون قصة في هذه الرحلة

البضائع - كان الفينيقيون يتعاونون محاصيل صناعات الشعوب المتمدة ويبحثون في البلاد المتوحشة عما يهل الظفر به في المشرق من الحماريل . يصطادون الصدف من شاطئ بلاد اليونان ومنه يستخرجون صباغاً احمر وهو الارجوان . وكانت الانسجة الارجوانية تستعمل عند الاقدمين كافة

ملابس للملوك والامراء ويجلبون الفضة التي يستخرجها أهل اسبانيا وسرديا
من مناجهم وكان القصدير من ضرورياتهم يستعملونه في صنع النحاس الاصفر
وهو مركب من نحاس وقصدير لا أثر له في بلاد الشرق ولذا كان الفينيقيون
يرحلون في طلبه وينشدونه حتى في شواطئ انكترا في جزائر القصدير
المعروفة بجزائر كاسيتريد . وحيثما حلوا يتخذون الرقيق يتبعونه تارة كما كان
يتباع النحاس العبيد في ساحل افريقية . اذ الشعوب القديمة كلها كانت
تجرب بالرقيق . وينزلون طورا في احدى السواحل فجأة فيختطفون النساء
والاطفال وينقلون بهم الى بلادهم او يبيعونهم في القاصية . واذا واتهم الحال
ينقلون قرصانا ولا يحامون إطالة يد التعدي على الاغيار

سـر اختص به الفينيقيون — لم يلق الفينيقيون إلا من قيام بحارة الاء
الآخرى الى منازعتهم السلطة على البحار ومجاراتهم في الملاحة والتجارة
ثم كانوا يكتسبون الطريق التي يسلكونها لدن عودتهم من لاقطار النائية
ولذا لم يعرف احد في القديم جهة جزر الكاسيتريد المشهورة التي جلبوا منه
القصدير . وقد رأت احدى المراكب بلاد اسبانيا التي كانت لها صلات
تجارية مع فينيقية منذ قرون عرسا بدون تعمل . وكانت قرطاجنة تفرق
من تصادفهم من التجار الاجانب في سردينيا او في ناحية جبل طارق . حر
ان ريان احدى المراكب أغرق سفينة ذات يوم عند ما رأى سفينة غربية
تطارده مخافة ان تطلع على خطة سيره

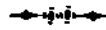
مستعمراتها — انشأ الفينيقيون مكاتب تجارية في البلاد التي اتجروا فيه
وهي مراكز للبرد حصينة واقعة على شاطئ بحر على مرفأ طبيعي يخرجوا
اليها بضائهم وهي في العادة انسجة ونغار وحلي واصنام فيأتي أهل تلك البلا

بثلاثهم فيقايضونهم عليها كما يقايض اليوم تجار الاوربيين زئوج افريقية .
تقام أمثال هذه الاسواق في قبرص ومصر وجميع بلاد البحر الرومي التي
كانت على همجيتها مثل افريطش (كريت) وبلاد اليونان وصقلية وافريقية
ومالطة وسردينيا وشواطئ اسبانيا (مالقة وقادس) وربما أقاموها في بلاد
الغول (موناكو) وكان اهل البلاد يننون اكواخهم حول بنايات الفينيقيين
فيصبح السوق مدينة ويقتبس السكان ارباب الفينيقيين وقد دامت عبادة ربة
على صورة الحمامة حتى بعد ان صارت المدينة يونانية كما في سبتير والرب
ملخارت كما في كورنت ورب ذو جبهة نوريفترس الضحايا البشرية كما في
افريطش

نقوذ الفينيقيين - لم يكن يخطر للفينيقيين شيء على بال لما أسسوا
مكاتبهم التجارية إلا الاحتفاظ بمصلحتهم الخاصة ولكن حدث ان نفعت
مستعمراتهم التمدن فان برابرة الغرب اخذوا عن أمم الشرق وكانت أكثر
منها تمدناً كيفية صنع الإنسجة والحلي والماعون وتعلموا محاكاتها . مضى حين
من الدهر واليونان لم يعرفوا غير الاواني والحلي والاصنام التي يأتيهم بها
الفينيقيون وعلى منوال هذه البضائع نسجوا بعد فان الفينيقيين حملوا من
مصر واشور الصناعة والبضائع مما

الابجدية - حمل الفينيقيون ايضاً الى البلاد التي نزلوها ابجديتهم وحروف
الهجاء ولم يخترعوا الخط اذ كان المصريون يعرفون الكتابة قبلهم بقرون وقد
استعملوا حروفاً تدل كل منها على صوت كما هو الحال في حروف الافرنج .
على ان خطهم كان مشوشاً بعلامات قديمة يدل بعضها على مقطع وآخر على
كلمة برمتها . لا جرم انه اقتضى للفينيقيين اذ ذاك طريقة أبسط لكتابة

رسائلهم التجارية فاطرحوا العلامات كلها من مقاطع وصور ولم يبقوا سوى
 اثنين وعشرين حرفاً يدل كل منها على صوت او على لفظ باللسان فاقتبست
 الشعوب الاخرى هذه الابجدية المؤلفة من اثنين وعشرين حرفاً. فقد كتب
 اليهود من اليمين الى الشمال كما كتب الفينيقيون وكتب غيرهم كاليونان من
 الشمال الى اليمين وكلهم بدلوا شكل الحروف إلا قليلاً. والخط الفينيقي على
 التحقيق أصل الابجديات كلها من يهودي وليسي ويوناني وايتاليكي
 وابروسكي وايسيرسكي وربما كان الخط النروجي ايضاً فالفينيقيون هم الذين
 علموا العالم الكتابة .



الاسرائيليون

العبرانيون

التوراة - جمع اليهود أسفارهم المقدسة بأسرها في سفر واحد دعوه
 التوراة وهو اسم يوناني معناه الكتاب هذا هو سفر اليهود الجليل وقد صار
 لاهل النصرانية ايضاً كتاباً مقدساً. وفي التوراة ايضاً تاريخ الامة اليهودية
 ولقد استفدنا كل ما اتصل بنا عن الشعب المقدس من الكتب المقدسة
 العبرانيون - لما نزل الساميون من جبال ارمينية الى سهول الفرات
 أخذت احدى قبائلهم على عهد مملكة الكلدان الاولى تضرب نحو الغرب .
 فجازت الفرات فالقفر السورية وبلغت بلاد الأردن وراء فينيقية وتعرف هذه
 القبائل بالعبرانيين يعني اهل ما وراء النهر وهم كعظم الساميين شعب من
 الرعاة الرحالة لم يحرثوا الارض ولا سكنوا الدور والمنازل بل كانوا يتنقلون

من مكان الى آخر في قطائن قزم وغنهم وجاهلهم متعجبين المرائي آوين الى
الحمام على نحو ما يعش العرب في البادية اليوم . وفي سفر التكوين وصف
هذه العيشة البدوية

البطاركة - كان السبط منهم أسرة كبيرة مؤلفة من الرئيس ونسائه
واولاده ومواليه وكان للرئيس على الجميع سلطة مطلقة فكان بهذا السبط
أباً وكاهناً وقاضياً وملكاً . من اجل هذا دعونا هؤلاء الرؤساء للبطاركة
واعظمهم ابراهيم ويعقوب فالاول اب العبرانيين والآخر والد الاسرائيليين
اظهرتهما التوراة في مظهر رجلين ارسلهما الله ليرأسا شعباً مقدساً وقد اعطى
ابراهيم ربه ميثاقاً ووعدته الطاعة هو ومن يأتي بعده من قومه فبشر الله
ابراهيم بذرية تفوق نجوم السماء عدداً واطمأنت نفس يعقوب بان تكون منه
امة عظيمة وشعب جم

الاسرائيليون - سمي يعقوب باسم اسرائيل اي مدافع عن الله لرؤيا
رآها ودعي سبطه بني اسرائيل او الاسرائيليون . وذكرت التوراة ان
المخطط حدا يعقوب ان ينادر بلاد الاردن ليسكن واهل بيته صغارهم وكبارهم
على النخوم الشرقية من مصر وهي البلاد التي دعاه يوسف احد ابناءه الى
هبوطها وقد صار وزيراً لعزیزها احد القراعنة . وظل بنو اسرائيل في تلك
الارحاء قروناً كثيرة فجاءوا وعددهم سبعون نسمة ونعوا على قول التوراة حتى
صار عددهم ستمائة الف رجل . خل عنك النساء والاولاد

نزول الوحي على موسى - اقتنع عزيز مصر يسوم الاسرائيليين صروب
المظالم ويضطرهم الى صنع الملاط والقرمذ لابناء مدن حصينة فقام من بينهم
اذنك موسى احد بنيهم وقد اوحى اليه ربه وعهد اليه ان يخدم من الجور

والصنف وكان يرعى غنمه ذات يوم على الجبل فظهر له ملك وسط طبيعة
تخفى ثم سمع هذه الكلمات : « انا رب ابراهيم واسحق ويعقوب رأيت
مادم شعبي في مصر من الحزن وسمعت شكواه ممن يظلمونه وعرفت مايتاله
من العذاب ولذا نزلت خلاصه مما يفتابه من المصريين لانزله بلاداً من ارض
كنعان تفيض لبناً وعسلاً فتعال اذا أرسلك الى فرعون تخلص شعبي ابنا
اسرائيل وتخرج بهم من مصر » فقال موسى الاسرائيليين وهاجروا من
مصر وهذا مايدعى بالخروج او سفر الخروج واجتازوا بسفح جبل طور سيناء
وهناك تلقوا شريعة الرب وأخذوا يذهبون جيلاً كاملاً في القفار جنوبي سورية
اسرائيل في القفر - وكثيراً ما كان الاسرائيليون يودون الرجوع الى
البلاد التي تركوها فيقولون : « انا لنذكر ما كتنا نطعمه في مصر من السمك
والقثاء والبطيخ والكراث والبصل تخليق بنا أن تؤمر علينا زعيماً يقودنا الى
بلادنا وكان موسى يدعوهم الى الطاعة ثم بلغوا الارض التي وعد الله اباؤهم
الارض الموعودة - دعت ارض كنعان أو فلسطين فدعاها اليهود
بلاد اسرائيل ثم دعت بعد بلاد اليهودية ودعاها أهل النصرانية الارض
المقدسة وهي بلاد جافة قاحلة في الصيف ولكن فيها جبال وآكام وصفتها
التوراة بما يلي : لقد سافرت ربك القيوم الى بلد طيب ذات أنهار ونبات في
الارض تبجس من الوادي وعلى الجبل بلد البر والشعير والكرم والتين
والرمان والزيتون والزيت والمسل بلاد تأكل فيها خبزك آمناً من القحط لا
ترزأ في مال ولا يتقصك شيء من رقاية الحال. وبلغ عدد الاسرائيليين بعد
الاحياء عندئذ ٦٠١٧٠٠ رجل يحمل السلاح منقسمين الى اثني عشر سبطاً
عشر منها من نسل يعقوب واثان من نسل يوسف هذا عدد الاسرائيليين

أو الكهنة وعدد ٢٤ ألف رجل . وكانت تسكن البلاد التي نزلوها عدة
شعوب صغيرة تدعى الكنعانيين فأبادهم الاسرائيليون واستولوا على بلادهم
« ديانة الاسرائيليين »

الله الفرد — عبد سائر الشعوب القديمة اربابا كثيرة أما الاسرائيليون
فاعتقدوا بوجود إله منزه عن الهيول برأ العالم ودبره . ففي سفر التكوين
ان الله خلق في البدء السموات والارض . وقد خلق النبات والحيوان وخلق
الانسان على صورته ومثاله فالبشر كلهم صنعة الله

شعب الله — بيد ان الله اختار من بين الناس جميعا ابناء بني اسرائيل
ليجعلهم شعبه وامته فدعا ابراهيم وقال له ساجد بيني وبينك وذريتك
عهدا لا كون ربك ورب ذريتك من بعدك . وقد تمثل الله ليعقوب قائلا له :
انا الله القادر اله آباءك فلا تخاف من مصر فساجعلك فيها امة عظيمة .
ولما سال موسى ربه عن اسمه اجابه : تقول لابناء اسرائيل اني انا الله السرمد
اله آباءك ابراهيم واسحق ويعقوب ارسلني ربي اليكم هذا هو اسمي
على الدهر

العهد — فبين الاسرائيليين والمولى تعالى اذا اتحاد او عهد فالقيوم جل
جلاله يحب الاسرائيليين ويدفع عنهم البوائق فهم والحالة هذه امة مقدسة
« واعلى الشعوب كافة في نظره » وقد وعد ان يجعلهم سعداء اقواء وتعد
الاسرائيليون ان يقابلوه على ذلك بان يعبده ويخدموه ويطيعوه فيما يريد
عليه كما يطاع المشرع والقاضي والمعلم

الوصايا العشر — أوحى القيوم الصمد عز شأنه مشرع بني اسرائيل
بوصاياه الى موسى على جبل طور سيناء بين البرق والرعد وهي مسطورة في

لوحين وهما اللوحان اللذان كتب الله عليهما وصاياه المشر بما نصه : لا يكن لك آلهة اخرى امامي لا تصنع لك تمثالا منحوتاً ولا صورة ما مما في السماء من فوق وما في الارض من تحت وما في الماء من تحت الارض لا تسجد لهن ولا تعبدهن لاني انا الرب الهك اله غيور افتقد ذنوب الآباء في الابداء في الجيل الثالث والرابع من مبغضي واصنع احساناً الى ألوف من محبي وحافظي وصاياي لا تنطق باسم الرب الهك باطلا لان الرب لا ييري من نطق باسمه باطلا اذ كر يوم السبت لتقدسه ستة ايام تعمل وتصنع جميع عملك واما اليوم السابع ففيه سبت للرب الهك لا تصنع عملاً ما أنت وابنتك وابنتك وعبدك وامتك وبهيمنتك وزيتك الذي داخل ابوابك لان في ستة ايام صنع الرب السماء والارض والبحر وكل ما فيها واستراح في اليوم السابع لذلك بارك الرب يوم السبت وقدسه اكرم اباك وامك لكي تطول ايامك على الارض التي يعطيك الرب الهك لا تقتل لا تزني لا تسرق لا تشهد على قريبك شهادة زور لا تشته بيت قريبك لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا امته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئاً مما لقريبك

الشرعية — على الاسرائيليين ما خلا هذه الوصايا العشران يعملوا بكثير من الاوامر الالهية مما ذكر في اسفار التوراة الخمسة الاولى وهي التي تتألف منها شريعة اسرائيل . فالشرعية تنظم عندهم احتفالات العبادة وتعين اعياد (السبت كل سبعة ايام والقصح ذكرى خروجهم من مصر وجمعة الحصاد وعيد المظال في موسم قطف العنب) والشرعية هي التي ترتب الزواج والاسرة والتملك والحكومة وتعين العقوبات على الجرائم وتحدد الاطعمة والادوية فالشرعية عندهم والامر على ما ذكر مجلة الاحكام الدينية والسياسية والمدنية

والجزائية ولمولى الاسرائيليين تعالى أن ينظم أعمال حياتهم جميعها
 (الديانة الفت الشعب اليهودي) لم يقبل الاسرائيليون بحكم الله قبول
 من خضع وخنع فقد قال موسى للاويين وهو على فراش الموت دافعاً اليهم
 كتاب الشريعة « خذوا هذا الكتاب ليكون شهادة عليكم يا اسرائيل لاني
 عارف بما أنتم عليه من شكاسة الخلق وقساوة القلب ولم تبحرخوا طول حياتي
 تبذون نواجذ العصيان على المولى القيوم فليت شعري ماذا يكون من شأنكم
 بعد مماتي . وقد حدث أن مرت قرون ومن العبرانيين من يعبد الاصنام
 وربما كانت هذه الفئة هي السواد الاعظم من الامة على انهم أصبحوا أشبه
 بسائر الساميين في سورية وظل الاسرائيليون وحدهم على قدم الاخلاص
 للمولى جل شأنه فتألف منهم الشعب اليهودي وخرج الشعب المبارك بدين
 الله المتعال من قبيلة مجهولة على التدرج . نعم انها لامة قليلة الحصى والمعدد
 ولكنها من الامم التي لها الشأن الاعظم في تاريخ العالم

• " ملكة القدس "

القضاة - نزل العبرانيون أرض فلسطين ولكنهم ظلوا منشقين قروناً
 كثيرة لم يكن لذلك العهد كما تقول التوراة ملك لاسرائيل بته بل كل يعمل
 على شاكلته ويحكم بما يوحى اليه رأيه . وكثيراً ما كان الاسرائيليون يندون
 ربهم ويعبدون أرباب القبائل المجاورة فاستشاط ربهم عندئذ غضباً من سيئات
 أعمالهم وأسلمهم الى أيدي أعدائهم يفعلون بهم الافاعيل حتى اذا ندموا على
 ما فرطوا في جنب الله وأصبحوا خاضعين خائعين يرسل ربهم اليهم قضاة
 يسعون في خلاصهم من أعدائهم المباغتين وربما مات القاضي وعاد ديب
 الفساد يدب في نفوس الاسرائيليين فيسجدون لمعبودات أخرى . وكان

هؤلاء الفضاة مثل جدعون ويفتاح وشمشون من الغزاة يحررون القبائل باسم القيوم الابدي ثم لا يلبث الشعب أن يعود الى عبادة الاوثان والتلطخ بحمأة المبودية

الملوك - سثم الاسرائيليون آخر الامر وطلبوا الى شمويل (سؤال) الكاهن العظيم أن يجعل لهم ملكاً فلما عليهم شاول على رغم ارادته وكان على هذا الملك أن يكون منفذاً خاضعاً لارادة ائرب لكنه حاول الخروج عن الطاعة وشق عصا الجماعة فراح الكاهن العظيم يقول له : لقد نبذت كلام الله ظهرياً فسيبعذك ربك عن الحكومة وينزع السلطة من يدك . ثم ان داود وكان زعيماً جندياً خلفه وحمل على أعداء اسرائيل كافة واسترجع لهم جبل صهيون ونقل اليه عاصمته وهي القدس .

بيت المقدس - كانت القدس بالنسبة الى بابل وثنية عاصمة بلاد فقيرة . وما كان العبرانيون يتعاطون البناء ويعيلون الى العمران بل كانت ديانتهم تحظر عليهم اقامة المعابد وكان يقضى على مساكن الخاصة أن تشبه تلك المكعبات من الحجر التي لا تزال تشاهد الى اليوم في شواطئ لبنان وقد غشيتها الكروم والتين ولكن كانت القدس بلد اليهود المقدسة وكان فيها للملك قصر يسكنه ألا وهو قصر سليمان الذي دهش العبرانيون بمرشه المصنوع من العاج وهناك أقيم بيت الرب وهو أول معبد عبراني

المعبد - كان المعبد الذي أقيم على عهد سليمان كبيت القربان المقدس عند النصارى مقسوماً الى ثلاثة أقسام ففي داخله يقوم قديس القديسين حيث كان تابوت العهد ولم يكن يسمح لغير الكاهن العظيم أن يدخله مرة في السنة وفي وسطه المكان المقدس وكان فيه مذبح البخور ومسرحة ذات أغصان

سبعة ومائة الخبز يدخل اليه الكهنة لحرق الغالية ووضع القرابين وفي المقدمة ساحة البيعة مفتحة أبوابها للناس تنذر فيها الضحايا على المذبح الكبير. وعليه فقد صار معبد القدس بعدئذ واسطة عقد الامة يقصدونه من اقاصي فلسطين لحضور الاحتفالات وكان الكاهن الكبير الذي يرجع اليه أمر العبادة من أعظم الرجا ورعما كان في الاحايين اكبر سلطة من الملك

الانبياء

نكبات اسرائيل - ان سليمان آخر ملك عرف بالحول والطول وانفصل بعده عشرة اسباط ألفوا مملكة اسرائيل تلك المملكة التي عبد سكانها عجول الذهب وأرباب الصنيعة ولم يخلص منها الدين لله وحده أو ملك بيت المقدس سوى سبطين ومنهما قامت مملكة يهوذا (٩٧٧) ولقد انتهكت قوى تينك الملكتين بما اضطررا الى دخوله من المعارك حتى اذا جاءتهما جيوش الفاتحين من الشرق خربت مملكة اسرائيل بأيدي مجتئصر ملك الكلدان (٥٨٦)

احساس الاسرائيليين - رأى المؤمنون من الاسرائيليين هذه المصائب عقوبة لهم وان الله عذب شعبه لخروجه عن طاعته على نحو ما جرى قديماً على عهد القضاة وأسلمه للفاتحين يمزقونه كل ممزق . وركب أبناء اسرائيل هوامم واجترحوا الآثام في جانب مولايم فنوا علالي وقصوراً في المدن كافة وحذوا حذو الامم المحيطة بهم فخالفوا بذلك أمر ربهم وماحرمه عليهم فصنعوا صوراً مسبوكة وسجدوا للكواكب وعبدوا الصنم بعمل ولذا نبذ الله تعالى أصل اسرائيل وعاقبهم فجعلهم طعمة لمن يكتسح بلادهم ويسلب طارفهم وتلادهم الانبياء - على ذاك العهد ظهر الانبياء وهم الياس وأرميا وأشعيا وحزقييل وفي العادة أن يخرجوا من القفر بعد أن يقضوا زمناً في الصيام والصلاة

والاعتبار والتدبر يأتون باسم الله لا غزاة مثل القضاة بل منذرين ومبشرين يدعون الاسرائيليين الى الالة وقلب الاصنام والتوبة الى باري السم وينذرونهم بالخطوب التي يعثها الله عليهم بعد اذا لم ينيبوا اليه فكانوا من ثم يدعون ويتنبأون التعليم الجديد - رأى هؤلاء الرجال المستمسكون بالامر الالهي أن العبادة الرسمية في القدس غثة باردة . وليت شعري لم يذبجون البقر ويحرقون البخور اجلاً لله على نحو ما يفعل الوثنيون . يقول عيسو : « أصيخوا إلي باسمكم وعوا ما يقوله تعالى : ما ذا أعمل بجموع قرايبتكم فقد شبت من ضحايا الغنم ومن دهن الحيوانات السمينه وما عاد يلذ لي دم الثيران ولا الخرفان ولا التيوس فكفوا إذاً عن أن تقدموا لي ضحايا هي من العبث فان نفسي عزفت عن استنشاق بخوركم ومتى ترفعون أيديكم أحول نظري عنكم لان أيديكم ملأى بالدم المهرق فقوموا وطهروا أنفسكم وارجعوا عن سيئات أعمالكم عودوا أنفسكم عمل الصالحات وخذوها بتوخي طريق الرشاد وحماية المظلومين واقسطوا اليتيم ودافعوا عن الایم وعند ما تصير خطاياكم كالقرمزي حمراء تبيض كالثلج » وبهذا رأيت ان الانبياء أرادوا الاستعاضة عن القيام بالنذور والضحايا بالعدل وصالح الاعمال

المسيح - استحق بنو اسرائيل ما دهمهم من المصائب ولكن لكل قصاص حد ينتهي اليه وغاية يقف عندها فقد قال عيسو باسم الحي القيوم أيها الشعب لا تخشى الاشوري أبداً فانه سينالك من عصاه مثل ما كان ينالك من المصري في الزمن الغابر ولكن ستفتأ سورة غضبي قريباً ويرفع عن كاهلك ذلك العبء الثقيل . وعليه فقد علم الانبياء الشعب اليهودي أن ينتظروا بمئة من يخلصهم وهياؤوا السبل للمسيح

الشعب اليهودي

الرجوع الى بيت المقدس - جاء ابنه يهوذا من مهن الفرات وما ينسوا وضئهم ولطائف
 احتفلوا به وقد كروه في أناسيدهم يقولون جاسد على شاطئ النهر بين وبكينيا وقد ذكرنا
 صهيون - بعيداتنا كانت معلقة في شجر الصفصاف على ضفة النهر وكان يقول لنا من أنوا
 بنا : قمتوا يضع التابيد من جبل صهيون وكان أفي لنا ان تغني بتابيد الرب في ارض
 غريبة وبعد سبعين سنة في العبودية اذن سروس فاتح بلاد بل ان يعودوا الى فلسطين
 لجددوا بناء البيت المقدس والمعبود وعادوا الى احياء الاعياد والاحتفال بالكتب المقدسة
 وجددوا العيد مع ربه علامة على انه قد عاد الى طاعته وزدوا من شعبه وهذا العيد عبارة
 عن ميثاق على الاصول كتبه اعين الشعب ووقعوا عليه .

اليهود - دامت مملكة القدس الصغرى مدة سبعة قرون بحكمها ملك نورة وكهن كبير
 أخرى وفي كتبه الحثين كانت تؤدي الجزية الى روما - عبرية هي جزاء الفرس أولا
 ثم المقدونيين ثم السور يون ثم الرومانيين - يوم صدق اليهود ادعوا كذلك لمن رجوسيه
 مع ربه ظنوا على عيدهم الاول من اهل شريعة موسى والاحتفال بالاسرار وتقليد النذور
 في القدس وكان الكهن الاكبر يحتفظ الشريعة بظاهرة مجمع الاعين والكتابة يشعرون
 والعلماء يفسرونها لشعب وجمهور المؤمنين يرون من واجباتهم الجري عليه واهم بدقيق
 وجلبا واشتهر الفريسيون خاصة بفريتهم والتلاميذ في التقيم بفسوب الاعمال الصالحة

المدارس (الكنائس) - ومع هذا فقد كان اليهود يرحلون في التجارة وينشرون خارج
 بلادهم في مصر وسوريا واسيا الصغرى وايطاليا وكانت طائفة من اهل مذعبيه في المدن
 الكبرى جميعا كالاسكندرية ودمشق وانطاكية وافيس وكورث ورومية وكانوا ابداء
 يجتمعون في صعيد واحد ليحفظوا كتابهم ويجمعوا ثلثهم اشئت بين الوثنيين ولم يقيموا المعابد
 لان الشرعية كانت تحظر عليهم ذلك وليس لهم ان ينوا سوى معبد يهودي واحد الا وهو
 معبد القدس حيث كان يحتفل بالاعبيد واقام المواسم والشعائر يدانهم كانوا يجتمعون
 ليشرحوا كلام الله ويتعوه ودعيت هذه الاماكن باسم يوناني (الكنائس) ومعناه المجالس
 خراب المعبد - ظهر المسيح في خلال تلك المدة فصاحب اليهود واضطهدوا حواريه
 سواء كان في بلادهم او في المدن الكبرى التي حل فيها اجر الفخير منهم - ولقد شئت القدس
 عصا الطائفة عام ٧٠ على الرومانيين فاخذت عنوة وذبح سكانها كافة او بيعوا بيع الاماء والعبيد
 فالتى الرومانيون النار في المعبد وقد حفر وضائهم بالاغلاق المقدسة - ومن يومئذ لم يعهد لليهود
 مجمع تدينهم

ما كتب على اليهود بعد تفرقهم - عاشت الامة اليهودية بعد خراب عاصمتها ولما تشتت
شملها تحت كل كوكب في العالم انشأت تستغني عن المبد وابتقت كتبها المقدسة مكتوبة
بالعبرية . والعبرية لغة بني اسرائيل الاصلية لم يتكلم بها اليهود منذ رجوعهم من بابل بل اقتبسوا
لغات الشعوب المجاورة كالسريانية والكلدانية وخصوصاً اليونانية . على ان المتوّرّين في الدين
من الرابانيين ظلالا يعرفون العبرية وهم يشرحون التوراة ويفسرونها وهكذا حفظت الديانة
اليهودية وبفضل اللغة العبرية ايضاً بقي الشعب اليهودي وكثر اشباع هذا الدين في الاغيار
فكان في المملكة الرومانية اناس كثيرون ممن يدّعون باليهودية وليسوا من العنصر اليهودي
في شيء .

قويت شوكة الكنيسة المسيحية في القرن الرابع فطفت تضطهد اليهود اضطهاداً دام
الى يوم الناس هذا في البلاد المسيحية جماء . ومن العادة ان يتسامح مع اليهود في اجراء مراسم
ديانتهم لغناهم واستثمارهم بفروع الاعمال المالية ولكنهم يخونهم عن ممارسة الوظائف الادارية
ولقد اكرهوا في معظم المدن ان يلبسوا ثياباً خاصة وينزلوا في حي خاص مظلم وخيم وييل
وان يمشوا احياناً باحدهم يصنع في عيد القصح والذاس يرمونهم بانهم يسمخون الناييع ويقتلون
الاطفال ويدنسون القربان المقدس وربما يشيرون بهم في الاحايين فيقتلونهم ويغتمون مافي
دورهم ويسقيهم قضاة البلاد السم أو يعذبونهم او يحرقون لاقول حجة تافهة ولطالما افتتهم
الحكومات زرافات من بلادها وصادرت اموالهم ولقد اجتث دابر اليهود من فرنسا واسبانيا
وانكائرا وايطاليا ولم يبق منهم بقية الا في بلاد البرتغال والمائنا وبولونيا وفي البلاد الاسلامية
ومن هذه الممالك رجعوا الى سائر قارة اوروبا منذ انتهت ايام اضطهاداتهم وكف الناس
عن ارهاقهم واعنائهم



الفارس

دين زردشت

ايران - بين نهري دجلة والسند وبحر الخزر والخليج الفارسي صقع عظيم يعرف ببلاد ايران تبلغ مساحته خمسة اضعاف مساحة فرنسا او تزيد ولكن معظمه مجذب قاحل فهو يتألف من صحارى رمال محرقة ومن انجاد باردة قارسة تشقها اودية عميقة شجراة وتحيط بها جبال شاهقة. واذ حيل بين الانهار وجريها فهي لا تسير الا ريثا تضيع في الرمال او في بحيرات مالحة. ويشند هوا هذه البلاد وينقلب فيكون حراً في الصيف وقرّاً في الشتاء وقد يجتاز من يهبط هذه البلاد من منطقة تبلغ درجة حرارتها نحو ٣٢ تحت الصفر الى منطقة حرارتها ٤٥ سنترادا بمعنى ان تلك البلاد جمعت الى برد سيبريا حرارة السيفال. وهناك تمصف الرياح الزاعز فتنفل في الاجسام فقل الحسام. بيد ان الاودية وضفاف الانهر مخصبة منتنة. وهذه البلاد هي ولا جرم مصدر الدراق وشجر الكرز ومستنبت الثار والمراعي الايرانيون - سكنت بلاد ايران قبائل من الآريين (١) (الفاطنين) بلخ اي بكتريا وهي الوطن الاصلي للجنس الآري) كانوا كثر ابناء هذه البلاد جنساً من الرعاة المسلمين المحاربين. ولقد كان الايرانيون يقاتلون على ظهور الخيل ويطلقون السهام ويلبسون البسة من الجلد يجمعونها وقاية على ابدانهم من هوا بلادهم الشديد.

زردشت - عبد الايرانيون اولاً ما عبده قدماء الآريين من قوى الطبيعة وخصوصاً الشمس «ميترا» وقام بين اظهرهم حكيم اسمه زردشت (مه اباد وله كتب كثيرة منها ما له علاقة بالشرية ثم ظهر زردشت واصلى هذا الدين) ويدعوه الافرنج زرواستر ناصلم ديانة الايرانيين بين القرن العاشر والسابع قبل الميلاد ولم يلقنا من اخباره غير اسمه. الزانداستا (الزندوبازندواستا) - لم يبق شيء مكتوب يؤثر عن زردشت ولكن تعاليمه المؤلفة بعده يزمن طويل قد حفظت في الزانداستا اي الشرية والاصلاح وهو كتاب الفرس المقدس. وقد كتب هذا السفر بلغة قديمة لم يفهمها اتباع هذا المذهب انفسهم ودعوا لها

(١) ما كان في هذا الفصل بين هلالين هو في الغالب من املاء العالم الدكتور مرزا مهدي خان زعيم الدولة ورئيس الحكماء صاحب جريدة حكمت الفارسية الغراء بهر واليه رجعتنا في تصحيح بعض الاعلام

اي الافرنج بازند » وكانت تنقسم على ماورد في اساطيرهم الى احدى وعشرين نسخة كتبت على اثني عشر الف جلد ثور ضم بعضها الى بعض باسلاك من الذهب وابادها المسلمون لما فتحوا بلاد فارس واحتفظت بعض اسرات ايرانية بتعاليم زردشت وخلصوا دينهم له فلجأوا الى بلاد الهند فحفظ فيها اخلافهم المدعوون بارسيس تلك الديانة القديمة . وقد وجد عندهم سفر تام من الزانداستا وقطع من الكتابين الآخرين .

اورمزد « هرمز وهرمس » واهرمين « رمز الى العقل والنفس وعند العامة اله الخبير والشر » هذه ديانة زردشت على نحو ما ورد في تلك الكتب الا ان هرمز الذي يدعوه الافرنج اورمزد وهو الديان الذي لا يخفى عليه شيء خلق العالم والقوم يصلون له بهذه الالفاظ : ادعو الخالق هرمز واحتفل بشعائره فانه النور والضياء عظيم رحيم كامل شهيم ذكي جميل سام طاهر يعرف العلم الصحيح مصدر اللذة وهو الذي برأنا وصورنا واطعمنا » واذ كان على جانب من الصلاح لم يخلق الا ما هو كذلك وما يرى في العالم من شر فقد برأه رب الشر انكره انايو اي روح العذاب وندعوه اهرمين (وديو اي شيطان)

الملائكة والشياطين - يقف اهرمين الشقي انخرق قبالة هرمز الباريء الخليم ولكل منهما طائفة من الارواح فجنود هرمزم الملائكة المطهرون « يازاستا » وجنود اهرمين شياطين خبثاء (ديو) ويسكن الملائكة في الشرق في ضوء المشرق والشياطين في الغرب في ظلمات الشفق وكلا الجيشين لا يزالان في حرب دائمة والعالم ساحة قتالهما لان كليهما حاضر في كل مكان فيسعى هرمز وملائكته الى الاحتفاظ بالخلق واسعادهم وصلاحيهم ويطوف اهرمين وشياطينه حولهم لاهلاكهم وسوء طالعهم وطلأحهم

خلائق هرمز واهرمين - كل حسنة في الارض هي من صنع هرمز وتستخدم للخير فاشمس والضياء اللذان يطردان الليل والنكواب والشراب المخمر الذي يترأى كأنه ضوء سيال والماء المروي للانسان والحقول المزروعة التي تغذيها والاشجار التي يستظل بها والحيوانات الالهية والكلب والطيور منها خصوصا ما يعيش منها في الضوء ولا سيما الديك لانه يبشر بالنهار هذه كلها برأها هرمز . وعلى العكس ينبعث كل ما يضر من اهرمين فيكون شراً مثل الليل والجفاف والبرد والقفر والنباتات السامة والثوك والحيوانات انكاسرة والافاعي والحلمات الطفيلية (كالبعوض والبراغيث والبق) والحشرات التي تعيش في الجحور المظلمة كالضباب والمقارب والصفاد والجردان والنمل - وهكذا تنبعث الحياة والطهارة والحققة والعمل وكل ما حسن في عالم الاخلاق من هرمز . والموت والقذارة والكذب والكل وكل ما خبيث وساء ينبعث من اهرمين

العبادة - مصدر العبادة والاحلاق من هذا الاعتقاد فلي المرء ان يعبد رب الخير (١) ويتأصل عنه . يقول هيرودتس : ان من عادة الفرس ان لا يقيموا هياكل ومعابد ومذابح الارباب ويعبدون من أتى ذلك كافراً بالنعمة لان هذه الامة لا تعتقد اعتقاد اليونان من ان الارباب صورة على نحو صورة البشر . وان هرملبيدو بهيئة النار او الشمس ولذا يحفل الفرس بعبادتهم في الحلاء على الجبال امام موقد مشعل فينشدون الاناشيد مجيداً لهرمز ويذبحون له الحيوانات (كذا) دليلاً على عبادته

الاحلاق - ناضل الانسان عن هرمز محسناً لعمله مقبلاً لعمل اهرمين فيجاهد في الظلمات وهو يمد النار بالحطب الجاف والمطور ويجاهد في القفر بجرث الارض وابتناء البيوت ويجاهد حيوانات اهرمين بقتل الحيات والضباب والحلقات الطفيلية والحيوانات الكاسرة ويجاهد الدنس وذلك انه يتطهر ويدفع عنه كل ما مات وخصوصاً الاظافر والشعر وحيثما وجدت الشعر والاظافر المقصوفة فهناك يجتمع الشياطين والحيوانات القذرة . ويجاهد الكذب جارياً على قدم الصدق . قال هيرودتس ان الفرس يستقيمون الكذب وهو عندهم عار وسبة كما انهم يكرهون الاستدانة لان المدينون يكذب بالضرورة . ويجاهد الموت وذلك بالزواج والاستكثار من الولد . جاء في الزاندافستانا افعج البيوت التي حرمت من النسل والقراري الجنائز - لمي مات الانسان تعود جثته الى رب الشر ولذلك يقضي انقاذ الدار منها لا باحراقها فانها تنجس الدار ولا بدفنها فانها تنجس الارض ولا باغراقها فانها تنجس الماء ومن فعل ذلك فيكون قد تلطخ بجمأة القذارة ابد الدهرح وطريقة الفرس في دفن موتاهم تختلف عن غيرهم من الامم فيحطون الجثة في مكان عال مكشوفة جبهتها نحو السماء مثقلة باحجار ثم يركنون الى الفرار خشية من الشياطين لانها تجتمع بزعمهم في اماكن الدفن حيث مأوى المرض والحى والقذارة والرعب والشعر القديمة وعندها تجي الكلاب والطيور وهي من الحيوانات الطاهرة فتطهر اجثة باقتراسها

مصير الارواح - تنفصل روح الميت عن جسده وفي اليوم الثالث من موتها يؤلف بالروح على الصراط (شايواد) المؤدي الى الجنة ماراً فوق هاوية جهنم فيسأل هرمز الروح عندئذ عن حياتها السابقة فان كانت محسنة تعيدها الارواح الطاهرة وارواح الكلاب وتأخذ بيدها لاجتياز الصراط ويدخل بها الى مقام السعداء (يرودس اي فردوس)

(١) ان بعض زنادقة الفرس لهدنا (هـ في ارض الجزيرة) يعبدون رب الشرعي عكس ذلك ويذهبون الى ان المذهب الخير لما كان في دانه صالحاً ورحيماً لا حاجة ان يخضع له ويتقرب اليه بانواع القربات وتدعى هذه الطائفة اليزيدية (عبدة الشيطان) قاله المؤلف

فيهرب الشياطين لانها تتجافى عن روح الارواح النقية اما روح الشرير فتصل على العكس من ذلك الى الصراط ضعيفة مرتجفة لا يأخذ احد بيدها ويلقي بها الشياطين في الهاوية ويتناولها روح الشر ويقيدها في قعر الظلمات .

طبيعة الديانة الهرمزية او الهرمسية المزدية - نشأت هذه الديانة في بلاد يشتد فيه الاختلاف والتناقض ففيها الاودية الباسمة بزرعها والاراضي البائرة المحزنة والواحات الرطبة والقفار المحرقة والحقول والسهول الرملية بحيث تراءى قوى الطبيعة فيها كأنها في حرب عوان ابدآ - وهذا الجهاد الذي يمثل للفارسي فيما يحيط به قد اتخذه شريعة للعالم . وهكذا تألفت ديانة خالصة من الشوائب تدفع بالانسان الى العمل والفضيلة على حين قد انتشر هذا الاعتقاد بالشيطان والجن في الغرب وشغل شعوب اوربا كافة بالاوهام .

المملكة الفارسية

الماديون (١) - سكنت بلادايران عدة قبائل ولم يشتهر من بينها سوى الماديين والفرس خيم الماديون في غرب بلاد فارس وهم اقرب الى الاشوريين وتلك كان على ايديهم خراب نينوى وبلادها « ٦٢٥ » ولكن لم يلبثوا ان استغرقوا في الترف وانشأوا يتخذون ثيابا مسدولة وبألقون البطالة ويعتقدون اعتقادات خرافية شأن الاشور بين الساقطين وما زالوا على ذلك حتى امتزجوا معهم اي امتزاج .

الفرس - اما الفرس فكانوا في الانحاء الشرقية (واجنوية) واحتفظوا باخلاقهم وديانتهم وشديتهم . يقول هيردوتس : ان الفرس لا يعلمون اولادهم الى من العشرين غير ركوب الخيل ورمي النشاب . وقول الصدق .

قورش اوسيروس او كينسرو - قام رئيسهم قورش حوالي سنة ٥٥٠ وخلق ملك الماديين (الذي هو جده لامه) وجمع تحت لوائه شعوب ايران كافة ففتح بهم ليديا وبابل وجميع بلاد آسيا الصغرى - ويروى لهذا الملك قصة فصلها هيردوتس في تاريخه تلخيصا شافيا قال انه دعا نفسه في بعض مازيره على الاحجار بقوله انا قورش ملك الكتاب والعقمة والافتداف انا ملك بابل وسومير واكاد ملك الاقاليم الاربعة وابن كبير (كيكاكوس اوسلطان سوزيان رسوم يستان - اهلك كبير بكر اولاد قورش اخاه سمرديس وفتح مصر) (علي قول اليونان) علما ذلك مما اتصل بنا من الرسم الذي مثل فيه ذلك ولا تزال ترى الى اليوم في تحوم الفرس

(١) (بلاد مادي اسمها العرب بلاد الجبل والعراق انجمي وازر بايجان واستراباد اي ولايات فارس وكرمان ومكران اي بلوچستان وخراسان)

وسط سهل الفج صخرة هائلة نحتت نحتاً عمودياً علوها ٤٥ متراً وهي صخرة يستون وهناك حروف ناتئة على الحجر تمثل ملكاً متوجاً ويده اليسرى على قوس وهو يدوس اسيراً وتسعة أسرى آخرون واقفون امامه وقد قيدم بنفسه . وكتبت ترجمة حياة الملك في رسم بثلاث لغات . فقد اعلن الملك دار يوس « دارا » ذلك فقال : هذا ما قت به قبل ان اغدو ملكاً فقد كان كبير بن قورش من بني جنسنا يحكم هنا قبلي وكان له اخ لاييه وامه واسمه سميرديس قتل ذات يوم كبير اخاه سميرديس ولا علم للقوم بما جنته يداه . ثم وجه كبير وجهته نحو مصر وبينما هو نازل فيها ثار به الشعب وكان قد اصبح الكذب مألوفاً اذ ذاك في تلك البلاد وفي بلاد ماداي وسائر الممالك فقام موبدان « ا » كان حاضراً اذ ذاك اسمه غوماتا وخدع الامة بقوله : انا سميرديس بن قورش وعندئذ انتفض الشعب اجمع وانصرفوا نحوه متحابين عن كبير . ثم قضى كبير بحبه بجراح جرح نفسه به وبعد ان اتى غوماتا ما اتى من هذه الحيلة واستلب من كبير بلاد الفرس وماداي وسائر الاقطار جرى في الخطة التي شاءها فصار ملكاً على هذه البلاد وحاكماً متحكماً في اهلها . فخافه الشعب لظلمه وكان لا يستكشف من قتل الامة عن بكرة ابينا ثلثا تنكشف حيلته ويعرف القوم انه لصيق بسميرديس بن قورش ودعي في نسبه وقد اظهر للملك دار يوس هذه الخديعة ولم يكن احد في بلاد الفرس وماداي يجرا على استرجاع تاج الملك من هذا الموبدان غوماتا . قال دارا بعد ان قدم ما ساف وعندئذ تقدمت ودعوت الرب هرمز فاعانني بالتوسل به وكان في صحبتي ناس ذوو اخلاص وصدق فاعانوني على قتل غوماتا وخاصة رجاله فاصبحت ملكاً بشيئة هرمز واستعدت الملك الذي كان بنو قومنا سلبوه وارجمته الى حوزتي واخذت اعيد المذابح التي طوى بساطها الموبدان غوماتا وذلك لاني كنت تغلفاً للامة واعدت الاناشيد والاحتفالات المقدسة الى سابق عهدها . واضطر دارا بعد ان ضرب ذاك الدخيل غوماتا ضربة قاضية ان يقاتل عدة زعماء ثائرين فقال لقد قاتلت سبع عشرة مرة وغلبت تسعة ملوك .

المملكة الفارسية - علم بامضى ان دارا اخضع المملكة المختلطة واعاد مملكة الفرس وقد وسع نطاقها بفتح تراس « تراثيا وهي اليوم بلاد البلغار والرومي » وولاية من الهند . وكان ينضم تحت لوائه شعوب الشرق اجمع من ماديين وفرس واشوريين وكلدانيين ويهود وفينيقيين وسوريين وليديين ومصريين وهنديين فكان سيف سلطوته يحكي الاسواق الواقعة بين نهر الدانوب « الطونة » غرباً ونهر الاندوس (السند) شرقاً وبين بحر الخزر شمالاً الى شلالات النيل جنوباً . مملكة لم يعهد لها مثيل في النخامة (١٢٠ مملكة) يد ان قبيلة جاءت بمدة

قال كبير وقد استشاط غضباً من هذا : اعلم اذا كان الفرس يقولون حقاً وصدقاً . فاذا انارميت
بسمي قلب ابنك الذي تراه واقفاً امامك في هذا البهو فذلك ان الفرس لا يعرفون ما يقولون .
وما هو الا ان اعد قوسه وضرب ابن بريكتاسب غيرةً الفتى صريعاً فجاءه الملك ينظر اين
اصابه سمه فراه قد اصابه ومزق حشاه . فاستفز السرور الملك وقتل لوالد الغلام وهو
ضاحك : لقد رأيت بهذا ان الفرس قد اضاعوا رشدهم فقل لي هل عهدت احداً يطلق
السهم اطلاقاً له فيصيب الغاية على ما رأيت من الرشاقة . فقال بريكتاسب لا اعتقد ايها
المولى انه في وسع الرب نفسه ان يرمي النبال مثلك في الدقة والاعتدال

اعمال الفرس — ادى شعوب آسيا في كل دور من ادوارهم جزيةً للفتاحين وخضعوا للظالمين
والغاشمين فتفهم الفرس كثيراً بان كفوا بعضهم عن مقاتلة بعض وازالوا من بينهم اسباب
الشحناء وذلك لانهم اخضعوا كل الشعوب لرئيس واحد . وكان عهدهم عهد سلام لم تعبد
فيه مدن تحرق ولا ديار تخرب ولا سكان تذبج او تؤخذ زرافات وافواجاً لتستعبد

مدينتا سوس وبرسو بوليس (١) — 'عني ملوك الماديين والفرس باقامة القصور على نحو
ما كان يقيم ملوك اشور . واحسن ما اتصل بنا خبره من تلك القصور قصور دارا في سوس
وبرسو بوليس وقد حفر الميسو ديولافوا الافرنسي خرابات سوس فحفر فيها على نقوش وقرامد
مزينة بالميناء تبين ارتفاع الصنائع اذ ذاك وبقيت من قصر البرسو بوليس خرائب عظيمة
وقد نحت في صخر الجبل سطح عظيم قام عليه القصر وهو يوصل اليه بسلم واسع بانحدار قليل
بحرٍ كان يتأني لشجرة فرسان ان يصعدوه معاً

النقش الفارسي — حذا نقاشو الفرس حذو الاشوريين في اقامة قصورهم فقيدها في
برسو بوليس كما تجدها في بلاد اشور سقوفاً متسعة السطوح يحرمها اسود من الحجر والنقوش
الثلاثة تمثل صيوداً واحتفالات . وقد احسن الفرس في اتمام نموذجاتهم في ثلاثة اشياء
وذلك بان استعملوا الرخام عوضاً عن الترميد وجعلوا في الردهات سقفاً بالخشب المصور وانشأوا
اعمدة خفيفة على شكل جذوع الاشجار في اقصى ما يعلم من الحداقة واللطف وهي اعلى من
محيطها باثني عشرة مرة . ولذلك جاءت نقوشهم اجمل اثرأ ووقع في النفوس من نقوش
بلاد اشور . وقلاً فنجح الفرس في الصنائع ويظهر انهم كانوا احشم شعوب ذاك العصر
واطهرهم واشجعهم وكانت وطأة حكمهم في آسيا مدة قرنين اقل جوراً مما عرف من ضروب
الحكومات وكانوا اميل الى الرقي بمن يحكمون

(١) (سوس في ولاية شستري التي ظهرت فيها شريعة همورابي وبرسو بوليس هي
اصطخر في ولاية فارس بالقرب من مدينة شيراز)

واستولت على تركة الممالك الآسيوية باجمعها

أفيال الفرس - فلما يعني ملوك الشرق بأمر رعاياهم الا ليستنزفوا أموالهم ويمتنعوا في سبيل سلطانهم ابناءهم وينالوا مديحهم وثناءهم وما قط اخذوا انفسهم بالنظر في شؤون من يحكمونهم. وكان شأن دارا (١) في هذا المعنى شأن سائر ملوك الشرق ترك كل قبيل في بلاده يحكم نفسه على ما يشاء ويشاء هواه محافظاً بقلته ودينه وشرائعه ولحياتها بروؤسائه وساداته من قبل . على انه كان يعني بتنظيم دخل المملكة الذي يتقاضاه من رعاياه فقسم بلاده الى عشرين (١) حكومة مماهاامارة. وكان في كل حكومة شعوب مختلفة كل الاختلاف سواء كان بقلتها او بعاداتها ومعتقداتها وكان على كل حكومة ان تؤدى مساهمة خراجاً معيناً بعضه نقد ذهب وفضة، وبعضه غلات ونواحي "قمح وخيل وعاج" فيتقاضى حاكم كل مقاطعة او قبلياً ممن وسد اليه امرها الخراج ويبعث به الى مولاه الملك

دخل المملكة بلغ مجموع دخل الملك ثمانين مليوناً بسكة زماننا ما عدا خراج الغلات . واذا اعتبرنا قيمة النقود في ذلك العصر فانها تعادل ستائة مليون جنيه (٢) في ايامنا . وكان الملك ينفق هذا على حكومته وجيشه وخاصته وبنسخ قصره ويبقى عنده كل سنة سبائك عظيمة من المين يدخرها في صناديقه وكان ملك الفرس مثل سائر المشارقة يرى امتلاك الكنوز العظيمة من دواعي الالهة والتعبد

السلطان الاعظم - لم يكن في العالم اثنى ولا اقدر من ملك الفرس فقد كان اليونان يدعونهم السلطان الاعظم . (ملك الملوك شاهنشاه) وكان له كسائر ملوك الشرق سلطة مطلقة على رعاياه كافة فرساً كانوا ام غيرهم من سائر الشعوب الخاضعة لعرشه . وانت ترى فيما ذكره هيرودتس كيف كان كبير يامل اعظم سادات قصره : سأل يوماً بريكساسب (بري كشتاسباي روح العظمة) وكان ابنه يسقيه ماذا تقول الامة في امري ؟ فاجابه : مولاي انهم يشنون على محامدك اطيب الثناء ولكنهم يذهبون الى ان لك ميلاً قليلاً للفساد

١ (هو ابتدع طريقة البريد وتجنيد العشرة والمئات والالوف الخ وجعل لكل مملكة حاكماً مدنياً وحاكماً عسكرياً وجعل كلا عينا على صاحبه يرسلان اليه بتقاريرهما كل اسبوع)

٢ قال المؤلف ذكر هيرودتس عشرين حكومة وقد عثر في الرسوم المزبورة على احدى وثلاثين حكومة قال مرزا مهدي خان الظاهر ان هذا الالتباس في تقدير الاعداد جاء من ان ممالك هذا الفاتح العظيم كانت منقسمة ثلاثة اقسام منها مملكتنا مادي والفرس الخاصة وما بقى منها قسمان قسم استعماري وقسم استملاكي

اليونان

المناظر اليونانية

صورة هذه البلاد — ارض يونان من الاقاليم الضيقة المضطرب (هي ٥٧٠٠٠ كيلومتر مربع) لا تكاد مساحتها تزيد عن مساحة سويسرا ولكنها بما فيها من اختلاف الالهوية وما يخللها من الجبال وينقسمها من الخلجان اقليم غريب في شكله خلق ليؤثر تأثيراً كبيراً في اخلاق ساكنيه . وتقطع ارض اليونان من وسطها سلسلة من الجبال (البند) فيناوح الجبل فيها جبلاً مثله ويقوم الصخر الى جانب الصخر حتى اذا بلغ ترعة كورنت ينخفض وترتفع مقاطعة المورة في الجانب الآخر من التربة فيعلو عن سطح البحر ستمائة متر كأنه حصن احاطت به سلاسل عالية وعرة مثلجة تنزل في البحر على خط قائم وتمتد الجزر على طول الشاطئ وما هي الا جبال مغمورة براسها فوق الماء . ونقل في هذه الارض ذات الوهاد والنجاد التربة الزراعية وتكاد لا ترى حيثما القيت ناظرك غير صحور جرداء مرداء اما الانهار فتشبه سيولاً ليس فيها غير طريدة ضيقة من التربة المثبتة بين مجراها ونصفه جاف وبين صحور الجبال الجرداء . وكان في هذه البلاد الجميلة بعض غابات واشجار سرو وغار ونخيل وكروم غرست في مواضع من التلال ولكن قلما انت بغلات جيدة او بمراعي خصيبة . فبلاد هذا شأن طبيعتها ينشأ ابناءؤها توفة قدودهم قوية اجسادهم فائقة نفوسهم .

البحر — تعد بلاد يونان من البلاد الساحلية وهي اصغر من البرغال وشواطئها تكاد تقرب من شواطئ اسبانيا بكثرتها ينساب فيها البحر من عدة خلجان ووقائع (١) وتخاريم . ومن العادة ان يحيط بالبحر صحور نتقدّم او جزر لتقارب يتألف منها مرفأً طبيعي . وهذا البحر اشبه بحيرة لامتد فيها ولا جزر ولذلك سلت شواطئه من الضرر وليس لونه كالبحر المحيط ابيض كامداً كثيباً وهو في العادة هادي ، صاف ولونه كالبنفسج كما يقول هوميروس ولا اكثر استعداداً من هذا البحر للسفر فيه سفراً قصيراً . ولقد تهب ريح الشمال صحيحة كل يوم فتسير بها قوارب مدينة آثينة نحو آسيا وتقدفها ريح الجنوب في المساء الى المرفاء والجزر من بلاد اليونان الى آسيا الصغرى قائمة مثل صحور الكين واذا صحت السماء تقطع السفينة المسافة وهي بقربة من اليابسة تراها كل حين . ولذلك كان لسكان هذه البلاد من سكّون بحرم باعث على ركوبه واجتيازها فاصبح اليونان من ثم بحارة وتجاراً وسياحاً

(١) في القاموس الوقيمة نقرة في جبل او سهل يستنقع فيها الماء جمعه مواقع . ووقائع .

ولصوص بحر ومشردين على نحو ما كان الفينيقيون فانتشروا في العالم القديم اجمع وجلبوا الى بلادهم سلع مصر وبلاد الكلدان وآسيا واختراعاتها .

هواؤها — لطف هواه بلاد اليونان حتى ان الجليد في آثينة لا يحدث الا في كل عشرين سنة والحرم معتدل في الصيف بما يهب عليها من نسيم البحر والى اليوم لا يزال الشعب فيها ينام في الطرقات منذ شهر مايو « ايار » الى اواخر سبتمبر « ايلول » والهواه فاتر جاف وكان يرى على بضعة فراعص في القلعة المطلة على آثينة ريش ثمال بالاس وليست دوائر الجبال القاصية مستورة بالضباب كما هو الحال عندنا معاشر الفرنسيين بل انها تثلج بأسرها في السماء الصافية . هذه البلاد بحالها تدفع المرء ان يتخذ الحياة عيداً فيرى كل شيء باسم حواليه فمن نزهة في الحدائق بالليل واستماع اصوات الصراخير ومن الجلوس في ضوء القمر والضرب باشباب وقصد الجبال للشرب من مائها واستصحاب الراح وشربه على التلحات والاعاني وقضاء الايام في الرقص هذه هي ملاذ اليونان وما هي الا ملاذ جيل من الناس فقير مقنصد فتي لا يعرف الهرم ابداً .

بساطة العيشة اليونانية — لا يتعب المرء من حرارة هذه البلاد ولا يشقى ببردها بل يعيش في الهواء الطلق مسروراً قليل النفقة ولا تقضيهِ البلاد غذاء غزيراً ولا ثياباً ثقيلة ولا داراً مرفهة . فقد كان اليوناني يتبلغ بحفنة من الزيتون وسمك السردين ولبس نعلاً وقبصاً ورداء كبيراً . وكثيراً ما كان يخرج حافياً مكشوف الرأس وداره بناية منيعة ليست من الثلاثة بحيث يرفع اللصوص عن دخولها بثقب حائطها ولا له من الاثاث غير فراش وبعض لحف ويقع اوان جميلة ومصباح وكانت الجدران خالية من الزينة مبيضة بالجير « الكس » ولا ياوي الى الدار الا آونة النوم فقط .

بلاد اليونان الاصلية

اصل اليونان — كان اصل الشعب الساكن في هذه البلاد الجبلية الضيقة النطاق من الجنس الآري انساب الهندو والفرس جاؤا مثلهم من جبال آسيا . ولقد نسي اليونان تطواف اجدادهم الطويل فكانوا يقولون انهم ولدوا من التراب كالصراخير . بيد ان لغتهم واسماء اربابهم لم تترك مجالاً للشك في اصلهم . وكان اليونان الاول كسائر الآريين يقتاتون باللبن ولحوم القطعان ويسرون مدحجين بالسحتهم وهم ابداً على قدم القتال ينضمون قبائل وفصائل تحت إمرة بطاركتهم .

اساطيرهم — جهل اليونان اصولهم كسائر الشعوب القديمة فلم يكن لهم اعنسل اسلافهم ولا بالزمن الذي غوطنوا فيه ارض يونان ولا بشيء من اخبارهم واعمالهم فيها . وان حفظ

ذكر الحوادث الطارئة كما وقعت ليتوقف على اعداد الاسباب لها ومن اسبابها الكتابة . غير ان اليونان لم يعرفوها الا حوالى القرن الثامن (ق . م) ولم يكن لهم واسطة لحساب السنين ثم اتخذوا بعد طريقة حساب السنين اعتباراً من المهرجان العظيم الذي كانوا يحتفلون به في اوليا كل اربع سنين وتدعى هذه المدة السنة الاولية وقد وضعت الاولية الاولى عام ٧٧٦ فتسلسل تاريخ اليونان منذ ذاك الحين ولم يتصل بما وراء ذلك . ومع هذا فقد نقلت اساطير كثيرة عن هذه المدة الاولى في البلاد اليونانية وخصوصاً قصص قدماء الملوك والابطال الذين كانوا يبدونهم كأشهر نصف ارباب وهذه الاقاصيص مشوبة بحكايات يتعذر الالمام بما فيها من حق وصدق فقد ذكروا في آثنية ان الملك الاول المدعوسكروبس كان نصفه ملكاً ونصفه حية وذكروا في ثيبة ان كادموس مؤسس المدينة جاء من فينيقية للبحث عن اخت اوروبا التي خطفها ثور وكان قبل نينياً وزرع اضراسه فبنت منها مقاتلة ومنهم تناسلت الاسرات الشريفة في ثيبة وزعموا في مدينة ارغوس ان اصل الاسرة المالكة من ييلوبس وكان اعطاها المبود زيوس كتنماً من العاج للاستعاضة عن كنفه التي اكلتها احدى الارباب . وهكذا كان لكل بلد اساطير يتلوها ويتناقلونها وظل ابناء يونان يذكرونها الى ما بعد واثبتون لابطالهم القدماء نصيباً من روح الرواية مثل ابطالهم برسي وييليروفون وهيراكليس وتيزي ومينوس وكاستورس وبولوكس وميلينا كرس وادينس ومعظم اليونانيين بل ان الطبقة المنورة منهم اتخذوا هذه التقاليد حقائق لا نزاع فيها الا قليلاً . تلقوها على نحو ما تؤخذ الحوادث التاريخية اخبار الحرب بين ابني اديس ملك ثيبة وحملة الارغونوت التي سافرت في طلب جزة الكبش التي قام بجرائها ثوران لما ارجل من قتل نذف النار من افواهها .

حرب طروادة — اشهر هذه الاقاصيص كلها حروب طروادة وهي اوسعها ياتاً وتفصيلاً فيروى انه كان نحو القرن الثاني عشر مدينة غنية ذات سطوة اسمها طروادة وكانت الحاكمة المحيطة على شاطئ القارة الآسيوية فجاء احد امراء هذه المدينة واسمه باريس الى ارض يونان وسبي هيلانة حليمة منيلاس ملك اسبارطة فانفق اغاممنون ملك ارغوس مع سائر ملوك اليونان وانفذوا لحصار طروادة جيشاً يونانياً على اسطول مؤلف من الفدمائتي سفينة فدام الحصار عشر سنين اذ كان الرب زيوس راضياً عن الطرواديين عاقداً النصر بالويهم . ولقد اشترك مقاتلة اليونان كافة في هذا الحصار فقتل هكتور رئيس المدافعين عن حياض طروادة بيد اشيل وكان اجمل اليونانيين خلقه واشجعهم نفساً وجراً جثته حول المدينة . قاتل اشيل اسلاح الهي وهبته اباه امه ربة البحر ثم هلك بسهم اصابه في عقبه . حتى اذا

يش اليونان من الاستيلاء على المدينة بالقوة عمدوا الى الحيلة فاهموا انهم ازمعوا الرحيل وتركوا وراءهم حصاناً ضخماً الجثة من خشب اختبأ فيه زعماء الجيش فآخذ الطرواديون هذا الحصان وادخلوه مدينتهم فلما جن الليل خرج القواد منه وفتحوا ابواب المدينة لليونان فخرقت طروادة وذبح الرجال واستعبد النساء .

ولما قتل زعماء اليونان من غزائهم هبت عليهم العاصفة ففرق بعضهم في البحر وقذت الانواء بفريق منهم الى شواطئ بعيدة وكان من حظ عولس اكثر هؤلاء الزعماء جريرة ودهاء واطولهم يداً في كيد المكاييد ان قضى عشر سنين لتقاذف به البلاد حتى ادت به الحال ان فقد سفته جماء ونجا من الفرق برأسه .

وبعد فقد كان الاعتقاد بحرب طروادة شائعاً في القرون القديمة شيوع الاخبار الثابتة . فزعم القوم ان غاية الحصار كانت سنة ١١٨٤ وحددوا مركز تلك المدينة . وقد خطر للمسيو شيلمان من علماء الآثار سنة ١٨٧٤ ان يحفر محل هذه المدينة فاقضى له ان يزيل انقاض عدة مدائن منضدة بعضها فوق بعض فحفر على عمق خمسة عشر متراً في اعظم طبقة من تلك الانقاض على آثار مدينة حصينة استجالت رماداً وظفر في خرائب ام تلك الابنية بصندوق 'ملي' بالحلي من ذهب سماه 'كنز بريام' . وكان ثمت نقش وكانت تلك المدينة التي ظهر سورها كله صغيرة حقيرة وعثروا فيها على عدد كثير من الاصنام الصغيرة الرديئة الصنع والوضع وهي تمثل ربة لها رأس بومة (وعلى هذه الصورة كان اليونان يمثلون الربة بالاس) ومع كل هذا فليس ثمت دليل يقوم على ان هذه المدينة الصغيرة دعت باسم طروادة قديماً .

ميسينيا --- ورد في الاساطير اليونانية ان الملك اغاممنون الذي كان قائد الحملة اليونانية على مدينة طروادة كانت عاصمته مدينة طروادة وان زوجته قتله عند عودته من هذه الغزاة ودفن بالقرب من قصره . ولقد عرف اليونان مكان مدينة ميسينيا لانها كانت مأهولة الى القرن الخامس قبل المسيح ولا يزال الى اليوم حول الجبل سور من الصخور الضخمة مصفوفة بعضها فوق بعض بدون ملاط يلحم بين اجزائها وتحتها خمسة امتار وكان اليونان يدعون هذا السور الحيطان السيكلونية اعتقاداً منهم بان الجبابرة سيكلون قد اقاموا بنيانها ورفعوا قواعدها . ويدخل الى هذا السور من باب علوه زهاء ثلاثة امتار مؤلف من ثلاثة صفوف هائلة وفوقها عمود بين اسدين منقوشين وهذا هو باب الاسود

ولما اكتشف شيلمان سنة ١٨٧٦ مدينة طروادة عزم ان يبحث عن قبر اغاممنون في ميسينا وكان الحفر قد جرى فيها غير بعيد عن سطح الارض فحفر شيلمان في التراب

حتى وصل الى الصخر فلما كان على عشرة امتار من العمق عثر على ستة قبور فيها سبع عشرة جثة مع كمية كبيرة من الخلي الذهبية واساور وعقود ودبابيس وتيجان وسبعائة سفيقة» ورقة ذهب» وزهاء مائتي سيف وخنجر مع نصال مموهة بالذهب والفضة . وكان على وجوه بعض الجثث برقع من السفيقة وكانت هذه القبور على ما ظهر مدافن امراء ميسينا .

ومنذ ذاك العهد اكتشف الباحثون في كثير من أنحاء اليونان اشياء كثيرة ومنها اواني خزفية وحلي تشبه خزف ميسينا وحليها وقد عثر في بعض الاحيان بين هذه الدفائن على حلي مصرية من عهد الدولة التاسعة عشرة فاستنتجوا من ذلك بأنه كان في يونان منذالزمن العريق في القدم (بين القرن الثامن عشر والخامس عشر ق م) ملوك اصحاب شوكة يستطيعون معها انشاء مدن حصينة ذات غنى متوسط وتيسر لهم ان يكتزوا الكنوز ويستصنعوا الآثار النفيسة وهذا ما دعي بالتمدن الميسيني .

اشعار هوميروس --- ان القصيدتين المنسوبتين للشاعر هوميروس وهما الالياذة التي ذكرت فيها حروب اليونان ورجولية اشيل امام طروادة والاولديسية التي جاءت فيها حوادث عولس بعد سقوط طروادة . هاتان القصيدتان هما اللتان اذاعتا في اطراف العالم اجمع سقوط مدينة طروادة . وقد حفظتا قرونًا دون ان يكتسبا فكان المثنون الذين ألفوا الترحل يستظفرون اياتًا طويلة منها وينشدونها في الاعياد . وفي القرن السادس امر احد امراء آثينة واسمه بيزيترات ان يجمع القصيدتان وتكتبهما فصيحتهما بعد وما زالتا ابدًا اجل الأديب اليونانية الممتعة المطربة . يقول اليونان ان مؤلفهما هوميروس كان احد ابناء يونان من مدينة ابونية وعاش نحو القرن التاسع او العاشر ويمثلونه على صفة شيخ ضريب فقير يهبط أرضًا ويصعد أرضًا وتنازعت سبع مدن شرف نسبته اليها تدعى كل منها انها مسقط رأسه وقد وقع التسليم بذلك تقليدًا بدون مناقشة فيه . وفي اواخر القرن الثامن عشر قام احد علماء اللان واسمه فولف وامان بعض تناقض في هاتين القصيدتين اداه ان يحزم باسهما ليستا من نظم شاعر واحد ولكنهما كتاب مؤلف من مقاطيع لشعراء مختلفين وقد حمل اهل العلم على هذه القضية حملات منكورة وهم بين مثبت لها تمامًا ومنكر لها تمامًا وظلوا مية نصف قرن يتنازعون في وجود هوميروس او بدمه وما زال فريق اهل العلم الى اليوم على ان هذه المسألة متعذر حلها . ومن المؤكد ان هاته القصائد قديمة العهد جدا . ربما كانت من القرن التاسع . الف الالياذة في آسيا الصغرى وربما تألفت من مجموع قصيدتين خصت احدهما بحروب طروادة وثانيتهما بحدوث اشيل اما الاولديسية فانها على ما يظهر من نظم شاعر واحد . ولكن ليس ثمة من دليل يقوم على انها من نظم مؤلف الالياذة بعينه .

اليونان على عهد هوميروس — يتعذر علينا ان نوغل في تاريخ اليونان الى قرون بعيدة .
 واشعار هوميروس اقدم مستند بشأنهم . ولما نظم هذا الشاعر منظومته نحو القرن التاسع
 قبل المسيح لم يكن لبلاد اليونان اذ ذاك اسم يطلق على سكان اليونانية قاطبة فسماهم هوميروس
 باسم قبائلهم الاصلية ويظهر انهم كما وصفهم قد نجحوا منذ غادروا آسيا فعرفوا حرث
 الارض وبناء المدن الحصينة وتألقوا شعوباً صغيرة . واطاعوا ملوكاً لهم وكان لهم مجلس
 شيوخ ودار ندوة وقد فاخر اليونان بحكومتهم واحتقروا الشعوب النازلة بقربيهم لانهم
 كانوا دونهم فدعاهم البرابرة . ولقد صرح عولس بنحشونة السيكليلس بقوله : (ليس لهم
 قواعد في العدل ولا اندية يتشاورون فيها وافرادهم يحكمون نساءهم واولادهم بالذات ولا
 يعني بعضهم بعضاً) ومع هذا فقد كان اليونان الى ذاك العهد نصف برابرة فلم يعرفوا
 الكتابة ولا النقود ولا طريق الحديد وقلما كانوا يبحرون على ركوب البحر وتحشم اخطارهم
 ويرغمون ان الغول سكن جزيرة صقلية . .

غارات على ارضهم ورحلاتهم

تاريخ اليونانية — لم يسكن جميع شعوب يونان منذ الزمن الاطول البلاد التي كانوا
 فيها في القرن السابع اي في العصر الذي اخذ اهل العلم يعرفون عنهم شيئاً يوثق به . وقد حفظ
 كثير من هذه الشعوب ذكرى نزولهم في تلك البلاد وامتازوا عن الشعوب العربية في القدم النازلة
 في تلك البلاد . جاءت امم كثيرة فاحتلت ارض يونان بقوائم صيوفها وتشنت شمل غيرهم امام
 المخبرين عليهم . ويقول اليونان ان بدء هذه الغارات الشعواء والرحلات كانت من القدم
 بحيث لم تصلنا اخبارها مسطورة ونقلت وشاع ذكرها تقليد او يقولون انها كانت في القرن الثاني
 عشر (اي بعد اخذ طروادة بثمانين سنة) ولا عبرة بهذا التاريخ اذ لم يكن لليونان وسائط يحسبون
 بها في ذاك العهد المتطاوّل على ان هذا التاريخ اخذ قضية مسلمة بدون جدال ولا نزاع فيه .
 دعي اقدم سكان يونان باليلاسيج (ولعل معناه القدماء) ولم يعرف عنهم شيء ولا
 فيما اذا كانوا من جنس يوناني او من جنس آخر . ومن هؤلاء السكان لا يعرف غير اليونان
 ولا يعلم ايضاً كيف ابدل اسم يلاسيج بالهيلانيين اذ لم يرد في اشعار هوميروس ايضاً
 ذكر لهذا الاسم . ومن المقرر ان بضعة بلاد حفظت أثراً من آثار فاتحها وغزاتها . فقد
 جاء قوم برابرة من البلاد المشهورة ببلاد الالبانيين « الارناؤط اليوم » وهاجوا سهل بينيه
 الفسج فدعي بعد باسم تساليا وتألفت من هؤلاء المهاجرين عصابة من الفرسان الاشرف
 وامسوا سكان البلاد الاصليون عملة يزرعون ويحرثون ليس الا . وقد رحل الى وادي
 سيفيز الذي سمي باسم (بيوسيا) كل من لم تخضع نفسه لهذا الحكم

وبعد ربح من الدهر خرج الدوريون من جبال البندوا اجتازوا برزخ كورنت واثاروا على بلاد المورة واستوطنوا من اقاليمها ما امرعت تربته وغنيت ربايعه وبقاعه مثل لاكونيا ومسينيا وارغوليديا وسيكيونيا وكورنت وميكار . ويروى ان قدماء ملوكهم دعوم الميرا كليديين (اي نسل المعبود هيراكليس) ليطلبوا رعاياهم الثائرين ويبيدوهم الى عروشهم وكان ملوك اسبارطة يرون انهم من نسل قدماء السكان لا من الدوريين وقد استحال الشعب الذي احتل البلاد التي اغار عليها الدوريون الى زراع واهل فلاحة

واستولت عصابة من الاثوليين الذي صحبوا الدوريين في تلك الحملة على مقاطعة ايلديا في الغرب . وانهال الاشبايون من ايت نفوسهم الخضوع على شاطئ شبه جزيرة المورة الشمالي وطردوا منها الايونيين واسسوا الاثني عشرة مدينة الاشباينة فلجأ الايونيون المطرودون الى مقاطعة اتيكيا وامتزجوا بسكانها الاقدمين ومن ذاك العهد عرف الاثينيون اي سكان اتيكيا شعباً ايونياً . ثم انفصلت عصابات من عدة شعوب وراحوا يؤسسون مستعمرات في السيف الآخر من البحر . والايوليون اقدم هذه العصابات النازلة في آسيا ثم سكنوا بعد ذلك الشاطئ بمينه . واحتل الدوريون جزيرة اكريطش (كريت) وبعد زمن استعمر اليونان صقلية وابطاليا الجنوبية .

الدوريون — يراد بالدوريين نسل سكان الجبال النازلين من الشمال ممن طردوا او اخضعوا سكان السهول وشاطيء بلاد اليونان الجنوبية المعروف ببلاد المورة . ويذكر هؤلاء المغيرون ان ملوكاً من اسبارطة من نسل البطل هيراكليس قد طردهم رعاياهم فجأوا يعيشون عنهم في جبالهم فنبع الدوريون اخلاف هذا البطل حباً به ونصبوهم على عروشهم ثم اغاروا على السكان واستصفوا ارضهم وديارهم . وكان هذا العنصر جيلاً من الناس اشتهر بجباله وقوته وصحة اجسامه وتعود البرد وشفط العيش وحياة الفقر والفاقة فترى رجالهم ونساءهم يلبسون ثياباً قصيرة لا تصل الى ركبهم . والدوريون امة حريقة دعاها الاضطراب الى ان تكون ابدأ على قدم الدفاع تحمل عدتها وعتادها وهم اقصى اهل يونان لبعد اقليمهم عن البحر ولذلك احتفظوا باخلاق الاجيال المتوحشة وهم اعرق في اليونانية من غيرهم من سكان تلك الامصار لانهم كانوا على وحدتهم لا يستطيعون الامتزاج بالغرباء ولا تقليدكم في منازع اخلاقكم .

الايونيون — يدعى شعوب اتيكيا والجزائر وشاطيء آسيا بالامة الايونية . ولا يعلم من اين جاءت هذه التسمية وهم على عكس الدوريين جنس من الهجرة او التجار . ومن اكثر شعوب اليونانية تهذيباً لانهم استفادوا من الاحتكاك بام مشاركة اعرق منهم في الحضارة

واقبوسوا من النظر اليهم وهم ضعاف في صفتهم اليونانية لامتزاجهم بالآسيويين ولأنهم نحو انحر هؤلاء في عاداتهم الا قليلاً يميلون الى السلم ويولعون بالصناعات ويعيشون عيش الترف يمضفون الكلام ويرققونه ويلبسون ثياباً ضافية الاذبال على مثال المشاركة

الهيلانيون - هذان العنصران او الجنسان المتباينان المعروفان بالدوريين والا يونيين هما اشهر عناصر اليونان واقدرها . فاقليم اسبارطة للدوريين واقليم اثينية للا يونيين وليس السواد الاعظم من اليونان دوريين ولا ايونيين ويعرفون بالايوليون وهو اسم مجهول يطلق على شعوب مختلفة في تلك الاصقاع من ايولين واكر تانيين وفوسيديين ويوسيين من اهل البلاد اليونانية الوسطى والاشانيين من اهل المورة . وكل من تقدم ذكرهم يسمون باسم الهيلانيين الذين عرفوا به منذ ذاك العهد وهم لا يعرفون وجه تسميتهم هذه كما نجعل نحن ذلك على انهم يقولون ان دوروس وعولس كانا اولاد هيلانة وايون حفيدها

مستعمرات اليونان (١)

الاستعمار اليوناني - لم يقتصر الهيلانيون على سكنى بلاد اليونان فقط بل قام منهم طواري، من اهل المدن انشؤا بلداناً في جميع الانحاء المجاورة وكانت عدة من هذه الممالك الصغيرة اليونانية في جميع جزائر الارخبيل وعلى جميع شاطئ آسيا الصغرى واقر بطش وقبرص وفي كل ما احاط بالبحر الاسود الى بلاد القاقاس والقرية على طول البلاد العثمانية في اوربا (المعروفة اذ ذاك بتراسيا) وعلى شاطئ افريقية وفي صقلية وابطاليا الجنوبية الى شواطئ فرنسا واسبانيا

اخلاق هذه المستعمرات - يبدأ تاريخ المستعمرات اليونانية من قرون كثيرة اي من القرن الثاني عشر الى القرن الخامس وهذه المستعمرات اشتقت من كل المدن وتجت عن كل جنس دورياً كان او ايونياً او ايولياً . ولطالما قامت المستعمرات في اماكن قفرة تارة وفي بلاد مأهولة اخرى است حيناً بالفتح وآونة بالاتحاد مع السكان وانشأها بحارة او تجار او منفيون او متشردون . وتمتاز هذه المستعمرات على اختلاف زمانها ومكانها وجنسها باصلها بخلق عام وانها نشأت دفعة واحدة بمقتضى قواعد ثابتة . وما كان الطواري او المستعمرون من اليونان يحلون في بلد واحد بعد واحد عصابات صغيرة ولم ينزلوا بقعة عرضاً فيقيمون لهم مساكن تصح بالتدريج مدينة على نحو ما يفعل الطواري من الاوريين في اميركا اليوم بل كان الطواري منهم يسافرون قضم وقضيضهم دفعة واحدة ورئيسهم واحد فنؤسس

(١) جاء هذا الفصل متأخراً عن هذا بضعة فصول في الطبعة الاخيرة

البلدة الجديدة في يوم واحد . وكان تأسيس احدى المدائن بعد احتفالاً دينياً في
المؤسس لها سوراً مقدساً ويجعل بيتاً مباركاً يوقد فيه ناراً مقدسة
تقاليد المستعمرات ... ينفخ مما نقل من القصص القديمة في تأسيس بعض
المستعمرات وجه الاختلاف بينها وبين المستعمرات الحديثة . واليك كيفية استعمار مد
مرسيليا والبدء به فقد جاء الى بلاد الغال (فرنسا اليوم) او كينس احد اهالي مد
فوسى في آسيا الصغرى على سفينة تجارية فدناها احد زعماء الغالين الى عرس ابنته
عادة هذا الشعب ان تدخل العروس بعد الطعام حاملة كأساً تقدمها لرجل تختاره من اهل
فوقفت امام اليوناني ومدت الكأس نحوه . فظير للقوم ان هذا العمل كان بالهام من ال
اذ لم يكن متوقفاً . فما كان من الزعيم الغالي الا ان زوج او كينس من ابنته وسمح له
يؤسس ورفاقه مدينة على خليج مرسيليا ثم لما رأى اهل فوسى ان الجيش الفارسي يحا
مدبنتهم قاموا يعدون لهم سفناً لنقل عيالهم واثقالهم واصنامهم وحلي معايدهم وغادروا
ماخرين في سفنهم واثمخيا عند منصرفهم ان لا يعودوا اليها الا اذا عامت على وجه
الحديدة الحماة التي القوها في البحر . وقد نكت كثير منهم هذا العهد وعادوا الى مس
رؤوسهم اما الباقون فظلوا يشقون السبب بعد العباب حتى وصلوا الى مرسيليا بعد ان تجش
اهوالاً كثيرة . واسس الايونيون مدينة ميلت تاركين نساءهم وراءهم واست
على بلد يقطنها ناس من آسيا فذبجوا الرجال وتزوجوا بنسائهم وبناتهم قسراً . و
ان هؤلاء النساء اقسمن ان لا يتاولن الطعام مع ازواجهن وان لا يناديبنه بيا ازواجه
عادة بقيت قرونا يعمل بها عند نساء ميلت . اما مستعمرة برقة في افريقية فقد أسس
بامر صريح من المعبود ابولون ووحى منه . فلم يكن سكان مدينة تيرا الذين أمروا بذ
يحاذرون من نزول بلد مجهول ولم يعملوا بهذا الامر الا بعد سبع سنين وكانت جزير
عرضة للجفاف فاعتقدوا ان ابولون ساقهم الى تلك الجزيرة عقاباً منه لم . وحاول الطوار
الذين اتفقدوهم ان يرجعوا فداهم مواطنوهم واكرهوهم على السفر . وبعد ان قضوا عا
في احدى الجزر وقد خاتمتهم فيها اسباب الفج انتهى بهم الحال ان يستوطنوا ابد الدهر مدينة
فكان منها مدينة عامرة راقية .

خطورة المستعمرات ... من شأن هذه الطواريء ان تؤسس حكومة جديدة في
مكان تنزله ولا تخضع لام القرى التي انفصلت عنها بة . وهكذا بلغت الحال بان
البحر المتوسط معاطاً بمدن يونانية كل منها مستقلة تمام الاستقلال . فاصبح كثير من
المدن آية في غناه وقوته لم تضاهه بهما المدن التي خرجت منها وكان لها اصقاع او

وخصب وسكان اوفر واكثر . ويقال انه كان في مدينة سيباريس في ايطاليا ثلثائة الف رجل يحمل السلاح وان كروتون جيشت جيتاً مؤلفاً من مئة وعشرين الف مقاتل وذات سيراكوزة في صقلية وميلت في آسيا بقوتها مملكتي اسبارضة وآثينة وكان يدعى جنوب ايطاليا يونان الكبرى . وما كانت المملكة الاصلية غير بلاد صغرى بالنسبة لتلك المملكة المأهولة كلها بالطواريء من اليونان . وحدث ان كان الهيلانيون اوفر عدداً سيئ البلاد المجاورة منهم في بلاد اليونان نفسها . وترى بين رجال تلك المستعمرات طائفة صالحة من المشاهير مثل هوميروس والسيوس وسافوس وطاليس وفيثاغورس وهيراقليطس ودموقريطس وانقيدكس وارسطوطاليس وارخميدس ونيوكراتس وغيرهم .

المدين . ظل اليونان منقسمين الى طوائف صغيرة في كل البلاد التي نزلوها كما كانوا على عهد هوميروس . وغير خاف ان ارض يونان وايطاليا الجنوبية متقطعة بالبحر والجبال ولذلك انقسمت بالطبع الى عدد كثير من المقاطعات الصغيرة كل منها منفردة عن جارتها برأس من البحر او بحدار من العجز بحيث يسهل الدفاع عنها وتعمب المواصلات فكانت ثنائف من كل مقاطعة حكومة على حدتها تدعى مدينة وقد بلغت أكثر من مئة مدينة . واذا احصيت المستعمرات بلغت زهاء الالف (١) وليست بمملكة اليونانية الا صورة مصغرة بالنسبة اليها فان ايتاليا كلها لانساوي نصف اصغر مقاطعات فرنسا لهذا العهد اما اراضي كورنت او ميكار فقد صارت ريفاً ومزارع . ومن العادة ان يكون مايعبرون عنه بمملكة عبارة عن مدينة وساحل ومرقاً أو بضع قرى مبعثرة في الفلاة حول قلعة قترى من المملكة الواحدة قلعة المملكة الثانية وجبالها او مرقاً المملكة المجاورة وكثير من هذه الممالك لا يسكنه اكثر من بضعة الالف من الناس واعظمها لا يكاد يكون فيه مائتان او ثلثائة الف نسمة . وبعد فلم يؤلف الهيلانيون او اليونانيون أمة برأسها ولا انفكوا من القتال والقطاع على انهم تكلموا لغة واحدة على حد سواء وعبدوا آلهة واحدة وعاشوا عيشة واحدة منذ شطوط اسبانيا الى طرف البحر الاسود . فكانوا بهذه العلامات يتعارفون كما يتعارف ابناء نبعة واحدة ويمتازون عن سائر الامم التي يدعونها البرابرة فينظرون اليها نظر الاستحقاق والامتنان .

الديانة اليونانية

تعدد الارباب - اعتقد اليونان اعتقاد سائر قديماء الآريين بارباب كثيرة ولم يكن لهم شعور بالالاهية ولا بالازلية ولم يؤمنوا برب واحد تكون السماء سرادقه والارض سلمه

(١) في الطبعة الاخيرة حذف المؤلف هذه الفقرة الطويلة كلها الى آخر الفصل

ومرفاه . واعتقد اليونان ان كل قوة في الطبيعة من هوائها وشمسها وبحرها هي قوة الهية ونسبوا كلاً من هذه القوى الى رب خاص اذ لم يدركوا ان علة واحدة تنتج كل هذه الاكوان ولذا عبدوا عدداً عديداً من هذه الالهة فكانوا وثنيين على هذا النحو .

نسبة الشهوات البشرية ودعوى تجسد الرب — كل رب هو قوة من الطبيعة وله اسم خاص به ولشدة تصور اليونانيين وسعة خيالهم مثلت لهم اذعانهم تحت هذا الاسم كأننا حياً في ابهى المظاهر من الصور البشرية وكانوا يتناولون المعبود او المعبودة على صورة رجل جميل الطلعة وامراة وسيمية المحيا وعند ما كان عولس او تيليماك يصادقان رجلاً عظيماً وسيماً يبدآن بسؤاله عما اذا كان رباً من الارباب . وقد صور على ترس البطل آشيل صورة جيش . قال هوميروس في وصفه له : ان اريس واثنين كانا يقودان الجيش وكلاهما متشح بالذهب وكانا من الجمال والاعتدال على صورة تليق بالارباب اذ البشر اقزام قصار القامات وكان الارباب اليونانيون بشرأ يلبسون ثياباً ولم قصور واجساد كجسادنا وهم ان لم يتنونا يبحر حون . وذكر الشاعر هوميروس كيف ان احد المحاربين جرح الرب اريس فراح يصرخ من الألم . وهذا الضرب من اختيار الارباب على مثال البشر هو ما يدعى « اقنروبومورفيسم » اي تجسيد الارباب .

علم الميثولوجيا . للارباب اقرباء واولاد ورهط وامرات لانهم ناس كالأدميين فامهم ربة واخوتهم ارباب واولادهم ارباب غيرهم او ناس هم نصف ارباب . وتدعى انساب هذه الارباب تيوغونيا . وللارباب تاريخ وحوادث ولم قصص في مواليدهم واخبار شببتهم واعمالهم . فالرب ابولون مثلاً ولد في جزيرة ديوس وكانت لجأت اليها امه لاتون وقيل غيلاناً كان قد خرب تلك البلاد في سنج جبل البارناس . وهكذا كان لكل مقاطعة يونانية اخبار تعزوها لاربابها سموها الخرافات ومن مجموعها تئألف الميثولوجيا اي تاريخ الارباب .

الارباب المحليون — بقي الارباب اليونانيون وهم على صفتهم البشرية على ما كانت عليه اولاً كواثن طبيعية فكان القوم يتخيلونها كما يتخيلون البشر وقوى الطبيعة فقد كانت الناياد فتاة جميلة ونبعاً منبجساً في آن واحد . وتخيّل هوميروس الشاعر ان نهر جزيرة الزانت هو رب وقال فيه (لقد تدفّق نهر الزانت على البطل آشيل وهو يزيد غيظاً ويرغي حقناً ونحر طافحاً بالزبد والجثث) وظلت الامة تقول ان الرب زيوس ينزل المطر ويرسل الرعد .

وكان اليوناني يعتقد ان الرب عبارة عن مطر وسيل ومساء او شمس لالسماء والشمس والارض على الجملة . وكان ربه مسامتاً للسماء التي تظله والارض التي ثقله والنهر الذي يعله . فمن ثم كان لكل مدينة ارباب ومعبودات كثيرة فمن رب الشمس الى ارباب الارض الى رب

البحر وكانت تلك الارباب منفصلة عن شمس البلد المجاورة وارضاها وبحرها بمعنى انه كان لاهل كل مقاطعة ربها ومعبوداتها الخاصة بها . فليس رب اسبارطة زيوس رباً لآتينه زيوس بعينه وربنا كان يذكر في قسم واحد ريان تحت اسم آتينه اوريان تحت اسم ابولون . ذكر احد من طائف بلاد اليونان من السياح انه شاهد الوقا من الارباب كانت تدعى ارباب المدينة ولم يكن هناك سيل ماء ولا غابة غيباء ولا اكمة شماء الا وهي مؤله (١) ولها صفة لا يشاركها فيها غيرها وربنا كان هذا المعبود صغيراً لا يعبد الا ناس من اهل الجوار وما مزاره غير مغارة في الصخر .

الارباب الكبيرة --- وهم اليونان ان فوق طوائف الارباب الكثيرة الصغيرة المنبثة في كل مقاطعة بضعة ارباب كبيرة كالهواء والشمس والارض والبحر المدعوة بهذا الاسم ولها في كل مكان معبد خاص او مزار يتقرب فيه اليها وكانت تمثل كل من هذه الارباب اهم القوى الطبيعية وما اكثر عدد هذه الارباب التي اشتهرت اهل يونان كافة في التقرب اليها فانك لو احصيتها لانكاد تصل في عددها الى العشرين . ومن سوء عاداتنا معاشر الافرنج ان ندعو هذه الارباب باسماء ارباب لآتينه واليك حقيقة اسمائهم :

زيوس (المشتري) - هيرا (جونون) - آتينه (مترفا) - ابولون - ارئيس (ديان) - هرميس (عطارد) - هيغز توس (فولكين) - هيسيا (فيسا) - اريس (المرج) - افروديت (الزهرة) - بوزيدون (نبتون) - انفيتيريت - بروتة - كرونوس (زحل) - ريبيا (سبيل) - ديمتير (سيريس) - برسيفونه (بروزرين) - هاديس (بلوتون) - ديونيزوس (باخوس) . وهذه الزمرة من الارباب هي التي كانت تعبد في كل المعابد على الجملة ويتوسل اليها في الصلوات

خصائص الارباب --- لكل من هذه الارباب هيئته وهندامه وادواته المدعوة خصائص هكذا تدورها المؤمنون من ابناء يونان وهكذا مثلها النقاشون منهم . ولكل خلقه المعروف به بين عابديه ولكل منها عمله الخاص به في العالم ويقوم بوظائف معينة وذلك بعهوة ارباب ثانوية تطيعه في العادة ويتصرف فيها بامرهم . فالرب آتينه مثلاً هو على صورة عذراء ذات عيتين براقبتين مثلث قائمة وهي تحمل رمحاً وعلى رأسها خوذة وعلى صدرها سلاح لامع وهي عندهم ربة الهواء النقي والحكمة والاختراع وعلى جانب من الهيبة والشراسة .

ومثل هينيتوس رب النار حاملاً بيده مطرقة على صورة حداد اعرج قبيح الهيئة وزعموا انه ينزل الصاعقة . وان الزهرة ارئيس كانت عذراء متوحشة تحمل قوساً وكنانة

(١) يقول الشاعر ازبودس اليوناني انه كان في بلاده ثلاثون الف رب

وهي تطوف الغابات لتصيد مع زمرة من الجنيات وهي ربة الغابات والصيد والموت . اما
 هرميس الذي قتله لابسا نعالاً مجنحة فهو رب المطر المخصبة وله اعمال اخرى وهو رب
 الاسواق والاماكن ورب التجارة ورب السرقة ورب الفصاحة يسري بارواح الموت ويمشي
 في السفارات بين الارباب ويقوم على تربية الحيوانات . ولرب اليوناني ابدأ عدة وظائف
 في الغالب هي في نظرنا متخالفة غير ان اليونان تخيلوا ان بينها تشابهاً ويرتأون لها صلة وعائداً
 الاولب وزيوس — كل من هذه الارباب اشبه بملك في مقره ومع هذا فقد لاحظ
 اليونان ان جميع قوى الطبيعة لا تسير بالتصادف وانها تعمل بدياً واحدة فكانوا يطلعون
 اللفظ الواحد للتعبير عن النظام والعالم ففرضوا ان الارباب اتحدت على تسيير نظام العالم
 وانه كان لهم شرائع وحكومة كما للبشر . وكنت ترى في شمالي اليونان جبلاً ذا قمم مكسوة
 بالثلج لم يصعد اليه بشر واسمه الاولب وعلى هذه القمة المستورة عن اعين الناس بما يترأكم
 عليها من الضباب توم اليونان ان الارباب يعقدون جلساتهم فيجتمعون مستترين بنور
 سماوي يتفاوضون في شؤون العالم وعظيهم زيوس (المشتري) يرأس تلك الجلسات لانه
 رب السماء والتور والرب الذي يؤلف السحاب ويرسل الصواعق وصوره على مثال شيخ
 مهاب ذي لحية بيضاء جالس على عرش من ذهب وهو الذي اُخص بالزعامة دون سائر
 الارباب ولذلك تراها تخضع له فاذا بدرت من احدها بادرة المقاومة في امر يتهددها زيوس
 واليك ما ذكره هوميروس على لسانه « اعقدوا في السماء سلسلة من ذهب وتعلقوا بها
 انتم معاشر الارباب ذكورا كنتم او اناثا ولو بذلت الجهد كلكم لا تجرون زيوس الى الارض
 وهو الملك الامر وعلى العكس اذ اردت ان اجذب السلسلة الي قانا اجاذب الي الارض والبحر ثم
 اعلقه بقمة الاولب ويبقى العالم كله معلقاً مصلوباً ما دمت اعلى منزلة من الارباب والبشر »

آداب الميثولوجيا اليونانية -- وهم اليونان ان معظم اربابهم من القسوة والسفك والخذاع
 والسفاهة على جانب فاخترعوا لهم اخباراً سفية واعمالاً نانية عن طور اللياقة . فكان
 هرميس يزعمهم لصاً واشتهرت افروديت بفجها وخفها واريس بسوته وكانوا كلهم من
 العجب بحيث لا ينفكون عن اضطهاد من تساهل في تقديم الفخايا لهم . ولما اُنجبت نيوبي
 ملكة ثيبة بكثرة اسرتها لم يصعب عليها ان رأت الرب ابولون يصي اولادها بالسهم
 ويمزقهم كل ممزق . وكان من حال تلك الارباب في الحسد بحيث لا تتألك من رؤية
 انسان بلغ غايات السعادة . فاليونان رأوا السعادة من اعظم الاخطار لانها تجلب غضب
 الارباب حتماً ولذلك ابتدعوا ربة للغضب والانتقام سمونها نيميزيس ويذكرون ما قصصاً
 كالآية مثلاً : ذلك ان بوليكراتس الظالم من اهل جزيرة سيسام خاف يوماً حسد

الارباب اذ غذا ذا طول وحول وكان يملك خاتم ذهب له موقع كبير من نفسه فالتقاء سيفه اليم لثلاث تكون سعادته مشوبة بالشقاء ثم ان صياداً احضر ليوكراتس ذات يوم سمكة عظيمة وجد خاتمه في جوفها فكان ذلك بنظره شؤماً دالاً على وقوع المصيبة الاكيدة. فحوصر بعد في مدينته واخذ وصلب وعاقبه ارباب يونان على سعادة نالها وحظ من النعم اصابه .

عرف بهذا ان الميثولوجيا اليونانية كانت غارية عن الاخلاق اذ كان الارباب قدوة سيئة للناس قال ذلك فلاسفة اليونان وضيقوا على الشعراء الذين نشروا هذه الحكايات وذكر احد تلاميذ فيثاغورس ان معلمه اطلع على الجحيم فرأى فيه روح هوميروس الشاعر مصلوبة في شجرة وروح از يودس الشاعر مدلاة في دعامه عقوبة لما على اهانتهما الارباب وقال كسينوفان ان هوميروس واز يودس قد نسا للارباب اعمالاً من شأنها ان تكون عاراً بين البشر وشارعاً عليهم وهناك إله واحد لا يشبه البشر باجسادها ولا يعقوها وكان يزيد على ذلك قوله : لو كان البقر والاسود ايدر واستطاعت ان تصور كالناس لصنعوا للارباب اجساداً تشبه اجسادهم ولجملت الخيل للارباب اجساداً كالخيل والبقر . والناس يذهبون الى ان للارباب اجساداً وصوتاً وجسداً . هذا قول كسينوفان وهو من الحق والعدل يمكن اذ قد جعل اليونان الأول اربابهم على صورهم مثل ما كانوا عليه في ذاك العهد سفاكين غدارين حشودين محبين وكذلك كان اربابهم . ثم صاروا على نسبة التحسين في اخلاقهم ينشأ اخلاقهم متبرمين من هذه المبادئ، كلها عازفين عنها ولكن تاريخ الارباب واخلاقهم كانت مقررة بحكايات قديمة اخذها اهل الاجيال الحديثة ولم يجرأوا على تغيير ارباب اجسادهم الفظة السفينة بغيرها

ابطالهم

البطل — البطل في بلاد اليونان رجل معروف يفدو بعد موته روحاً ذات سلطان ولا نتم له الربوبية بل ينال منها نصفها فمن ثم لا يسكن الابطال في الاولب في سماء الارباب ولا يدبرون شؤون العالم اجمع ولم مع هذا ايضاً سلطة فوق كل سلطة بشرية يعيشون بها احبابهم ويهلكون اعداءهم . ولذا عبدتم اليونان عبادتهم للارباب واستغاثوا بهم وتضرعوا اليهم . وما من مدينة او قبيلة او أسرة الا ولها بطل خاص بها وهو عبارة عن اشباح مثقلة تحميها فتعبد لها وتقدم اليها بانواع القربات .

ضروب الابطال — ومن هؤلاء الابطال فئة اشتهرت في الاساطير وعدت من الاعيان مثل اشيل واوديس واغاممنون ولا شك في ان بعضهم لا حقيقة لهم قط مثل هيراكليس واديب . وليس بعضهم إلا أسماء لا مسميات لها مثل هيلين ودوروس وعولس

غير ان عبدتهم ينظرون اليهم نظرم الى شخص قداما . وقد عاش معظم هذه الارباب وبعضهم من الاعيان قد ذكرهم التاريخ وكانت لهم اعمالهم مثل لبونيداس وليزاندر وكانا من القواد وديمقراط وارسطو وكانا فيلسوفين وليكورك وصولون وكانا مشرعين . وعبد اهل مدينة كروتون احد مواطنيهم فيليس لانه كان اجمل اهل زمانه في بلاد اليونان . وكان الزعيم الذي يقود الطواريء ويؤسس مدينة يعد بين السكان البطل المؤسس فيقيمون له معبدا وينتقرون اليه كل عام بانواع النذور والقربات . وهكذا كان ملتياديس الآثيني يعبد في مدينة من اعمال تراسيا ويرازيداس الاسبارطي الذي قتل في دفاعه عن امفيبوليس كما يعبد في هذه المدينة اذ اعتبره السكان مؤسسا للبلد .

حضور الابطال -- يظل البطل ساكنا في البلد التي دفن فيها جسده سواء كان في قبره او في الجوار . وقد وصف هيرودنس هذا المعتقد فكانت مدينة سيبيون تعبد البطل ادراتس فاقامت في الساحة العامة مصلى اكراما له . ولقد ارتأى كليستين جبار سيبيون ان يتخلص من هذا البطل فراح يسأل هاتف دلفيس عما اذا كان يفلح في طرد ادراتس . فاجابه الهاتف بقوله : ان ادراتس كان ملك الديسونيين وانه لص وقاطع طريق فلما لم يستطع كليستين ان يطرد ذلك البطل عهد الى الحيلة فبعث الى ثيبة يبحث عن عظام بطل آخر اسمه ميلانييس وجعلها في مقبرة المدينة باحتفال حافل . قال هيرودنس انه عمل كذلك لان ميلانييس كان من اعداء ادراتس فقتله صهره واهله . ثم جعل تلك الاعياد والنذور تقدم الى ميلانييس بعد ان كانت تقدم الى ادراتس زمنا وراح يقتنع وسائر اليونانيين ان البطل المختاخذ يركن الى الفرار .

مداخلة الابطال -- للابطال قوة الالهية في وسعهم كما في وسع الارباب ان يفعلوا الخير والشر كما يشاءون . ولقد اخطأ الشاعر ستيزيوس في كلامه على هيلانة المشهورة (تلك التي جى بها الى طروادة على نحو ما ورد في الاساطير) فكلف بصره للحال حتى اذا رجع عن كلامه عاد بصيرا . ويزعمون ان هيلانة صارت نصف ربة بعد موتها فارسلت للشاعر بالداء باديء بدء ثم اتبعته بالدواء . ويدعون ان الابطال الحامية للبلد تدفع عنها الادياء والحجاجة وتذب عن حياضها من غارة الاعداء . وقد زعم الجند الآثيني انهم رأوا بين صفوفهم في حرب ماراثون تزيه بطل آثينة ومؤسسها وقد تدجج بسلاح لامع في حرب سلامينة وظهر البطلان اجاكس وتيلامون اللذان كانا فياهم في ملكي جزيرة سلامينة في اعلى ذروة منها باسطين ذراعيهما نحو الاسطول اليوناني . قال تيموكليس (وما قهرنا الفرس اذ قهرناهم ولكن الارباب والابطال قهرهم) وفي احدى روايات سوفقلس

(اديب انى تولون) بينا كان اديب مشرقاً على الموت زاره ملك آثينة وملك ثيبة واراده كلاهما على الرضا يترك جسده تدفن في ارضها ليكون بطلاً حامياً لها فاجاب طلبها في ان يدفن في بلاد الآثينيين وقال للملكية : انى لا اكون بعد موتى خالياً من النفع في هذا القطر بل اكون ركناً ركيناً لا نقاويه الوف الالوف من المحاربين . وكان يرى ان بطلاً واحداً يساوي جيشاً برمته ويرهب بأس هذا الشيخ ولا رهبة الاحياء اجمعين .

العبادة

• بدء عبادة الارباب — كان الارباب والابطال على ما لها من الحول والطول ينشرون في الناس جماع الخيرات والسيئات كما يشاءون فكان من الخطر ان يكونوا على المرء ايّاماً ومن العقل ان يكونوا واياماً بدءاً واحدة . ولقد ذهب القوم الى انهم كانوا اشبه بالبشر يخطئون اذا تركوا وشأنهم ويرضون اذا عني بهم . وعلى هذا الفكر نشأت العبادة فكانت عبادة عن اتيان صالح الاعمال مع الارباب لنيل رضاهم . وقد صرح افلاطون بالرأي العام كما يلي قال : (ان الاضطلاع بالقول والقيام بصالح الاعمال مع الارباب سواء كان في الصلوات او في التدور هو من التقوى التي بها نجاح الخاصة والبلاد وعكسها هو الشقاء الذي به ثل عروش الممالك وتندك معالم العمران) يقول كسينوفان في آخر كتابه الفروسية ان الارباب لا يرضون عمن يقزعون اليهم في حاجاتهم فقط بل يرضون عمن يكرمهم في مجبوحة النجاح . فالديانة كانت بادي بدعهداً وميثاقاً فكان اليوناني يسمى في استرضاء الارباب ويتال من لديهم مقابلة ذلك منافع ومقائم قال احد كهنة ابولون لمعبوده « انى قد احرق من اجلك ثيراناً سمينة منذ زم طويل فاقبل الآن تضرعاتي وادم بسهام غضبك اعدائي »

الاعباد العظيمة — زعم اليونان ان لاربابهم احساساً وعواطف كعواطف البشر ولذلك عتوا بالقيام بكل ما يسترضى به الانسان فكانوا يقدمون لهم لبناً وخمراً وحلواء وفاكهة ولحمًا وينشئون لهم قصوراً ويحفظون اكراماً لم باعياد اذ كانت تلك المعبودات ارباباً سميدة تحب الفرح والمناظر الجميلة . وما كان العيد كما هو الحال عندنا اليوم عبارة عن افراح بل كان احتفالاً دينياً يضرب في خلاله عن الاعمال وتأخذ الامة سيفه ابداء مظاهر المسرة على رؤوس الاشهاد امام المعبود . فمن ثم كان اليوناني ييسر بهذه الاعباد ويحتفل بها اجلالاً لاربابه ومعبوداته لا قياماً باهوائه الخاصة وشهواته . جاء في نشيد قديم اكراماً للمعبود ابولون ان الايونيين يدخلون السرور عليك بما يقومون به من مطاعنهم المعبودة وغنام ورقصهم .

الالعب الاحتفالية -- نشأت الالعب الاحتفالية من هذه المسليات التي كانت تقام اعظماً للارباب فكان لكل مدينة ضرب من ضربها تكرم بهامعبوداتها وما كانت في العادة تقبل لمشاركتها بها غير ابناء وطنها ومع هذا فقد كانوا يقومون بالعب يشترك بها جماع ابناء يونان ويحضرونها وذلك في اربعة اماكن من البلاد اليونانية . وتدعى الالعب الاربعة العظيمة واخص تلك الالعب العاب اولمبيا . يحتفل بها كل اربع سنين اكراماً للمعبود زيوس وتدوم خمسة ايام او ستة فيأتي دحيا اليونان من اطراف البلاد تفص بهم الملاعب والمشاهد وياخذون في تقديم الضحايا والتقرير بالصلوات الى المعبود زيوس (الشمس ؟) وسائر الارباب ثم يتبارى القوم في الاعمال الالية : عدو على الاقدام حول الملعب . قال يعرف عندهم بالبناتل لانه كان عبارة عن خمسة العاب فيقفز المتبارون ويركضون من طرف الملعب الى طرفه الآخر ويقذفون الى بعد بطارة من معدن ويرمون الحراب وينقاتلون بالايدي والابدان . ثم ملاكمة بجمع الاكف ينقاتلون فيها واذرعهم مستورة بسيور من جلد . ومسابقة عجلات كانت تجري في الميدان والعجلات خفيفة يجرها اربعة حيادو يتصدر القضاة في الالعب باليستم . القرزية وقد توثجوا بالكليل الغارفينادي المتنادي بعد القتال باسم الظافر واسم بلده على رؤوس الاشهاد ويكافأ بتاج من الزيتون جزاء ما وفق له ويستقبله مواطنوه استقبال الظافر الفاتح وربما خرقوا خرقا في حائط ليمروا به منه فيقبل ثقله مركبة تجرها اربعة من الحياد لابساً القرمزى والشعب كله يحفزه . كان بعد هذا النصر الذي نعهه اليوم من اعمال المصارعين في المجال العامة من احسن الاعمال واولاها على ذاك العهد يحتفل بها اعظم الشعراء ولم يكن هم ينندار اشهر شعراء الاغاني القدماء غير نظم المقاطيع في سباق المركبات . ويروى ان احدهم واسمه ديا كوراس رأى في يوم واحد ولدين له وقد توثجا فحملاه على اعين النوم حمل الظافرين فلما شاهد الشعب ان امثال تلك السعادة عظيمة جداً بالاضافة الى الميت ناداه : مت يا ديا كوراس اذ ليس في وسعك ان تكون بعد معبوداً . فضاق ذرع ديا كوراس من الاضطراب ومات بين ايدي ولديه وفي نظره ونظر ابناء يونان ان رؤية ولديه واكفها قوية شتنة وسوقها سريعة كان ذلك منتهى السعادة الارضية . وعلى هذا يحق لليونان ان يعجبوا بالقوة الطبيعية فقد كان اقوى المصارعين من احسن الجند في الحروب التي ينقاتلون فيها جسداً لجسد .

القال -- كان اليونان يرجون من آلهتهم اعمالاً كبيرة لقاء تلك الواجبات والاعباد والاحتفالات فكانت المعبودات تحمي عبديتها وتسبغ عليهم برود العافية والنفى والنصر وتقيهم المصائب والنواب التي يتوقعون تزولها ترسل علامة من لئنها يفسرها الناس . وهذا ما كان

يدعى بالفأل . قال هيرودس كان اذا اقتضى لاحدى المدن ان تتحنن بعض الخطوب
 يتقدم لها على ذلك علامة في العادة . ولقد نفاذ اهل شيوا (صافز ؟) نفاذاً دلم على ما
 يتالم من الهزيمة فلم يرجع من مئة فتي بعثوا بهم الى دلفيس يترغون ويشدون سوى فتيين
 وهلك سائرهم بالوباء . وعلى ذلك العهد انتقض سقف مدرسة المدينة على اطفال كانوا
 يتعلمون القراءة فلم ينج منهم سوى طفل واحد وكان عددهم مئة وعشرين . هذه هي الامارات
 التي قدم الارباب ارسالها على ابناء يونان ننذرهم وتبشرهم . ولقد كان اليونانيون يرون
 الاحلام والطيور التي ترفرف في السماء واحشاء الحيوانات التي يقربون بها لاربابهم بل
 وكل ما يقع نظرم عليه من الزلازل والكسوف الى عطسة يعطسها المرء — يرون كل هذه
 الامور الطبيعية امارات الهية فيها سعادتهم وشقاؤهم في حملة صقلية بينا كان نيسياس
 القائد الاثيني يركب جيشه المنهزم في السفن اوقفه خسوف القمر فظن ان الارباب بعثت
 بهذه الحجيبة تنذر الاثينيين ان لا يتقوا ما بداوا به من الاعمال الحرية قاضطرت نيسياس
 الى الانتظار سبعة وعشرين يوماً وهو يقدم القرابين تسكيناً لغضب الارباب . فمدء
 الاعداء في هذه الفترة مبناء المدينة وحطموا اسطوطها وبددوا شمل جيشها . ولم ير الاثينيون
 لما بلغهم هذا النبأ سوى امر واحد فنجوا من اجله نيسياس وذلك انه كان عليه ان يعرف
 ان اختفاء القمر بالنظر الى جيش منهزم علامة حسنة . وفي غضون العودة المعروفة بعودة
 العشرة آلاف خطب القائد كسينوفون في جنده فلما انتهى الى هذه العبارة : « لنا الامل
 الوطيد ان نرجع والمجد اليقنا بعمونة الارباب » عطس احد الاجناد على الاثر فاخذ الجيش
 يصلي ويضرع الى الرب على ان بعث لهم هذا الفأل فبثف كسينوفون : الا فنتنذر بنقدية
 ضحايا زيوس اذ بعث الينا ما تنفأل بهر يينا نحن ننفأض في سلامتنا .

هاتف الغيب — كان الرب في الاحايين يجيب سؤل من يدعوه ويستشير من
 المؤمنين لا باشارة صماء بل على لسان احد الملممين من علية الناس فيأتي القوم مزار رب
 يشدون اجوبة يتلقونها ونصائح يستمعون بها وهذا هو معنى الهاتف بالغيب . وانك لتري
 في اماكن كثيرة من بلاد اليونان وآسيا جملة صالحة من الهاتفين بالغيب واشهرهم سفي
 دودون من بلاد ابيروس ودلفيس في سفح جبل البارناس فكان الرب زيوس في دودون
 يجيب دعوة المضطربين بدوي اشجار البلوط المقدسة والرب ابولون كان المستمع في دلفيس
 وكان يسري في مغارة من معبده من شق التراب مجري نسيم ضمن اليونان ان الرب بعث به
 لانه ما استنشقه انسان الا وخرف وجن ولذا وضعوا اثقية على شق الارض وهي عبارة
 عن امرأة (ييسيا) فيجلس على تلك الاثقية بعد ان تستحم في حمام مقدس وتقبل الالهام

فما هو إلا أن يأخذها شيء من الجيران المصيبي حتى تبدأ تصرخ اصوات وتنفوه بكلمات منقطعة فيتلقاها منها كهنة يجلسون حولها فينظمونها شعراً ويقصونها على من جاء يستنصيح فكان هتاف الغيب من يسيا هذه مشوشاً ملتبساً . ولما سألها كريسوس عما اذا كان يجب عليه ان يسهر على الفرس حرباً اجابته بقولها (ان كريسوس يدمر مملكة عظيمة) ثم ان مملكة عظيمة تقوضت اركانها ولكنها كانت مملكة كريسوس . وكان للاسبارطيين ثقة عظمى باليديا ولم يكونوا يسرون حملة دون استشارتها وقد اقتدى بهم سائر اليونانيين وهكذا أصبحت دلفيس مبعث الهائف الوطني .

الامفكتيونيا - ألف اثنا عشر رجلاً من اعيان الشعوب اليونانية جمعية سموها الامفكتيونيا جبا بحماية قبر دلفيس فكان يجتمع نواب هذه الشعوب كل سنة في دلفيس للاحتفال بعيد ابولون وللنظر فيما اذا كان المعبد يخشى عليه من مدي الاذى لانه كان فيه ثروة عظيمة ربما تدعو اللصوص ان ينهبوه . وقد صادر اهل سيرا وهي المدينة القريبة من دلفيس هذه الكنوز الثمينة في القرن السادس فاعلن عليهم اولئك الاعيان المشار اليهم حرب من اسباح الامور المحظورة وخرق سياج المقدسات فاخذت سيرا وهدمت من اساسها وبيع سكانها بيع الرقيق واصبحت ارضها كأن لم تكن بالامس .

ومع هذا فلا ينبغي ان يذهب ذاهب الى ان مجمع الامفكتيون اشبه في وقت من الاوقات مجلساً يونانياً . بل انه لم يكن إلا بعيد ابولون لا بالشؤون السياسية وما قط ضرب على ابدي شعوب الامفكتيون حتى لا يثيروا بينهم دواعي الشقاق فلهائف الغيبي والامفكتيونيا في دلفيس كان لها من السطوة حظ اوفر من سطوة الهائفين والامفكتونيين ولكنه ما ضم قط اثنتا اليونانيين وجعلهم امة قائمة برأسها

اسبارطة

شعبها

لاكونيا - لما هاجم اهل الجبال من الدوربين شبه جزيرة المورة نزلت اعظم عصابة منهم في مقاطعتي اسبارطة ولاكونيا ومقاطعة لاكونيا وادى ضيق يشقه نهر عظيم يعرف بالاوروتاس يحيط بهما جبلان عظيمان غطيت قممها بالثلوج وقد وصفهما احد الشعراء بقوله : « ابنتا الارض الغنية التربة الخصبة الرباع المتعذر استنباتها واستثمارها ابنتا البلدة الجوفاء المحصورة بين جبال قائمة الكثيبة في منظرها المنيرة على هجمات المهاجمين » وقد عاش الدوربيون من الاسبارطيين في هذه البلاد الحصينة بين ظهرائي سكانها القدماء فاصبح بعضهم

رعابا لم وفريق منهم عبيدهم ومواليهم وبهذا انقسم سكان لاكونيا الى ثلاث طبقات وهم
الميلوتيون والبيريكيون والاسبارطيون .

الميلوتيون — سكنت هذه الطبقة من السكان اكواخا منتشرة في الفلاة واقاموا على
حرث الارض وزراعتها وما ملكوا الاراضي التي كانوا يملكون فيها ولم يكونوا مطلقين في
مغادرتها وما كان حالم في ذلك الا حال عبيد القرون الوسطى مستأجرين تابعين للارض
خلفا عن سلف عاملين للكلها الاسبارطي وكان يتناول منهم افضل قسم من غلاتهم .
ولطالما احتقرهم الاسبارطيون وحاذروا باسهم واساءوا معاملتهم واضطروهم الى لبس ثياب
غليظة وضربهم بلا داع ليدكروهم انهم عبيد وارقاء . وربما اسكروهم في الاحاين
لينفروا ابتاءهم من السكر . وقد شبه احد شعراء اسبارطة الميلوتيين « بمجموع موقورة تكبو
وتنوء تحت اعباء الاحمال واعياء الضرب »

البيريكيون — سكنت هذه الفئة مئات من القرى في الجبال او على الساحل وألغوا
الاسفار البحرية واتجروا وصنعوا المواد الضرورية للحياة فكانوا احراراً يديرون شؤون
مزارعهم بيد انهم كانوا يؤدون ضريبة لحكام اسبارطة ويخضعون لهم .

حالة الاسبارطيين — ابغض الميلوتيون والبيريكيون ساداتهم الاسبارطيين .
يقول كسينوفون لم يكن لاحد منهم عند ما تكلم في شأن الاسبارطيين ان يكتم مبلغ
سروره لو تسنى له ان يأكل الاسبارطيين احياء . زلزلت اسبارطة ذات يوم
وكادت لتنداعي اركانها فإكأن بأسرع من البرق حتى انتهال الميلوتيون من اطراف
الفلاة ليقتلوا الاسبارطيين الناجين من الهلاك . ثم انتفض البيريكيون وابوا الخضوع .
على ان الاسبارطيين كانوا من سوء السلوك بحيث يستحقون سخطهم . واقد امر
الاسبارطيون عقيب حرب اشترك فيها كثير من الميلوتيين في معسكراتهم ان ينشقوا
من اشتهر منهم بالشجاعة ووعدهم ان يعثقوهم وكان هذا الوعد منهم حيلة ليعرفوا بها
اشجعهم نفوسا واجراهم على ابداء نواجز الثورة فانخبط ألفان منهم طافوا بهم ارجاء المعبود
متوجة رؤوسهم اشارة الى الحرية ثم ادخلهم الاسبارطيون في خبر كان ولم يعرف احد
كيف ملكوا على حين كان المنضطهدون عشرة اضعاف مواليهم وما قط ربا الاسبارطيون
على تسعة آلاف رب أسرة يقابلهم مائتا ألف من الميلوتيين ومئة وعشرون ألفا من
البيريكيين واقتضى ان يعادل واحد من الاسبارطيين عشرة من مواليهم في مسائل القتل
واذا اعتادوا المصارعة فقت الحال بان يكون افرادهم اقوياء اشداء فكانت اسبارطة معسكرا
لا جدار له وكان شعبها جيشا على قدم الدفاعة ابدا

التربية

الاولاد — يؤخذ اطفال هذه الامة منذ ولادتهم ليكون منهم اجناد فكل مولود يوثق به امام المجلس فاذا وجد انه ضعيف اشوه يعرضونه على مجلس لان احوالهم اوجبت ان لا يكون جيشهم مؤلفاً الا من ارباب القوة والجلادة فمن يستحيونهم يؤخذون من اهلهم في السابعة من عمرهم ويربون مع اقربائهم كأنهم اولاد جماعة فيروحن عارية اقداسهم وليس على ابدانهم غير رداء واحد هو وقايتهم صيفاً وشتاءً وينامون على كدس من القصب ويقتسلون في المياه الباردة من نهر الاوروتاس ويقتلون من الطعام ويزددون كثيراً واطعمتهم غليظة ليعادوا ان لا يملأوا معدم . ويقسمون الى سرايا كل سرية مئة رجل ولكل منها زعيم . وكثيراً ما يريدونهم على التضاعف بالارجل والا كف . ويساطون في عيد اريستيس حتى تدبل دماؤهم امام هيكله وربما مات بعضهم متأثراً من الضرب على انهم قلما يستغيثون فيرون الشرف ان لا يرفعوا اصواتهم يريدون بذلك تدريسهم على ان يقتتلوا ويحتملوا العذاب والالم . وكثيراً ما يمنعون عنهم الطعام ثباتاً فيسرقون ما يقتاتون به فاذا اخذوا يضربون بالسياط ضرباً مبرحاً . وكان من احد اولاد الاسبارطيين كما قيل وقد مرق ثعلباً صغيراً وخبأه تحت ثوبه ان آثر جعل بطنه فريسة للثعلب ينهشه على افنضاح امره واظهار فعلته . وكان يراد تدريب هؤلاء الاطفال على حسن التخلص في الحروب فيسيرون غاضين ابدانهم ساكتين وايديهم تحت ثيابهم لا يلتفتون يمنة ولا يسرة كأنما على رؤوسهم الطير امام اعيان كل واحد كان عليهم ان لا يتكلموا على الطعام ويطعموا كل من يلقونهم وذلك لكي يحضنهم للنظام .

البنات — اما سائر اليونانيين فيحبون بناتهم في البيوت ويشغلنهم في حكمة الصوف . اراد الاسبارطيون ان يقيموا اجسام نسايتهم ويجعلنهم من المقدرة بحيث يلدن الاقوياء من الاولاد فمن ثم كانوا يربون البنين على غرار البنات الا قليلاً . ولقد كانوا يترنون في رياضاتهم على الركض والقفز ورمي الاطرو والطنع بالحرب . وقد وصف شاعر العلبا كانت فيها البنات كالمهاوى مسترسلة شعورهن والقبار ثائر وراءهن وقد اشتهر من امرهن انهن كن اصغر نساء يونان واشجعهن .

التدريب — حياة الرجال منظمة ايضا كحياة الجند اذ قضت الحال ان لا تشغى عنائهم امام جمهور الاعداء فيكون الاسبارطي في السابعة عشرة من سنه جندياً ويظل كذلك الى الستين . فكانت الارياة وساعة القيام والنام والطعم ورياضات متعددة معروفة بنظامات كما هو الحال في ثكنة الجند اليوم . فاذا لم يحارب الاسبارطي يستعد للحرب فيمزن نفسه

على العدو والقفز وحمل السلاح ويروض كل حين عامة اطراف جسمه من عنقه وذراعيه وكنتفه وساقيه . ولا يحق له ان يتجر ولا ان يحترف ولا ان يحرق ارضاً فهو جندى وليس عليه ان يحمد عن مهمته بمعاطاة اي عمل كان . وليس له ان يعيش في أسرته على هواه فان الاسبارطيين يتناولون الطعام زمراً زمراً ولا يخرجون من بلادهم الا باذن وهذا يعد من باب تنظيم جيش في ديار العدو

* الایجاز في الكلام — قاسى هؤلاء المحاربون شظف العيش فكانت سمحاتهم صفيقة تقرأ فيها العجب والخيلاء وكانوا يحتزلون الكلام اختزالاً . وهذا ما يسمى بالكلام الموجز وبالافرنجية (لا كونيك نسبة لمقاطعة لا كونيا وقد بقي منها هذا التعبير) . فكانت الحكومة تبعث الى حامية على خطر من مباحثة العدو لها برسالة لا تكتب فيها سوى كلمة (الحذر) ولقد اخطر ملك الفرس جيشاً اسبارطياً ان يطرح سلاحه فاجابه القائد « تعال خذه » ولما استولى لزاندر على آثينة لم يكتب سوى هذه الجملة « سقطت آثينة » .

الموسيقى والرقص — كانت الاشغال الاسبارطية صنائع حرية يجيش . حمل الاسبارطيون معهم ضرباً من الموسيقى خاصة بهم كانت على جانب عظيم من الوار والحماسة والكراهة في الامماع وهي من ضروب الموسيقى العسكرية . فيروح الاسبارطيون الى ساحة الوعى على نفقات المزمار ويسيرون على الايقاع . ورفضهم عبارة عن استعراض قائد لجند فيرقص الرافصون الرقص العسكري المألوف ببلاد يونان المدعو بالبيريك مسلحين ويتابعون عامة حركات القتال ويشيرون بالضرب والكر والفر والطنع بالحراب .

بأس النساء — عرف النساء بتمهيس الرجال على القتال واشتهرت آثار شجاعتهم في يونان فكتبت فييا المصنفات . وقد قتل امرأة اسبارطية ولدها لغراره من الزحف قائلة « ان نهر الاوروناس لا يجري ليشرب منه الوعول » ولما علمت احدى نساء تلك البلاد ان خمسة اولاد لها هلكوا قالت ليس هذا ما اسألكم عنه فهلا كتب النصر لاسبارطة فلما اجيب بالايجاب قالت اذا فلتحمد الآله ولنشكرهم .

الترتيبات

الملوك والمجلس — للاسبارطيين اولاً كما لساائر ابناء يونان ملوك ومجلس شيوخ ودار ندوة وقد حفظت كل هذه الترتيبات ولكن من حيث الصورة فقط . فالملوك وهم من نسل المعبود هيراكليس يشرفون ويكرمون ولم حق التصدر في المواضع الاولى في المادب ويقدم لهم من الطعام ما يكفي اثنين واذا مات احد لم يلبس جميع الرعايا عليه الحداد . يد انهم لم يتركوا لهم ادنى حكم بل يراقبونهم كل المراقبة . وكان مجلس النواب مؤلفاً من

ثمانية وعشرين شيخاً منتخبين من العيال الغنية القديمة يقومون بما ندبوا اليه مدى الحياة ولكنهم لا يحكمون .

المفتشون — ان المفتشين (اينفور) هم السادة الحقيقيون في اسبارطة وهم خمسة حكام يتجدد انتخابهم كل عام ويناط بهم تقرير السلم والحرب وفصل القضايا . وهم يرافقون الملك في قيادة الجيش فيديرون حركة الاعمال الحربية وكثيراً ما يريدونه على الرجعة من الحرب وهم في العادة يستشيرون اعضاء مجلس الشيوخ ويقررون ما ينبغي باتفاق آرائهم ثم يجهعون الاسبارطيين في احدى الساحات ويطلعونهم على ما تم من القرار ويطلبون اليهم ان يصدقوا عليه اما الامة فانها تتحسم ما تم بالهتاف دون ان تناقش في اقل مسألة . ولا يعلم فيما اذا كان للامة الحق ان ترفض ما قرر وهي التي علمت الخضوع وان لا تعاند اصلاً . وكانت هذه الحكومة حكومة اشراف مؤلفة من عدة اسرات حاكمة . فمن ثم لم تكن اسبارطة بلاد مساواة وكان فيها اناس يدعون اهل المساواة وذلك لانهم كانوا سواء فيما بينهم اما غيرهم فيدعون المروؤسين ولم يكن لهم شيء من الحكم البتة .

الجيش — بفضل هذه الطريقة في الحكم احتفظ الاسبارطيون باخلاصهم الجلية القاسية فلم يكن عندهم نقاشون ولا سهندسون ولا خطباء ولا فلاسفة بل انهم انصرفوا كلهم الى الحروب وحذقوا علم الكر والفر ايماناً حذق وغدوا من المفتشين لغيرهم من اليونانيين واتوا العالم بعملين عظيمين احسن طريقة في القتال واحسن طريقة في التدريب .

المسلحون — كان اليونان قبلهم يسيرون الى القتال بغير انظام فيمتطي الزعماء صهوات الخيول او عجالات خفيفة ويتقدمون صفوف الحملات والناس يتبعونهم مشاة وقد تسلح كل منهم كما اراد وقد تفرقوا طرائق قديداً وليس في وسعهم ان يكونوا بدياً واحدة في العمل او المقاومة . وما هو الا ان يستحيل القتال الى مبارزات ثم الى مذابح . اما في اسبارطة فلمقاتلة باجمعهم سلاح واحد وكانت وسائل دفاعهم درعاً يغطي النصف الاعلى والخوذة لقي الرأس والمسامي (الطماقات) لقي الساق والتروس تحمل في مقدمة الجسد . اما وسائل هجومهم فسيوف قصيرة ورمح طويل . وبسي السلاح على هذه الصورة باسم ايبوليت . والمسلحون من الاسبارطيين مقسمون الى كتائب وسرايا وفرق وشراذم على مثال ترتيب جيوشنا لهذا العهد الا قليلاً . فكان الضابط يقود احدى هذه العصابات ويبلغ رجاله اوامر الرئيس بحيث انه يتأق للقاء العام ان يوجه حركة الجيش كله . وهذه الطريقة التي نراها سهلة هي بالنسبة لليونان ابداع عجيب .

مصاف الجيش — متى بلغ الجند مقدمة الاعداء يأخذون مصافهم ويكون في العادة

مصارعون اقوياء اشداه وجند منظم وعرفوا بهذه المزية في بلاد اليونان وكانوا من اجل ذلك يحترمون في كل مكان . ولما قضى على سائر الشعوب اليونانية ان تقاتل الفرس مجتمعاً تحت راية واحدة لم يستنكفوا من اتخاذ الاسبارطيين زعماءهم . قال خطيب آثيني وكان هذا الامر بحجة صحيحة واستحقاق تام .

آثينه

الشعب الآثيني

اتيكياء — فاخر الآثينيون لسكنائهم ابداً بلاداً واحدة وادعى اجدادهم انهم ولدوا من الرمل كالزيزان . وقد اجتاز الفاتحون من سكان الجبال بالقرب من بلادهم ولم يهاجموها وقلاً دعتهم اتيكياء الى قتالها . هذه المقاطعة مؤلفة من جبال شاهقة صخرية ناتئة في البحر على شكل مثلث الاضلاع . وهذه الصخور المشهورة بقطع رخامها وبسل نخلها جراده مرداه بينها وبين البحر ثلاثة سهول صغيرة قاحلة لا تروي (لجناف سواقيها في الصيف) ولا تقوم بتغذية امة كبيرة .

آثينه — على فرسخ من البحر في اعظم تلك السهول قامت صخرة عظيمة وحيدة منصبة وقد اُنشئت آثينه في سفحها . اما المدينة القديمة التي كانت تدعى الاكروبول (المدينة العالية) فانها كانت في قمة الجبل . وقد اخذ سكان اتيكياء ينفرون الى ممالك عديدة فكانت كل قرية تحكم نفسها بنفسها ولها ملك فجمع جميعها تحت زعامته وهو ملك آثينه فيتلأقون بذلك مدينة واحدة وليس معنى ذلك انهم كلهم يحيطون رحايم في المدينة . بل يظل كل منهم يسكن قريته ويزرع ارضه . بيد انهم كلهم عبدوا ارباباً واحدة وهي آثينه معبودة آثينه وخضعوا باجمعهم لملك واحد .

ثورات آثينه — قد رجعت آثينه فنزعت السلطة الملكية واستعاضت عنها بتسعة زعماء (اركون) يتبدلون كل عام . وانا لنجهل هذا التاريخ كل الجهل اذ لم يلقنا عن ذاك الوقت اقل كتابة نستند اليها . ويروى ان الآثينيين عاشوا قروناً في شقاق يضطهد اشراف اصحاب الاملاك (اوباتريد) العملة من اصحاب المياومات في اراضيهم وبيع الدائنون مدينهم بيع الارقاء . ولقد عهد الآثينيون حباً بتوطيد الراحة الى صولون احد حكائهم ان يسن لهم قوانين يسيرون عليها فقام بثلاث اصلاحات : اولاً تقليل قيمة السكة وهو مما سهل على المدينين ان يوفوا ما عليهم من اهن سبب . ثانياً جعل الفلاحين ملاكاً للاراضي التي يزرعونها ومن ذاك الحين صار في اتيكياء كثير من صغار اصحاب الاملاك مما لم يعمد مثله في بلاد يونانية . ثالثاً قسم السكان عامة الى اربع طبقات بحسب مداخيلهم وقضى

على كل منهم ان يؤدي الضرائب ويقوم بالخدمة العسكرية على نسبة ثروته . اما الفقراء فاعطاهم من الضرائب والخدمة . ولقد خضع الآثينيون بعد صولون الى بيزيستراس احد ابائهم العالمين العارفين ثم بدأ الاضطراب سنة ٥١٠

اصلاح كليستين - استفاد كليستين احد زعماء الاحزاب من هذه الاضطرابات فقام بثورة عظيمة . ولقد سكن كثير من القرباء في اتيكيا وكان معظمهم ملاحين وتجاراً يقطنون مدينة بيريا بالقرب من المرفأ . فاعطاهم كليستين حقوق الوطنيين وساواهم بالسكان الاقدمين فصار من ثم في تلك المقاطعة شعبان مختلفان سكان اتيكيا وسكان بيريا وكانا يتميزان احدهما عن الآخر بعد ثلاثة قرون من هذا الاختلاط باختلاف سخائهم فيشبه اهل اتيكيا سائر اليونانيين ويشبه اهل بيريا الآسيويين . وهكذا زاد الشعب الآثيني فاصبح امة جديدة ومن اكثر سكان بلاد اليونان حركة ونشاطاً حتى اذا كان القرن الخامس تألفت الهيئة الاجتماعية في آثينة تأليفها الاخير فكان ثلاث طبقات من السكان يقطنون اتيكيا والاوم الموالي والاجانب والوطنيون .

الموالي - الموالي هم السواد الاعظم من اهل البلاد فلم يكن ثمة رجل مما بلغ من الفقر المدقع الا ويملك مولى اما الاغنياء فيملكون منهم كتيبة وملك بعضهم نحو خمسمائة مولى وكان من شأن هؤلاء الموالي ان يبقوا في الدور وشغلهم الطحن والعجن وحيثما كان الثياب ونسجها وطبخ الطعام وخدمة ساداتهم . ويعمل بعضهم في المعامل حدادين وصباغين او يشتغلون في المقالع والمناجم الفضية . ويقوم سيدهم باودهم ولكنه يبيع لنفسه كل ما تنتجه ايديهم ويأتي ثمره اعمالهم ولا يعطيهم من جميع ذلك الا الطعام . فكان عامة الخدمة والعاملين في المناجم ومعظم الصناع عبيداً وارقاء . يعيشون في المجتمع دون ان يعدوا منه بل لا يتصرفون بانفسهم وهم ملك مواليتهم جسماً ومادة . ولم يعتبروا الا اعتبار عروض تملك وربما دعوم « اجساداً » وليس لهم من شريعة غير ارادة سيدهم . وليس لهم عليهم كل حق وسيطرة فان شاء شغلهم وان شاء حبسهم وان شاء حرهم من طعامهم وان شاء ضربهم واذا نشأت لاحد الوطنيين قضية يتأق لخصمه ان يطلب تعذيب مواليه ليقروا بما يعملون . وقد امتدح عدة خطباء آثينيين هذه العادة وعدوها ضرباً من ضرور الجدق لاخذ شهادة صحيحة . قال الخطيب ايزيه ان التعذيب احسن واسطة لتليل البراهين ولذلك متى كان عليك ان توضح مسألة منازعة فيها فايالك ان تعد الى الاصرار بل انك تصل الى كشف القناع عن حيا الحقيقة بحمل المبدان في العذاب الشديد .

الاجانب - هم ناس من اصول مختلفة يقيمون في اتيكيا وهم الذين يدعون الميتيكيين

(اي المساكين) . ولم يكف الرجل كما هو الحال عندنا ان يولد في ارض آثنية ليعد وطنياً بل يجب ان يكون ابن وطني . ونبشاً استوطن الطراه في اتيكيا اجيالاً كثيرة وماعدت قط اسراهم آثنية . فاليتيكيون والحالة هذه لم يكن لهم ان يشتركوا في الحكومة ولا ان يتزوجوا وطنية ولا ان يقتنوا ملكاً على حين كانوا احراراً في اشخاصهم ولم حق السفر في الجور ان يكونوا صيارف وتجاراً على شرط ان يتخذوا لم زعياً ومولى يمثلهم امام القضاء . وكان في آثنية زهاء عشرة آلاف أسرة من اليتيكيين ومعظمهم صيارف وتجار الوطنيون — اقتضت الحال ان يكون الانسان ابن وطني او وطنية ليكون وطنياً آثنياً ومضى بلغ الفتي الثامنة عشرة من عمره بعد عديم راشداً فيقف امام جموع الشعب ويدفع اليه السلاح الذي يقضى عليه حمله ويقسم يميناً فيقول : اقسم بانني لاهين هذا السلاح المقدس ولا اغادر موطني في صفوف الاعداء وان اخضع للحكام والقوانين واشرف دين وطني . فيكون بهذا الحلف وطنياً وجندياً معاً ويقضى عليه بعد ان يتخدم في الجندية الى سن الستين وله لقاء ذلك حق الجلوس في مجلس الامة والقيام بوظائف الحكومة ورمبارضي الشعب الاثيني بجمل رجل وطنياً على حين ليس هو ابن وطني ولكنه يرضى بذلك على صفة استثنائية وتوسعاً في المكرمة العظيمة . فيوافق المجلس على قبول التريب وينبغي ان ينتخبه على الاقل سنة آلاف وطني بعد تسعة ايام من هذا الاقتراع وفي جلسة ثانية وذلك في انتخاب مري . والشعب الاثيني هو كدائرة مطبقة لا يدخل فيه اعضاء جدد الا اذا رضي الاعضاء القدماء بقبوله على انهم لا يقبلون غير ابناءهم .

المجلس — يلقب الاثينيون حكومتهم بالحكومة الديمقراطية (اي حكومة الشعب) وليس هذا الشعب ما نفي به عندنا من جمهور السكان بل هو جماعة الوطنيين وخطاهه الاشراف وعددهم بين خمسة عشر الفا الى عشرين الف رجل وهم زعماء الامة بأسرها . ولهم لاه الجماعة سلطة مطلقة وكلمة عليا وهم على التحقيق ملوك آثنية فان مجلسهم يلتم ثلاث مرات في الشهر للمفاوضة والاقتراع . يجتمعون في الهواء الطلق في ساحة الينكس فيجلس الوطنيون على مقاعد من حجر ذات درجات ويقعد الحكام بازائهم على مصطبة ويفتتحون الجلسة باحتفال ديني وصلاة يصلونها ثم يملن المناادي بصوت جهوري بالمسألة التي يتناقش فيها المجلس قائلين من منكم يشترع في الكلام أولاً . ولكل وطني الحق ان يطلب ذلك . وعندما يصعد الخطباء الثير بحسب تفاوت اعمارهم ومضى تكلموا كافة يضع الرئيس المسألة المطلوبة على بساط الميث فيقتري المجلس بان يرفع اعضاؤه ايديهم ثم يصرفون .

الحاكم — لما كان الشعب حاكماً فهو يقضي في القضايا لذاته بذاته ولكل وطني بلغ

الثلاثين من عمره ان يكون من اعضاء مجلس الحكم فيجتمع الحكام في القاعات الكبرى فرقاً كل فرقة مؤلفة من خمسمائة نسمة . وفي كثير من القضايا يلتمس فرقان او ثلاث فرق من الحكام فتتألف المحكمة من جمهور يملئون ألقاؤاً ولما وخمسمائة قاض ولم يكن للآتينيين حكام كما هو الحال عندنا لرفع القضايا بل كانت هذه المهمة من وظيفة الوطني الذي يعهد اليه تجريم المجرمين . فيتمثل المدعي والمدعى عليه امام المحكمة ويخطب كل منهما خطبة لا تزيد على وقت محدّد بساعة دقايق مائة . ثم يبدأ القضاة بالمواقفة على وضع حصة يفاء او سوداء فاذا توفر للمدعي بضعة آراء (اصوات) زيادة على حصته يحكم عليه ويمرّم .

الحكام — كان الشعب الحاكم في حاجة الى مجلس لوضع المسائل موضعها من البحث والى حكام ينفذون ما يقرره ويتألف المجلس من خمسمائة وطني تصيهم القرعة حوالاً كاملاً . واذ كثر عدد الحكام خص عشرة منهم لتعبئة الجيش وقيادته وثلاثون لادارة الشؤون المالية وستون منهم يعهد اليهم خطة الحسبة من النظر في الشوارع ونظافتها والاسواق وبياعاتها والاوزان والقياسات وما يتبعها .

منعة هذه الحكومة — لم تكن السلطة في آتينة في ايدي الاغنياء والشرفاء كما كانت في اسبارطة بل كانت تقرر كل مسألة باكثرية الآراء وتتعادل الآراء فيجري انتخاب الحكام واعضاء المجلس والعمال بالقرعة . الا القواد فانهم لا ينتخبون كذلك . والوطنيون يتساوون لا من حيث الامور النظرية بل من حيث الامور العملية . ولقد قال الحكميم سقراط لاحد اهالي آتينة المتورين وكان لا يجرأ على التكلام امام الشعب « يا هذا من تخاف ؟ أمن القصارين ام من السكاكين او الممارين او الحراثين ام من السوقة والمرترقين فن هاته الطبقات يتألف المجلس » وكثيرون من هؤلاء الحكام مضطرون الى الاحتراف ليعيشوا ولم يكن في وسعهم ان يخدموا الحكومة بالمجان ولذلك عينت لهم مشاهرات واجوراً فيتناول كل وطني اجرة جلسة واحدة في المجلس او المحكمة ثلاثة فلوس او خمسة واربعين ساتيناً من سكنتا وهو القدر الذي يتأق لرجل ان يعيش به في ذاك العصر . من اجل هذا كثر الاعضاء الفقراء في هذه المجالس وجلسوا على دكايت الحكام مع الاغنياء كثفاً الى كثف ووجهاً لوجه .

الفوضيون من الشعب — لما كانت تفصل المسائل يرمتها في المجلس او المحاكم بالمناقشة فيها والقاء الخطب في مضامينها كان فصحاء القوم هم ارباب المكانة المكنية في الامة . فاعتادت هذه ان تسمع لاصوات الخطباء وان تعمل بما يسمعون وتعهّد اليهم في السفارات وان تعينهم قواداً وزعماء . ويدعى هؤلاء الرجال الفوضيين « اوزعاء العصاة » . اما

حزب الاغنياء فيضحك منهم . وقد مثل اريستوفان الشعب في احدى الروايات المزلية في صورة شيخ سخي فقال : انت غبي تصدق كل ما تسمع تسلم لاهل النفاق والدسائس يتلاعبون بك على هوام وتغيبط بالسعادة متى خطبوا فيك . وقال احدم خطابا لاحد نزاع الآفاق : انت يا هذا شقي فظ غليظ وصوتك شديد وفي بلاغتك من القمه وفي حركاتك من السرعة ما يوهلك على ما ارى الى كل ما يلزمك لحكم آثينة .

الحياة المنزلية

اخترع الآثينيون وظائف كثيرة عهد القيام بها الى فئة من الوطنيين . فكان الوطني الآثيني كالموظف والجندي في ايامنا مهتماً بالانصراف الى الاعمال العامة يصرف ايام حياته في اشهار الحرب والحكم على الشعب ويقتضي ساعاته في المجلس او في المحكمة او في الجيش وفي محال الرياضة او في السوق وكان له ابداً امرأة واولاد لان الدين يأمره بذلك ولكنه ما كان يعيش عيش البيوت .

لاولاد -- يحق للوالد عدد ما يولد له مولود ان يطرحه ويطرده خارج بيته فيموت طريقاً اذا لم يلتقطه احد ابتاء السبيل ويريه ليجعله مولى له . وانت ترى ان آثينة اتبعت في هذا خطة جماع الشعوب اليونانية . والبنات كن 'يبدن' في العراء ويطرحن خارج المنازل اكثر من البنين قال احد الخطباء المزليين ان الابن 'يربى' في الغالب ولو كان ذووه في اقصى دركات الفاقة اما الابنة فتحمل ولو كان اهلها من الغنى على جانب . فان قبل الوالد الولد بعد من الأسرة ويترك اولاً في مساكن النساء بالقرب من الام حيث يظل البنات الى ان يتزوجن اما البنون فينفصلون عن تلك البيوت في السابعة من عمرهم فيسلم الطفل الآثيني الى المربي الذي يعهد اليه تعليمه وتحسين هيئته والخضوع والطاعة وكثيراً ما يكون المعلم من طبقة الموالى الا ان والد الطفل جعله في حل من غريب ابنه . وهذه كانت عادة عامة في القديم . ثم يذهب الولد الى الكتاب يتعلم القراءة والكتابة والحساب وانشاد الاشعار والغنى مع جماعة الموسيقيين على نغمات المزمار ثم يأخذ في تعلم الالعب الرياضية وهذه غاية ما يتعلمه الولد فيجئ من هذا التعليم من ابتاء الآثينيين رجال صحيحة اجسامهم هادئة افكارهم يدعوم اليونانيون اهل الصلاح والجمال . اما الفتاة فتظل بالقرب من امها لا تتعلم شيئاً . ويذهبون الى انه يكفي الابنة الآثينية ان تحسن الخضوع وتثبت باهداب الطاعة . وقد مثل كسينوفان احد اغنياء الآثينيين المذهبيين وهو يخاطب الحكيم سقراطاً في شأن زوجه قال : لم تكذبني الخامة عشرة حتى تزوجتها وقد كان ذووها جعلوها الى ذاك العهد تحت المراقبة الشديدة وارادوا ان لا تبقى وتعيش ولا نسمع

شيئاً على التقريب مما اهلها لان تكون امرأة تحسن نسج الصوف وتصنع منها ثياباً ورأت باي الطرق يستخدم الاماء والخادومات . ولما اقترح عليها زوجها ان تكون شريكة في حياته اجابته مدعوشة : على اي امر أعينك وهل انا قادرة على شي . ؟ فلطالما قالت لي أمي ان شأني الخاص بي ان اكون عاقلة . فعنى كون المرأة عاقلة ان تخضع وهذه هي الفضيلة التي تطلب الى المرأة اليونانية .

الزواج — تزوج الفتاة في الخامسة عشرة من سنها واهلها يختارون لها زوجها فيكون تارة شاباً من أسرة قريبة او رجلاً طاعناً في السن من اصدقاء والدعا ولا يمدو ابدان ان يكون وطنياً آثيناً وقد تعرفه الفتاة من قبل في بعض الاحوال وما قط أخذ رأيها في معنى زواجها . ولما تكلم المؤرخ هيرودتس عن احد ابناء يونان قال : ان كالياس هذا جدير بان يتكلم المتكلمون في امره للخطبة التي يسلكها مع بناته فانهن متى صلحن للزواج يفعلن من المال شيئاً كثيراً ويسمح لهن باختيار ازواج لهن من ابناء الامة ويزوجهن بمن يتخبنهم النساء — كان في داخل كل بيت أثيني مسكن منفزل خاص بالنساء يدعى الحرم ولا يختلف الى هذا المسكن غير الزوج والانساء وتبقى فيه ربة البيت دائماً مع صويحباتها وامائها ترأب اعمالهن وتلقنهن اصول تدبير المنازل وتوزع بينهن الصوف ليحكنه وهي تشغل نفسها بحياكة الثياب ايضاً . وقلما كانت تخرج من دارها الا في الاعياد الدينية ولا تظهر في مجتمعات الرجال قط . قال الخطيب اريس : حقاً انه لم يكن لاحد ان يجرأ على الفداء عند امرأة مزوجة فان النساء للزوجات لا يخرجن لتناول الطعام مع الرجال ولا يسمعن لانفسهن ان يأكلن مع الغرباء وغير المحارم . وما كانت المرأة التي تخالط الرجال معدودة في جملة النساء المحتشمت المبهذبات . وهكذا لم تكن المرأة وهي على حالها من الاعتزال والجهل ذات عشرة مقبولة فيتزوج بها الرجل لا لتكون شريكة حياته بل لقوم بأمر يته وتلد له اولاداً ولان العادة والدين عند اليونانيين يقضيان بان يكون للمرأة حليلة . وقال افلاطون اذا تزوج المتزوج فليس برضاء وذوقه السلم بل لان الشريعة تقضي عليه بذلك . وقال مياندر الشاعر الهزلي هذه العبارة : اذا شئت التحقيق فقل ان الزواج شر ولكنه شر لا مناص منه . ولذا كان ابدان النساء في آثينة كما في معظم المدن اليونانية مقام وضع في المجتمع .

الحروب المادية

سببها — يينا كان اليونان آخذين في تنظيم مدنها كان ملك الفرس يجمع شتات بلاد الشرق كافة تحت لواء واحد . ولقد تقابل اليونان والمشاركة وكان المصاف يهنم لاول

الامر في آسيا الصغرى . وكان على شاطئ آسيا مستعمرات يونانية غنية ماهولة فطمع قورش ملك فارس في ضمها الى بلاده فبعثت تلك المستعمرات تستجد بالاسباطيين وقد اشتهروا بانهم اجرا ابناء اليونان وانفروا بذلك قورش فاجابهم بقوله : انني ما خشيت قط هذا الضرب من الناس الذين يجتمعون في ساحة وسط مدنها ليخدع بعضهم بعضاً بالايمان واليهود (كلامه على ساحة السوق) فغلب ابناء اليونان في آسيا واصبحوا رعايا ذاك الخاقان الاعظم . وبعد ثلاثين سنة تقابل الملك دارا مع يونان اوربا ولكنهم ظهروا عليه هذه المرة فارسل الآثينيون عشرين سفينة على الايونيين العصاة فدخل جندهم في ليديا واستولوا عتوة على مدينة ساردس عاصمة ليديا واحرقوها . فانتقم دارا عن ذلك بان خرب المدن اليونانية في آسيا ولم يبق على يونان اوربا . وقيل انه امر ان يتحمل لديه ضابط في كل مأدبة يكرر على مسامعه قوله : مولاي تذكر الآثينيين . وقد بعث الى المدن اليونانية يطلب تراباً وماء . وهذه الاشارة الشائعة عند الفرس كانت دلالة على ان شعباً يخضع بلاده لسلطة الخاقان الاعظم فاوجس معظم اليونانيين خيفة واستسلموا خاضعين باخمين فطرح الاسباطيون المتدوين من الفرس في بثر قائلين لم ان ياخذوا منها ماء وتراباً يحملونها الي ملكهم . وهذه كانت فاتحة الحروب المادية .

مبادلة الخصمين — ان التباين بين هذين العالمين التجاريين قد اشار اليه هيرودس احسن اشارة في صورة محاورة بين كسيركيس ملك الملوك وديمارات احد المنفيين من الاسباطيين فقال هذا : اتجاسر ان اؤكد لك ان الاسباطيين يعلنون عليك حرباً حتى ولو انحاز سائر ابناء يونان كافة الى حزبك ولوم يبلغ جيشهم الف رجل . فاجاب كسيركيس ضاحكاً وليت شعري هل في وسع الف رجل ان يشهروا حرباً على هذا الجيش الكثير العدد والعدد واني لاخشى ان يكون في كلامك تمذلق كثير . وهب ان عددهم خمسة آلاف فيجن زهاء الف لقاء واحد . فلو كان لم زعيم مثلنا فان الخوف يحمسهم ويزيد نفوسهم مضاء فيزحفون بضرب السياط على جيوش اكثر منهم حصاً وعدداً . واذا انهزم احرار لا علاقة لم باحد فليس لم من الشجاعة اكثر مما خصتهم به الفطرة . يقول ديمارات ان ليس الاسباطيون دون غيرهم في حرب يتلاقى فيه القهارون جسداً لجسد حتى اذا انفضوا بعضهم الى بعض صاروا جيشاً برأسه ومن اشجع الناس وامضام . وقصارى القول فانهم وان كانوا احراراً في الظاهر ليسوا كذلك في سائر شؤونهم فلم حاكم مطلق ألا وهو « القانون » فهم يخافونه كثيراً ويهربون بأسه اكثر من رهبة رعايانا لك . يطيعونه والقانون يأمرهم ان يثبتوا في مصافهم ابداً الى ان يظلبوا او يموتوا — اليك حال هذين

الحزبين احدهما مع الآخر قترى من جهة عدداً عديداً من الرعايا تقسم القوة بزعامة رئيس
ذي هوى وشهوات . ومن جهة ثانية جمهوريات صغرى محاربة يحكم ابناءؤها انفسهم بانفسهم
بقوانين يحتفظون بها ويرعونها .

الحرب المادية الاولى - نشبت حربان ماديّتان كانت الاولى بمثابة حملة على آثينة
فارسل دارا ستائة سفينة أنزلت جيشاً فارسياً في سهل ماراثون الصغير على سبع ساعات
من آثينة . ولقد كان دين الاسبارطيين يحظر عليهم ان يسيروا قبل ان يكون الهلال بدرأ
وكان القمر اذ ذلك في الربع الاول فقضي على الآثينيين ان يحاربوا وحدهم فجاء عشرة
آلاف من الوطنيين مسلحين سلاح الابطال واقاموا لهم معسكراً امام صفوف الفرس بقيادة
عشرة قواد يتنابها كل منهم يوماً حتى اذا كانت نوبة القيادة للمتيادس عبي جيشه للحرب
فهاجم الآثينيون صفوف الاعداء على صفوف مشتبكة فلما رآهم الفرس اقتربوا منهم ولم يعملوا
في مقدمتهم فرساناً ولا دارعين فلنهم جنوا واضاعوا رشدهم . وهذه هي المرة الاولى التي
جسر فيها اليونان على اقتحام صفوف الفرس في حرب منظمة . ففلق الآثينيون يحملون على
جناحي الجيش ويمزقونه كل ممزق ثم رجعوا الى القلب وحملوا الفرس على الهزيمة نحو البحر
واضطروهم الى معاودة ركوبه . وكانت من نصرة اليونان في حرب ماراثون ان اتقدتهم
واطارت صيتهم في ارض يونان كلها (٤٩٠)

حرب مادي الثانية - - نشبت الحرب بعد عشر سنين بغارة تجمع كسيركيس بن دارا
شعوب بلاده كلهم ويقال ان جيشه البري بلغ مليوناً وسبعائة الف مقاتل مؤلفاً من ماديّين
وفرس لاسبين قصاصاً ذات اكمام مسلحين بدروع من حديد وانراس واقواس وسهام ومن
اشوريين بلبسون دروعاً من كتان مسلحين بدبابيس معددة الرؤوس ومن هندوديلسون ثياباً
قطنية يحملون اقواساً ونبالاً من خيزران ومن زنوج بلبسون جلد الثور ومن قبائل رحالة
ليس لهم سلاح الا ما كان من جبل ذي أنشوطه ومن فرجيين مسلحين بحراب قصيرة وانراس
صغيرة ومن ليديين مجهزين على الطريقة اليونانية ومن تراكسيين يحملون حراباً ومضى
وقد شغل تعداد صفات هذا الجيش عشرين فصلاً في تاريخ هيرودتس . وكان هؤلاء
المحاربون يمحرون وراءهم جموعاً توازي الجموع المدربة على القتال من خدمة للجيش وموالي
من النساء وكثير من البغال والخيول والجمال والعجلات المشحونة بالاثقال ولقد اجتاز هؤلاء
الاخلاط هيلسون على جسر قائم من مراكب في ربيع سنة ٤٨١ وظلوا يتابعون سيرهم سبعة
ايام بلياليها تحت ضرب السياط ثم اجتازوا تراكسيا وساروا على بلاد يونان يمحرون بالقوة
وراءهم من يصادفونه من الشعوب فكان الاسطول الفارسي وهو مؤلف من الف ومائتي

سفينة حربية يمشي على شواطئ، تراكسيا مجتازاً ترعة جبل اتوس الذي خرقه كسيركيس عمداً . فدخل العرب في قلوب اليونانيين وخضع معظمهم لخاقان الفرس فقصموا جندهم الى الجيش الفارسي . وراح الآثينيون يستشيرون هاتف دلفيس فاجابهم اولاً ان آثينة تخرب ويكون عالمها سافلاً حتى اذا نصرعوا اليه ان يجيبهم بجواب يبعث على الطمأنينة رد عليهم بقوله : ان زيوس ينج بالاس (حامية آثينة) جداراً من خشب لا يتأثر الاستيلاء عليه وحده وانكم لتجدون فيه سلامتكم انتم وبنوكم . ولقد حث العرافون الذين طلبوا اليهم ان يفسروا كلام هذا الهاتف جماعة الآثينيين على مغادرة اتيكيا وان يذهبوا ليستوطنوا مكاناً آخر . وفسرتمستوكلس جدار الخشب بالمراكب . فقضت الحال اذا ان يرجعوا على الاسطول ويحاربوا الفرس في البحر .

واذ قد عزم اهل آثينة واسبارطة على المقاومة اخذوا يبحنون في تأليف عصابة من اليونان للحكم على الفرس فاجترأت بعض المدن على الدخول في هذه العصابة وانضموا تحت قيادة اسبارطة ولما نشبت اربع حروب في عام واحد قرروا القتال فسحق الفرس ليونيداس ملك اسبارطة في الترمويل وكان معسكراً اسد فم احد المضائق وضرب الاسطول اليوناني الاسطول الفارسي في سلامينة وكان هذا مجتهداً في خليج يزعم بعضه بعضاً (٤٨٠) وبدد ابطال اليونان في بلاتيه الجيش الفارسي الذي بقي في بلاد اليونان ولم ينج من ثلثائة الف رجل سوى اربعين الفا وتزل في ذاك اليوم جيش يوناني في ميكال على شاطئ آسيا وهزم الفرس (٤٧٩) وهكذا غلب اليونان الخاقان الاعظم صاحب فارس .

سبب نصرة اليونان — لم تكن حرب مادي حرباً وطنية بين يونان وبرايرة بل كان يونان آسيا ونصف يونان اوروبا يقاتلون في الجيش الفارسي ولم يحصر كثيرون من ابناء جنسهم على ابداء اقل حركة . وكان الخاقان الاعظم ورعاياه الذين حاربوا اسبارطة وآثينة ومن حالقها في الحقيقة . فكان من خوارق العادات ان يغلب هذان الشعبان الصغيران ذاك الخليط العظيم من الفرس . وزعم اليونانيون ان الالهة قاتلوا عنهم ومتى درست احوال الخصمين عن أم بطل عجبك . فقد كان الجيش الفارسي جسيماً فظن كسيركيس على سذاجة قلبه ان النصر معقد اللواء بكثرة العدد بيد ان هذه الجموع كانت مرتبكة من نفسها ولم تدر من اين تأخذ ذخيرتها وتقدم تقدماً بطيئاً ويضيق ذرعها من اول يوم الحرب حتى ان السفن المزدحمة كانت تفرز طرف مقدما في السفن المحيطة بها وتحطم لما مجاذيفها ثم ان في ذاك الهاء الغفير كما يقول هيرودتس كثيراً من الناس وقليلاً من الجند . ولم يكن غير الفرس والماديين وهم خيرة الجيش يقاتلون بشدة اما غيرهم فلم يكونوا

يزحفون الى العدو الا اذا انتهالت السياط عليهم وقد جاؤا بسيف القوة والقهر الى حرب لا يهضم امرها ولا سلاح لديهم ولا نظام في مصافهم فعم لا يلبثون ان يركنوا الى الفرار بمجرد ان تغيب اعين الحراس عنهم . وثقاتل الماديون والفرس وحدهم في بلاتيه وميكال ونجا الرعايا . وكان الجند الفارسي سيء النظام والعدة يلبس ثياباً طويلة وقد وقيت رؤوسهم بقلنسوة من لباد وحفظت اجسامهم اتراس من شجر الصنصاف والخلاف وسلاحهم قوس ومديّة وحربة قصيرة جداً ولم يكونوا يستطيعون القتال الا بيمينين ويقابل الرجل رجلاً مثله . اما الاسبارطيون والمقدون معهم بعقد الخدافة فكانوا على عكس ذلك تقيم التروس العظيمة والخوذ وقايات السوق ويسرون جموعاً مشتبكة لا تقاوم يخرفون صفوف العدو بجراهم الطويلة وما هو باسرع من رد الطرف حتى نصير الحرب ملحمة كبرى ومذمجة تباع فيها الارواح ببيع السماح .

نتائج الحروب المادية — قادت اسبارطة الجيوش ولكن كما قال هيرودتس كانت آثينة هي التي انتقدت اليونانية بان كانت لها مثلاً في المقاومة . فالتت اسطول سلامينة وقد استفادت آثينة من هذه الصرة اما المدن الايونية من الجزر وشاطيء آسيا جنة واحدة فقد ثارت ومردت والتت عصاة تباعيت فيها على الموت في سبيل الدود عن اوطانها من مهاجمة الفرس . واما الاسبارطيون وهم شعوب جبلية فلما لم يستطيعوا ان يدبروا حرباً انصرفوا راجعين ادراجهم فاصبح الآثينيون اذ ذاك زعماء المصاية . وفي عام ٤٧٦ جمع اريستدس قائد اسطولهم نواب المدن المتحالفة فقر رأيهم على متابعة حرب الخاقان الاعظم ونامروا بينهم على تقديم سفن ومحاربين وان يؤدوا كل سنة قطعة من المال قدرها ٤٦٠ تالاناً (اسيه مليوناً وسبعائة الف فرنك) وجعلت الخزانة بمدينة ديبوس في معبد ابولون معبود الايونيين وكان عهد الى آثينة ان تقود الجيوش وتجي القطائع . وقد اتى اريستدس في البحر قطعة من الحديد المحمي واقسموا كلهم ان يحتفظوا جميعاً بالعبود الى يوم تطفو هذه الحديدية على سطح الماء وذلك حباً بتأكيد العهد ونفادياً من نقض عيّن الاخلاص .

وقد حدث مع هذا ان الحرب وقفت وعقد اليونان — وكان النصر اليك الونيم ابداً — معاهدة سلمية او هدنة مع الخاقان الاعظم فابى الملك ان يعد يونان آسيانم رعاياه (نحو سنة ٤٤٩) . وهنا سؤال يورد في هذا الباب وهو كيف انتهت معاهدة اريستدس وهل كان على المدن المتحدة ان تؤدي القطائع على حين ليس عليها ان تقاتل بعد فابى بعضها ذلك حتى قبل انب أطفئت نار الحرب . وزعمت آثينة ان المدن كانت أخذت على انفسها العهد على الدهر فاضطرتها الى ان تؤدي ما يطلب اليها . حتى اذا وضعت الحرب

اوزارها لم تجدر خزنة ديلوس قليلاً ولذلك نقلها الآثينيون الى مدينتهم واستخدموها في
ابشاء المصانع والمعاهد . ولطالما كانوا يقولون ان المتحدين يؤدور ما يتقاضونه من الضرائب
للتخلص من ايدي الفرس فمن ثم لم يكن لهم ما يطالبون به بته ما دامت آثينة تدفع عنهم
عادية الخلقان الاعظم . وهذا مما غير حالة التتائين فصاروا ملزمين بدفع الضرائب لآثينة
وما عثموا ان امسوا رعاياها فزادت آثينة في قذائهم واكرهت مواطنيهم على التثول امام المحاكم
الآثينية بل قد انفذت بطواريء من قبلها ليستعمروا جانباً من ارضهم وبهذا النظر اصحت
آثينة ام القرى تحكم زهاء ثلثمائة مدينة متفرقة في الجزر وشواطئ الارخبيل ونحيي قطيعة
قدرها ستائة تالان في كل سنة .

الصنائع في بلاد اليونان

آثينة على عهد الامبراطور بيركليس

بيركليس — كانت آثينة في منتصف القرن الخامس من اقدر المدن اليونانية يدير
امرها بيركليس احد ابناء الاسرات العظيمة وكان مقلداً من الكلام غير متبدل في شخصه ولم
يكن يتوقع في اعماله رضى الامة بل كان الآثينيون يحترمونه ولا يجرون الا على نصائحه
وهو معروف بانه متمكن من شؤون الادارة ومعرفة البلاد ولذلك دخلوا تحت سيطرته وحكمه
فادار سياسة آثينة كلها اربعين سنة كما قال معاصره توسيديس المؤرخ : ان الحكومة
الديمقراطية كانت موجودة بالاسم بل كانت تلك الحكومة حكومة الوطني الاولى على التحقيق
آثينة ومصلحتها — كانت منازل القوم الخاصة في آثينة كما في معظم المدن اليونانية
ضيقة واطنة متراكمة بعضها على بعض يكون منها ازقة ضيقة منعطفة سيئة التبليط . وقد
جعل الآثينيون عظمتهم في معالم العامة . فنذ اخذوا يجربون من محالقيم قطائع لتصرف في
سبيل الحروب كانوا ينفقون النفقات الطائلة في اقامة ابنية جميلة فعمروا في ساحة احد
الشوارع رواقاً مزيناً بالصور (الفيسيل) وانشوا في المدينة دار تمثيل ومعبد اكراماً لتيزيس
احد اطاليم واوديون معبد الشعر والموسيقى وذلك للمساقة في هذا العلم . ولكن قامت اجمل
المباني على صحرة الاكروبول كأنها على قاعدة هائلة وهما معبدان (احدهما وهو البارثينون
جعل قربى للمعبودة آثينة حامية مدينة آثينة) والاخر هيكل ضخم من القلزمثل آثينة وسلم من
الآثار الجليلة يصل الى البروبيلي ورواق الرخام في آثينة . ومن ذاك العهد كانت آثينة
اجمل بلاد اليونانية وانصرها .

عظمة آثينة — ومع ما خصت به آثينة من الصفات المشار اليها كانت ايضا مدينة اهل
الصنائع فقد حشر اليها الشعراء والخطباء والمهندسون والمصورون والنقاشون وكان بعضهم

من اهل آثينة ووجهائها وجاءها البعض الآخر من اطراف ارض يونان يحملون الى تلك المدينة العظيمة نتائج صناعاتهم وطرف طرائفهم . لا جرم انه نبيغ كثير من ارباب الصنائع اليونان لم يكونوا من اهل مدينة آثينة وذلك قبل القرن الخامس وبعده بكثير من الزمن ولكن قل ان اجتمع هذا القدر العظيم من ارباب الصنائع في مدينة واحدة ولقد كان معظم اليونانيين من اكيرس ارباب المعارف في الصنائع وموادها بيد ان الاثينيين فاقوا غيرهم بحسن ذوقهم وصنع ايديهم وامتازوا بقول مثقفة ورغبة في الطرف وآثار الظرف واللفظ . ولئن جاء من ابناء يونان امة رفيعة القدر عالية المكانة في تاريخ الحضارة فذلك لانها امة تحسن ملكة الصنائع فلا جيوشهم القليلة ولا بلادهم الصغيرة الرقعة خدمت العالم والعمران خدمة اعظم من خدمة صنائعهم لها . فاليك السبب الذي من اجله كان القرن الخامس اجمل عهد في تاريخ يونان والداعي الى ان جعل آثينة تستأثر بفضل الشهرة اكثر من غيرها من المدن اليونانية .

الآداب

الخطباء — امتازت آثينة اولاً ببلاغة خطبائها فكانت حقاً بلداً للآداب وحسن الالقاء فباخطب في مجلس الامة يقرر اشهار الحروب وعقد السلم ووضع القطائع والضرائب وكل الشؤون العظيمة وبالخطب التي تلقى في المحاكم يحكم على الوطنيين والراعي او يبرؤون فللخطباء السلطة وعلى الامة ان تعمل بنصائحهم ومواعظهم وربما عيحت اليم بادارة شؤون المملكة فقد عين كليون قائداً ورأس ديموستين الخطيب حرب فيليب وللخطباء نفوذ وكثيراً ما يلجؤون الى بلاغة القول لتليل من عدائهم في سياستهم ورمما اعتنوا لانهم ينالون من ارباب القبايات ما يرضيهم من المال ليعضدوا احد الاحزاب . فقد اخذ اشيل مالا من ككودونيا وقبض ديموستين دراهم من ملك الفرس .

ثم ان بعض الخطباء ينشئون خطباً ليلقيها غيرهم . ولا يدع لمن كانت له قضية ان يرفعها بواسطة محام كما هو الحال عندنا بل تقضي شريعة البلاد ان يتكلم صاحب القضية في قضيته بالذات . فمن ثم كان عليه ان يروح الى احد الخطباء يلتمس منه تأليف خطاب له يستظهره ليتلوه امام المحكمة . ولطالما جاب بعض الخطباء بلاد يونان وتكلموا في موضوعات توحيا اليم الخيالية فاقاموا لهم كما تقول مقامات وعقدوا اندية ومؤتمرات (١) وكان قداماء الخطباء يتكلمون بدون تصنع مقنصرين على ان يقصوا على المنابر الكواثر بدون ان يعمدوا الى اساليب خطاية فيقفون في المنبر لا حراك لهم دون ان يصرخوا او يفرحوا وكان الملك

(١) اشتهر عشرة من هؤلاء الخطباء خاصة فدعوا خطباء اتيكيا العشرة

بيركليس بخطبه على طريقة هادئة دون ان يحرك اهداب رداؤه وعند ما كان يقف في منبر الخطابة وقد تكامل رأسه حسب العادة بأوراق الشجر يزعم الشعب انه يتخذها من ارباب الاوليا ولكن الخطباء الذين جاؤا بعد ذلك طعموا في اثارة الامة وتحريك احساسها والنفوذ الى شعورها واصطلحوا على الانشاء المتين يروحون في المنبر ويفدون منشدتين مقررتين . وما عمت الامة ان اعتادت هذا الاسلوب في الفصاحة . ولما اخذ ديموستين يتكلم في منبر الخطابة للمرة الاولى طفق الحضور يقهقون ويفضحون من اسلوبه اذ لم يكن يحسن التلفظ ولا الوقوف ثم ما لبث ان مرن على الالتقاء واحسان الحركات المطلوبة حتى صار نديم الشعب وعزيزه . دبت الايام ودرجت الليالي وديموستين خطيب في امته . وقد سئل بعد عن اول صفة في الخطيب فاجاب بانها العمل ثم سئل ثانية فقال العمل ثم سئل ثالثة فقال العمل . ومعنى العمل طريقة الالتقاء فانها كانت تهم اليونان اكثر من الخطبة .

الحكام — كان منذ قرون عند يونان آسيا خاصة اناس يراقبون المادة ويفكرون في امرها لقبوا بالحكام والعلماء في آن واحد وقد عُنوا بالطبيعات والفلك والتاريخ الطبيعي اذ لم يكن العلم قد انفصل بعد عن الفلسفة وهكذا كان حال مشاهير الحكماء السبعة ببلاد يونان في القرن السابع .

السفسطائيون — جاء ناس على قرب عصر بيركليس الى آثينة فاتخذوا تعليم الحكمة صناعة واجتمع لهم كثير من التلاميذ انشؤا ينقاضونهم أجور الدروس التي يلقونها . وجعلوا ديدنهم الانكار على الدين والمعادات واصول ادارة المدن اليونانية يوهمون انها غير مبنية على العقل . وبأخذون من ذلك ان المرء لا يعرف شيئاً صحيحاً (مما كان قريباً من الصواب في عهدهم) وليس في طاقته ان يعرف امراً صدقاً كان اوزوراً اقال احدهم : لا وجو . لامرومقي وجد صعبت معرفته . ويدعى هؤلاء المتعلمون للتشكيك بالسفسطائيين . وقد خص بعضهم بملكة الخطابة .

سقراط والفلاسفة — حاول سقراط احد شيوخ آثينة ان ينكر على السفسطائيين ووقفهم عند حدم على فقر حاله وبشاعة منظره ولكنة لسانه ولم تكن له دروس يلقها كاولئك السفسطائيين بل يكتفي بالرواح الى المدينة يخاطب من يصادفهم من جماعتهم بكثرة ويحملهم بكثرة الاسئلة على ان يفكروا فيما ينكر فيه بنفسه . وكان يجته مع الفتيان خاصة يعلمهم وينصح لهم . ولم يكن يظهر سقراط انه شدا شيئاً من العلم بل كان يقول ان غايته علي اني ادري بانني لا ادري . وود لو دعي فيلسوفا اي محبا للحكمة لا حكماً كسائر تلك

الامر . ولم يتدبر شيئاً من طبيعة الكون او مسألة من مسائل العالم بل كانت همه دراسة احوال الانسان . وكانت حكيمته في قوله : اعرف نفسك . فكان من ثم مبشراً بالفضيلة . واذ انه كثيراً ما كان يخوض في الموضوعات الاخلاقية والدينية عدة الاثنيون سفسطائياً . وفي سنة ٣٩٩ مثل امام المحكمة متهماً بأنه يتحافى عن عبادة ارباب المدينة وانه يحاول ادخال ارباب جديدة اليها ويفسد على الشبان عقائدهم فلم يحاول ان يدافع عن نفسه بل حكم عليه بالموت وكانت سنة اذ ذاك سبعين سنة فانتصر له كسينوفون احد تلاميذه . والف افلاطون من الفلاسفة محاورات اقام فيها سقراط زعيم المتحاورين فاعتبر من ذاك المهذباً للفلسفة اما افلاطون فقد كان صاحب مذهب معروف (٤٢٩ - ٣٤٨) وخلص ارسطو تلميذ افلاطون (٣٨٤ - ٣٢٢) علوم عصره كافة في كتبه وقد انقسم الفلاسفة الذين اتوا بعد المعلمين ارسطو وافلاطون قسمين دعيت شيعة افلاطون بالرواقيين وشيعة ارسطو بالشائين (لان ارسطو كان يعلم وهو يروح ويفدو)

الموسيقيون — كان من العادات القديمة ان يرقص القوم في حفلات الدينية فيمهر جمهور من الفتيان حول مذبح المعبود ثم يرجعون واقفين كالأشراف وقفة ذات معانٍ وإشارات . اذ كان القدماء يرقصون بأجسادهم كلها ويختلف رقصهم كثيراً عن رقصنا وهو ضرب من التطواف الحماسي واشبه برواية ذات ايمان وكان هذا الرقص الديني ابداً مشفوعاً بأغان تعظيماً للارباب ويسمى جمهور الراقصين والناغين جماعة الموسيقيين . وللمدن كلها جماعة من الموسيقيين ومنهم أبناء اشراف العيال يعدون كذلك بعد ان يستعدوا زمناً . ومن فرط العناية ان يكون خدمة الرب جديرين بخدمته .

الروايات الفاجعات والمزليات — كان يحتفل الفتيان في الارياض المجاورة لآبنة كل عام بأقامة المرافص الدينية اكراماً للرب ديونيزوس اله الكرمة وكان بعض هذا الرقص متشاقلاً يمثل اعمال المعبود فيضرب رئيس جماعة الموسيقيين على وتر أغنية ديونيزوس ويصور جوفه رفاقه وهم اناس لم ارجل تيوس يسكنون الغابات ثم يأخذون في تمثيل عيش ارباب أخر وابطال قدماء . ثم خطر لاحد ان ينصب مصطبة يجيء مثل يلعب عليها عند ما يقطع جوق الموسيقى عن الضرب بانغامه . وهكذا تم المشهد ونقل الى المدينة بالقرب من شجر الحور الفارسي او مجتمع السوق فذات من ذلك الروايات الفاجعات .

اما الرقص الآخر فكان مضحكاً فينكر الراقصون وجوههم ويتغنون بمدائح الرب يونيزوس وقد شاربوها باضاحيك يسلمون بها الحضور او بتصورات هزلية في حوادث حدثت ذاك اليوم . وقد صنع في الجوق الهزلي ما صنع في الجوق المنيع من ادخال ممثلين

ومحاورات ونقل المشهد الى آتينة وهكذا نشأت الروايات الهزلية (الكوميديا) من اجل هذا كانت الروايات الفاجعة تمثل الى يوم الناس هذا ابطلاً اما الروايات الهزلية فتحتل حياة كل يوم واحتفظت الفاجعات (المأساة) والهزليات ببعض اصلها وظلت تمثل امام هيكل الرب وان تكن فاجعة ولئن غدا المثلون وهم جلوس على المصطبة اصحاب موقع في المشهد فقد ظل جوق التمثيل يرقص ويتغنى وهو يطوف حول المذبح وكان جماعة الموسيقيين في الروايات الهزلية كما كان يجي المتكبرون يبدون ملاحظاتهم على السياسة بغلظة .

الملاهي — جعل في منحدر قلعة الاكروبول ملعب للرب ديونيزوس اله الكروية يسع ثلاثين الف متفرج وذلك ليحضر الاثينيون كافة هذه المشاهد . وكان هذا الملعب كسائر الملاعب اليونانية مكشوفاً تحت السماء ومولفاً من دريجات من الحجر مصفوفة على شكل نصف دائرة بازاء جماعة الموسيقى حيث كان يطوف المنشدون وامام المشهد الذي تمثل فيه الرواية . ولا تقام المشاهد فيه الا في اوقات اعياد الارباب بيد ان المشاهد كانت تدوم اذ ذاك عدة ايام متوالية يبدأون في الصباح عند بزوغ الغزاة ويمثلون للحال ثلاث فاجعات وقصة هجومية تنتهي على ضوء المشاعل من الليل والفاجعات الثلاث يؤلفها واحد وتمثل فاجعات اخرى في الايام التالية وهكذا كان المشهد ميدان مسابقة بين الشعراء والامة تعطيهم جوائز الاستحسان واشهر هؤلاء المتبارين اشيل وسوفلس واريدس . وقد عهدت المسابقة ايضاً بين مؤلفي الروايات الهزلية ولم يؤثر من كل ما القوه من الروايات غير قطعة واحدة القها ارستوفان الشاعر الهزلي .

الصنائع اليونانية

المعابد اليونانية — قامت اجمل المباني في اليونان تعظيماً للارباب فتمت ذكرت هندسة اليونان فلا يذهب الفكر الا الى معابدهم . وليس المعبد اليوناني كالبينة النصرانية خاصاً بقبول المؤمنين الذين يهرعون الى الصلاة فيها بل هو قصر ينزله الرب وتمثاله يمثل قصر تحفه الالهة والجلالة ولا يلجئه جمهور المؤمنين بل يطلون خارجه حوالى مذبح تحت السماء وقد قامت مقصورة الرب في وسط المعبد وهو مزار سري لا نافذة له ولا ضوء ينفذ اليه الا ما كان من كوى في الاعالي . وقام الصنم في داخله معمولاً من خشب اورخام او عاج لابساً ذهباً محلى بالثياب والحلي وكثيراً ما يكون هيكلًا عظيمًا . وقد تمثل زيوس في معبد الاوليا قاعدًا ويكاد يصل رأسه الى القمة ولذا قيل ان الرب لو تمثل قائماً لخرق السقف وقد حجب هذا المزار عن الانظار من كل ناحية وهو عبارة عن مستودع ذخائر الصنم ويمتاز من يروم دخوله ضرباً من الرواق مولفاً من صفوف من السواري . ووراء الغرفة غرفة

عشرة صفوف وكانت جيوشهم في كل مكان في أمبنتها نمطاً واحداً تؤلف مثلثاً ذا زاوية قائمة مستطيلة ورقيقة فكانوا اذا حمل جندهم على العدو يشعرون بان تروسهم المعلقة على اذرعهم الشمال تحميهم من اليسار ومن اليمين صفوف رفاقهم يحمون المينة بالطبع بحيث ان الجناح الايمن من الكتيبة يشعر بانه اقوى ما يكون في العادة . فتخيل ايپامينوداس ان يعي رجاله على شكل زاوية قائمة مؤلفة على طولها من صفوف متساوية في عددها بل ان يضع في الجناح الايسر صفوفاً اكثر من الايمن فلأخذ الكتيبة شكلاً غير متناسب يشبه شكل زاوية قائمة . فيكون الجناح الايسر اضعف من الايمن ومؤلفاً من احسن المحاربين يحمل حملة منكراً على جناح العدو الذي يكون اضعف منه فينكس وسط جيش العدو ويأخذه من جنبه فدافع الثيبون عن بلادهم باديء بدء من الجيش الاسبارطي الذي بقي يدام ييوسيا في ربيع كل سنة اعواماً كثيرة ويقطع الشجر ويحرق الغلات ولم يحسر ان يقاوم قتالاً منظماً بل كانت غاراته مناوشات فقويت شكيتهم وتمرسوا في الحرب . رأى ايپامينوداس ان جيشه قد اعتاد قراع الابطال وقوي ساعده في حومة التزال وكانت الرجلة من جند الاسبارطين اصطفت على عمق اثني عشر مقاتلاً بالقرب من لوكرس وكانت رجالة الثيبين اقل وفرسانهم اكثر « لان ييوسيا كانت بلاداً تربي فيها الخيول الجياد » فاستطاع ايپامينوداس ان يحمي الميسرة وكان من ذلك ان اختصر خط الحرب وحمل الجناح الايسر من جيشه وكان مؤلفاً من خمسين حفاً قبد شمل الجناح الايمن من الاسبارطين حيث كان الملك واقفاً فقتل « (٣٧١) » وهذه كانت المرة الاولى التي تغلب فيها جيش يوناني على جيش اسبارطي واسمحت ثيبة المدينة المقدسة اكثر من جميع مدن يونان وصارت لما الامرة على ييوسيا كلها وكانت الشعوب اليونانية في المورة الى ذلك العهد خاضعة لاسبارطة فالتحست معونة الثيبين لنيل استقلالها . فانشأت مدينة ماتييه في بلاد اركاديا اسوارها على الرغم من دفاع اسبارطة وذبحت ثيجة الاغنياء احلاف اسبارطة وكان الاركاديون من سكان الجنوب مشتقين الى ذلك العهد في القرى فانضموا بعضهم الى بعض وانشؤا مدينة حصينة سموها ميكالوبوليس ثم اراد ايپامينوداس جمهور الثيبين على ان يذهبوا الى غزو الاسبارطين في عقر دارهم فدخل الجيش اليوسي الى بلاد المورة وكثر سواده بالاركاديين واهالي ارغوس وتوغل في اقليم لاكونيا وطلق بعسكر امام اسبارطة « (٣٧٠) » وكانت هذه هي المرة الاولى التي رأى فيها الاسبارطيون العدو في ارضهم . ولم يكن لاسبارطة اسوار فلح اجازيلا « وكان قد بلغ اذ ذاك من العمر ٧٦ سنة » جماعة الميولتين وحصن الآكام المحيطة بالمدينة .

ولم يحسر ايبامينوداس على المعجزم واذا كان عاجزاً عن اطعام جيشه في البلاد التي استباح حماها وجعل عاليها سافلها رجع ادراجهم وقبل ان يغادر المورة جمع المسيبيين وقد اصبحوا منذ ثلاثة قرون رعايا الاسبارطيين واعانهم على انشاء مدينة قوية سميت ميسين وعادوا يملون شعهم . وتحالفت اسبارطة مع الآثينيين الذين كانوا يحسدون الثيبين كما حالقوا اهل سيراكوزة ومع الجبارديس الذي بعث اليها بالمحاربين الغاليين فغلب الاركاديون احلاف ثيبة . وعندها حاولت ثيبة ان تنال معونة ملك الفرس وارسل القائد يلويداس الى آسيا وآب يحمل كتاباً من الخاقان الاعظم الذي وعد ان يحارب اليونان الذين لا يقبلون بمخالفة ثيبة « ٣٦٧ » اما سائر المدن فلم تكن تخشى ملك الفرس وابت ان تخضع له . ولم تكن ثيبة من القوة لتخضع الى سلطانها جميع بلاد اليونان فظهر ايبامينوداس على احسن حال في بلاد المورة مع الجيش اليومي وحالف المسيبيين ثانية وحاول ان يدام اسبارطة واذا بلغ ذلك اجاز يلاكو راجعاً وراح ايبامينوداس يهجم على جيش العدو في اركاديا بالقرب من مدينة ماتينه وظفر في هذه المعركة بانتحاده الاسباب التي اتخذها في لوكترس ولكن اصابه سهم فمات ليومه . وفقد الثيبيون به قائداً يقودهم وانتهت ايام عز ثيبة ولم يبق مما قام به القائد ايبامينوداس الا مدينة ميسينا التي اصبحت مملكة مستقلة وسقط سلطان اسبارطة من بلاد المورة كما سقط من بلاد اليونان .

نتائج الحروب — لم تؤد هذه الحروب الى تأليف اليونانيين كافة امة واحدة اذ لم يكن للمدينة من مدنها لا اسبارطة ولا آثينة من القوة ما تكره به سائر المدن على الطاعة لها والخضوع لسلطانها وما كان منهم الا ان يتهك بعضهم قوى بعض ويكافح بعضهم بعضاً وكان ذلك من حظ ملك الفرس الذي استفاد من هذا الانقسام ولم تبلغ الحال بالمدن اليونانية انها لم تنفق عليه بل انها كانت كل واحدة على حدة تحالفه للانتقام من سائر ابناء يونان وقد صرح الخاقان الاعظم (٣٨٧) في معاهدة اثناسيداس بان جميع المدن اليونانية في آسيا هي ملك له ولم تحالف اسبارطة قوله ذلك ولا تقضت زعمه وكذلك كان شأن آثينة وثيبة بعد بضع سنين فقد قال خطيب آثيني : « ان ملك الفرس هو الذي يحكم بلاد اليونان ولم يبق عليه الا ان يقيم له عمالاً في مدتنا . اليس يداهم الحل والعقد في بلادنا ؟ اما نحن فنندعوه الخاقان الاعظم كما لو كنا عبيده ؟ » وهكذا اضاع اليونان بتفاسلهم وتدابيرهم ما كانوا غنموه في حرب مادي .

عظمة مكدونية

فيليب - الاسكندر - فتح آسيا

انهكت الحروب المتصلة مدة قرن بين اسبارطة وآثينة قوى تينك المملكتين فتركنا قتال ملك الفرس الا ان شعباً جديداً وهم المكدونيون عاودوا قتاله حتى نالوا منه وكانوا على خشونتهم وقسوتهم اشبه بقدماء الاوروبيين شعباً مؤلفاً من رعاة وجند . ولقد سكنوا شمال بلاد يونان في واديين عظيمين مطلين على البحر . وقلما كان اليونانيون يحلونهم محل الاعتبار بل ينظرون اليهم نظراً ثانوياً كما ينظرون للبرابرة واذ كان المكدونيون يدعون انهم من نسل هيراكليس سمح لهم اليونان بان يركضوا خيولهم في سباق الالاماب الاولية وبذلك اعترف بهم شعباً بانهم من ابناء يونان .

فيليب - قلما كان هؤلاء الملوك النازلون في بلاد الداخلية بعيدين عن البحر يشتركون في حروب اليونان . وفي سنة ٣٦٠ تسنم اريكمة العرش المكدوني شاب نشيط شجاع طموح ونعمي به الملك فيليب فطمحت به نفسه الى القيام بثلاثة امور .

(١) ان ينشيء جيشاً قوياً

(٢) ان ينشيء جميع الموالي على شاطيء مكدونية

(٣) ان يكره سائر اليونان على الانضواء تحت لوائه لقتال الفرس

فصرف في هذا الشأن اربعمائة وعشرين سنة ونجح فيما قصد له . واستسلم اليونان اليه بل واعانه كثير منهم واتخذ له انصاراً يبذل المال في جميع المدن يحسنون الظن فيه ويمتدحونه قال : « ما من قلعة يتعذر الاستيلاء عليها اذا استطاع المرء ان يدخل اليها بطلاً مثقلاً بالذهب » وهكذا استولى على جميع مدن شمالي اليونانية واحدة بعد اخرى .

واقدر كان الخضم اللدود لفيليب الخطيب ديموستين وهو ابن صانع السمحة تيم في السابعة من عمره واختلس اوصياؤه جزءاً من ماله ولما بلغ اشداه اقام عليهم قضية واكرهم على ان يعيدوا اليه ما اختلسوه منه وكان درس خطب ايزيه واستظهر تاريخ توسيديد بيد انه عند ما خطب على المنبر العام قبل كلامه بالقهقهة اذ كان صوته ضعيفاً جداً ونفسه قصيراً فنوفر عدة سنين على ترويض صوته . ويروى انه كان ينقطع شهوراً طويلاً دون غرضه ثم علق لثلاً يحاول الخروج ويلقي خطباً وفي فمه حصا وهو على شاطيء البحر ليرن نفسه على الثغاب بصوته على جلبة الناس ولما رجع الى المنبر كان قد اخضع صوته لارادته واذ كان يحافظ كل المحافظة على اعداد جميع خطبه قبل القاها عدا ارقى خطيب واعظم مفوه في بلاد اليونان . وكان الحزب الذي يرجع اليه امر آثينة على ذاك العهد بزعامة فوسيون يطمح في السلم اذ لم

يكن لا آثنية جند كاف ولا مال وافر لا يقاف ملك مكدونية عند حده فكان فوسيون يقول سأشير عليكم بالحرب متى صرتم بحيث تستطيعون القيام باعبائها . وكان ديموستين على العكس يحقر فيليب ويراه كأنه من المتوحشين فشطوع في خدمة الحزب الذي يطلب محاربه واستخدم ما فيه من فصاحة لاخراج الآثينيين من سياسة المسالمة ولم يدخر وسعاً مدة خمس عشرة سنة في تحريرهم على ذلك . وانك لتجد موضوع كثير من خطب ديموستين الحملة على الملك فيليب وكان يسميها الفليبية . قال في خطابه الاول سنة ٣٥٢ : متى تقومون ايها الآثينيون بواجباتكم ؟ اتريدون ان تسرحوا وترحوا في الساحات وبعضكم يسأل بعضاً بقوله : ما وراءك من الاخبار ؟ اما انا فاقول لكم ليس من جديد الا اننا نشاهد مكدونياً تغلب على آثنية ويستولي على ارض يونان ؟ اقول لكم انه من الواجب تسليح خمسين سفينة وان تعقدوا العزم ان تركيبها بالذات عند ميسس الحاجة . جنوا مسمي حديث جيش مؤلف من عشرة او عشرين الفا من الاجانب ولا حقيقه له الا على الورق فاني لا اريد الاجنوداً من الوطن متطوعين في خدمته . وقال ديموستين في الفيليبات الثالثة سنة ٣٤١ يذكر الآثينيين بما حازه فيليب من الظفر عليهم لغفلتهم وقلة حركتهم : « كان اليونان قديماً عند ما يسئون استعمال سلطتهم ليعظموا غيرهم يقوم بلادهم كلها على ساق وقدم لمنع هذا الظلم ونحن اليوم تقاسي ما تقاسي من مكدون في حقير متوحش من اصل ملعون فيجرب المدن اليونانية ويخطف بالالاعاب البيئية (١) او يأمر خدمه بالاحتفال بها وهذا ما ينظر اليه اليوناني بدون ان يأتي امرأ كما ينظر الى البرد يتساقط وهو يضرع بان لا يصيبه . والسلطة تعظم بدون ان يخطو احد خطوة لا يقافها . وكل ينظر من عهد اليه في تمزيق شمل غيره كما لو كان يعد ذلك رجحاً في وقته بدلاً من ان يفكر ويعمل لسلامة اليونان عندما يعرف الناس ان المصيبة ستنازل البعدين » . ولما استولى فيليب على الاتيه في مدخل بيوسيا (٣٣٩) ازمع الآثينيون بما نصح لهم به ديموستين ان يشهروا الحرب ويبعثوا بوفود الى ثيبه وذهب ديموستين زعيماً للوفد ولقي في ثيبه وفداً جاءه من قبل فيليب فتردد الثيبيون وارادهم ديموستين على ان يتنازوا جميع احقادهم القديمة وان لا يفكروا في غير سلامة الوطن اليوناني وفي الدفاع عن الشرف والحرية فغزموا بمساعيه ان يقدوا محالفة مع آثنية وان يظلوا على المقاومة والحرب .

وبعد سنة (٣٣٨) نشبت الحرب في شيروتيه من اعمال يوسيا وكان عمر ديموستين اذ ذاك ثمانياً واربعين سنة فقدم في الجيش جندياً بسيطاً واذ كان جيش الآثينيين

(١) هذه الالاعاب كانت تقام كل اربع سنين كالالاعاب الاولمبية في مدينة دلفيس اكراماً لابولون البيتي

والثيبين قد دعي الى حمل السلاح بسرعة لم يعادل جند فيليب المدرين ولذلك كانت الهزيمة من حظ الجيش الاول .

الاسيلا المكدوني — واذ ظفر فيليب اقام حامية في ثيبة وصالح آثينة ثم دخل الى ارض المورة فاستقبله اهلها كأته المحسن الى الشعوب التي طالما اضطهدتها اسباطة ومن ذاك العهد لم يصادف اقل مقاومة فجاء الى كورنت (٣٣٧) وجمع فيها مندوبي جميع المدن اليونانية (ما خلا الاسبارطيين فانهم لم يبعثوا مندوبين قط) وعرض عليهم مشروعه وهو ان يتولى زعامة جيش يوناني لنزو فارس فاستحسن المندوبون رأيه وعقدت محالفة عامة بين المدن اليونانية كافة وذلك على ان تحكم كل مدينة نفسها بنفسها وتعيش بسلام مع غيرها وأنشيء مجلس لتلك الوحدة لمنع الحروب والفتن الاهلية والتتل والمصادرة وهذه الوحدة كان من شأنها الاتحاد مع ملك مكدونيا والاقرار له بالزعامة على جميع الجنود والسفن اليونانية وحظر على كل يوناني ان يحارب فيليب واذا فعل تضرب عقبة بدون محاكمة .

الاسكندر — خنق فيليب ملك مكدونية سنة ٣٣٤ وكان ابنه الاسكندر اذ ذاك ابن عشرين سنة وكان مثل جميع اليونان من ابناء البيوت الشريفة ماهراً في الالعاب الرياضية شديد القوى في الكفاح يحسن ركوب العافنات الجياد (وهو الذي استطاع وحده ان يكبح جماع حصانه بوسيفال في الحرب) وكانت زيادة على ذلك عارفاً بالسياسة حسن البيان يعلم التاريخ الطبيعي وكان استاذة من سن الثالثة عشرة الى السابعة عشرة الفيلسوف ارسطو اعظم عالم في اليونان فكان يتلو الاياداة بشوق ويدعوها دليل فن الحرب ويريد ان يتشبه بالابطال الذين ورد ذكرهم فيها . فكانه خلق ليكون فاشحاً لانه مغرم بالتقالع مولع بحب الشهرة وكان ابوه يقول له « ان مكدونية ذبيقة النطاق فلا تسعك »

الجحافل المكدونية — ترك فيليب لابنه الاسكندر اداة من ادوات الفتح ونعني بها الجيش المكدوني وهو احسن جيش عهد في بلاد اليونان يؤلف جيش المشاة وجيش الفرسان فكان الجحافل المكدوني مؤلفاً من ١٦ الفا من الرجال متفوقين ألوفاً ألوفاً ستة عشر صفاً ويحمل كل واحد منهم رحماً طوله ستة امتار وكان المكدونيون في ساحة الوغى بدلا من ان يسبروا الى العدو كما هم من جهة واحدة يقفون لا حراك لهم ويفخرون برماحهم الممدومة من كل صوب وكان جنود المؤخرة يرفعون رماحهم من فوق رؤوس الصفوف الاولى بحيث كان ذاك الجيش يشبه حيواناً عظيماً وقد انتصب وعليه الحديد والعدو بداهمه فيتحطم . وكنت ترى الاسكندر يمشي بينا كان الجيش في ساحة الحرب يوقع بالعدو وهو في مقدمة فرسانه وكانت هذه الكتيبة من الفرسان مؤلفة من خيار الفتيان الاشراف .

فتح آسيا - سافر الاسكندر في ربيع سنة ٣٣٤ في ثلاثين الف راجل (معظمهم من المكدونيين) وفي ٤٥٠٠ فارس لا يحمل معه غير ٧٠ ثلوثاً من المال (اقل من ابعائة الف فرنك) وذخيرة تكفي هذا الجيش النضج اربعين يوماً . ولم يكن عليه ان يقاتل ذاك الفوجاء من الشعوب التي لا سلاح لها وقد سخرها كجنسرو الفارسي لامره فقط بل كان امامه خمسون الفا من اليونان المجندين في خدمة الخاقان الاعظم تحت قيادة قائد حاذق يدعى ممنون الرودسي فقد كان في مكنته هؤلاء اليونان ان يصدوا المكدونيين عن العبور ولكن صادف ان مات ممنون وتشتت جيشه شذر مذر ففخلص الاسكندر من خصمه الوحيد العنيد وفتح المملكة الفارسية في سنتين . وذلك بعد ان ظفر في ثلاث مواقع فيددي آسيا الصغرى الجيوش الفارسية الرابطة وراء نهر غرائيك (في مايو ٣٣٣) وهزم الاسكندر داريوس ملك فارس وجيشه الذي يقال انه كان مؤلفاً من ستين الفا في مضائق سيليسيا في ابسوس (نوفمبر ٣٣٢) وشنت في اربل بالقرب من دجلة جيشاً اكثر صعداً (٣٣١) .

فكانت هذه الغلبات مثلاً من الحروب المادية فالجيش الفارسي لا سلاح له ولا يحسن الرماية وهو مشوش بنفسه في اخلاط من الجند والاجراء والانتقال وكانت الجنود المختارة وحدها هي التي تقاتل والباقي يشنت ويقتل ولم يكن الفتح في غضون الحرب الا نزهة يكتب فيها الظفر وهذا الفاتح لا يجد امامه مقاومة (١) وماذا بهم شعوب المملكة ان يخضعوا لداريوس او للاسكندر ؟ وكل غلبة يحرزها الاسكندر كان يفتح بها مملكة برأسها ففوقه الفرائيك استولى فيها على آسيا الصغرى ومعركة ابسوس افتتح فيها سورية ومصر ومعركة اربل بقية البلاد .

ولما صار الاسكندر الحاكم المتحكم في المملكة الفارسية اعتبر نفسه وارثاً لخاله فان الاعظم صاحب فارس فليس اللباس الفارسي واستعمل عادات البلاط الفارسي في الاحتفالات الرسمية واكره قواده ان يركعوا امامه على السنة الفارسية وتزوج بامرأة من بنات الفرس وزوج ثمانين من ضباطه من ثمانين فتاة من بنات اشراقهم واراد ان يوسع مملكته الى اقصى الحدود كما فعل الملوك القدماء وتقدم فاتحاً نحو الهند وهو يقاتل القبائل المحاربة ولما عاد في جيشه الى بابل (٣٢٤) هلك بالحمى في بضعة أيام في الثالثة والثلاثين من عمره (٣٢١) مقصد الاسكندر - من المتعذر جداً ان نعرف ما كان يقصد الاسكندر . هل كان يفتح حباً بالفتح ؟ او انه كان له مقصد آخر ؟ وهل كان يريد ان يجعل جميع تلك الشعوب شعباً واحداً ومملكة واحدة ؟ هل اتخذ المتاحي الفارسية ليكون مثلاً لغيره ؟ او انه قد

الخاقان الاعظم صلفاً و إعجاباً ؟ اننا لم نقف على نياته الا ان اعماله كانت لها نتائج عظيمة
 ولقد أسس سبعين مدينة وعدة مدائن في مصر كالاسكندرية وفي بلاد النهر حتى
 بلاد الهند ووزع على رعاياه الكنوز التي وجدها في خزائن الخاقان الاعظم وكانت مطروحة
 فيها لا يتنفع بها واخذ معه علماء يونانيين لدرس نباتات آسيا وحيواناتها وجغرافيتها وهيا
 الملكات في الشعوب الآسيوية الى تعلم لغة اليونان والتخلق باخلاقهم ولذلك اطلق على
 الاسكندر لقب الكبير

تأسيس الممالك اليونانية

الاسكندرية — التحف — ممالك آسيا — التمدن اليوناني في الشرق
 خراب مملكة الاسكندرية — جمع الاسكندر تحت علم واحد جميع بلاد العالم القديم
 من بحر الادرياتيک الى نهر الاندوس ومن مصر الى القافقاس . ولم يدم هذا الملك العظيم
 الا بدوامه فلما هلك اختلف قواده فبين يولى الملك بعده وحارب بعضهم بعضاً مدة عشرين
 سنة واتخذوا باديء بدء حجة لحروبهم بانهم يتقاتلون لمعاوضة احد أسرة الاسكندر كاخيه
 وابنه وامه واخوته او احدى زوجاته ثم تقاتلوا علناً بأممهم وتوطيداً لدعائم الملك لسلطانهم
 فكان لكل واحد منهم جزء من الجيش المكدوني او جنود يونان مأجورون فكان اليونانيون
 يتقاتلون فبين يستأثر بآسيا ويحكم عليها والناس ينظرون اليهم غير محتفلين بما باتون كما لو كان
 اليونان يقاتلون الفرس اعداءهم

ولما وضعت الحرب اوزارها لم يبق الا ثلاثة قواد وقد هيا له كل منهم مملكة واسعة
 مما خلفه الاسكندر فحكم بطليموس مصر وسلوقس سورية وليزياك مكدونية وكانت انفصلت
 بعض الممالك الصغرى او اخذت بالانفصال عنها مثل ابيرو اوروبا ومثل بون وبيتيني
 وغالاسيا وكابادوس وبرغام في آسيا ومثل مقاطعتي باكتريان وبارسيا من بلاد الفرس
 وبذلك تم تقسيم مملكة الاسكندر

التمدن اليوناني في الشرق — كان الملك من ابناء اليونان في هذه الممالك الجديدة وقد
 اعتاد ان يتكلم باليونانية ويتعبد بالارباب اليونان ويعيش عيش اليونان ويحافظ على لغته
 ودينه وعاداته . رعاياه من الآسياءيين أي من البرابرة وهو يحاول ان يجعل له حاشية من
 جنسه ويجند جنوده من أبناء يونان بالاجرة ويتخذ موظفين يونان لادارة البلاد ويجلب
 الى عاصمته شعراء وعلماء وارباب فنون من اليونانيين

وكان في البلاد على عهد ملوك الفرس كثير من اليونان والطواريء والتجار ولا سيما
 من الاجناد فاكثر ملوك اليونان من جلبهم وانتشروا في جميع اطراف آسيا وكثر سوادهم

حتى انتهت الحال بالوطنيين ان يلبسوا اللباس اليوناني ويتخلوا الديانة اليونانية والاخلاق اليونانية بل واللغة اليونانية ولم يعد الشرق آسياويًا بل اصبح يونانيًا حتى ان الرومانيين لم يجدوا في آسيا في القرن الاول الاشعوبًا يشبهون اليونان ويتكلمون باللغة اليونانية بامرهم (١) الاسكندرية - لقب ملوك اليونان في مصر وهم خلفاء بطليموس بقلب الفراعنة على نحو ما كان يلقب ملوكها الاقدمون ولبسوا التاج ودعوا الناس الى عبادتهم باسم ابناء الشمس ولكنهم كانوا محاطين باليونانيين واقاموا عاصمتهم على شاطئ البحر في مدينة يونانية وهي الاسكندرية . تلك المدينة الجديدة التي انشئت بأمر الاسكندر

بنيت الاسكندرية على سطح مستو فكانت ذات نظام اكثر من غيرها من المدن اليونانية وكانت الشوارع تنقسم الى زاوية قائمة ويشقها من وسطها الشارع الاعظم وعرضه ثلاثون مترًا وطوله ستة كيلومترات وعلى جانبيها ابنية عظيمة مثل بناء السناد حيث كانت تقام الالعاب العامة والجنائز والتحف والارسينوم

وكان المرفأ مؤلفًا من سد طوله الف وثلثمائة متر يصل بين اليابسة وجزيرة فاروس وفي طرف هذه الجزيرة أقيم برج من الرخام جعل في قفته مكان ينبعث منه ضوء على الدوام لتسير به السفن التي تريد دخول المرفأ ومن هناك جاء اسم المنارة . فقامت الاسكندرية مقام المدن الفينيقية وغدت المينا العظمى لتجارة في العالم بأسره .

التحف - كان التحف بناءً عظيمًا من الرخام متصلًا بقصر الملك وقد اراد ملوك مصر ان يجعلوه معهدًا علميًا عظيمًا . وفيه مكتبة عظيمة (٢) وكان لرئيس القوام عليها ان يبتاع جميع ما يتسنى له النفر به من الكتب فكل كتاب يدخل مصر يحمل الى المكتبة والنساخ ينقلون المخطوطات ويرجعون نسخة لصاحبها مع التعويض عليه واتصلت الحال بان جمع على هذا نحو عدد من المجلدات لم يسمع بمثله (وهو اربعمائة الف مجلد كما قيل) وكانت الكتب المخطوطة لكبار المؤلفين الى ذلك العهد مبعثرة مشتتة وعرضة لخطر الضياع فاصبحت يعرف لها مقر يرجع اليه .

وكان في التحف ايضا حديقة للنبات والحيوان ومرصد فلكي وقاعة للتشريح اقيمت على الرغم من اوهام المصريين كما أقيم معمل كياوي (كان الملك بطليموس فيلادلف ينجش كثيرا

(١) كتبت الاناجيل واعمال الرسل في آسيا الصغرى باللغة اليونانية

(٢) حرق مكتبة التحف في خلال حصار قصر لمدينة الاسكندرية ولكن كان لها فرع جعل في السرايوم وفيه على ما يقال ثلثائة الف مجلد . وقيل ان هذه المكتبة الثانية حرقها المسلمون في القرن السابع ولكن الظاهر انها فقدت من قبل (قاله المؤلف)

من الموت فقصى بضع سنين في البحث عن اكسير لاطالة الحياة) وكان في التحف العسكري
مساكن للعلماء والرياضيين والفلكيين والاطباء والفجويين ويقدم لهم غذاؤهم على نفقة
الحكومة وكثيراً ما كان الملك يتناول الطعام معهم دليلاً على احترامه لهم وكانوا يقضون
اوقاتهم في المحاوراة والمطالعة ويجيء الناس من جميع بلاد يونان ليمتصوا لما يلقون وكان
الشباب يبعث بهم آباؤهم الى الاسكندرية ليشعروا . ويقال انه كان فيها نحو ١٠ ألفاً
من الطلاب .

ومن ثم كان التحف مكتبة ومجمعاً علمياً ومدرسة في آن واحد فهو اشبه بمدرسة جامعة
وهذا الوضع الذي هو عام بيننا مألوف كان على ذلك العهد من الاوضاع الجديدة التي لم يسبق
لها نظير . ولقد اصبحت الاسكندرية بفضل متحفها مقصد جميع المشاركة من يونان
ومصريين واسرائيليين وسوريين يحمل اليها كل منهم دينه وفلسفته وعلمه ويحتنط بعضهم
ببعض ففدت الاسكندرية اذ ذاك وظلت قروناً كثيرة عاصمة العلم والفلسفة في العالم
برغامة — كانت برغامة في آسيا الوسطى من الممالك الصغرى ولم تعد لما سطوة بيدان
عاصمتها برغامة كانت كالاسكندرية مدينة ارباب الصنائع والادب وانما نقاشو برغامة
في القرن الثالث قبل الميلاد مدرسة مشهورة (١)

وقد ملكت برغامة كما ملكت الاسكندرية مكتبة تبرى جمع اليها الملك اتال الكتب
المخطوطة لقدماء المؤلفين وفي برغامة اخترعت الكتابة على الجلود للاستعاضة عن ورق
البردي وكان هذا الورق الجديد ورق برغامة هو الرق الذي حفظت به المخطوطات القديمة .

الحروب الاخيرة في يونان

العصابات — القمح

الحروب الاهلية — كانت بأيدي بضع أميرات غنية من اليونانيين في جميع المدن
اليونانية على التقريب جميع الاعمال والمعامل الصناعية والسفن التجارية وعامة مصادر الرزق
وموارد العيش اما سائر الاسرت اي السواد الاعظم (٢) فلم يكن لهم ارض ولا مال

(١) اتصل بنا بعض التماثيل التي استصنعها الملك اتال ذكرى لانتصاره على الغاليين

في آسيا المعروفين بالفلاسيين

(٢) لم يكن في جميع المدن اليونانية تقريباً طبقة وسطى تشبه الطبقة الوسطى في اوروبا
وبذلك كانت تعد آتية بما فيها من ١٣ ألفاً من ارباب الاملاك من الشواذ النادرة وكانت
من المدن التي قلت فيها الثورات

وماذا كان الوطني الفقير يعمل ليكسب رزقه ؟ لم يكن له الا ان يؤجر نفسه زراعاً او عاملاً او ملاحاً . بيد ان عبيد ارباب الثروة في مصانعهم ومعاملهم وسفنهم كانوا يقومون بهذه الاعمال ولا يكفون للاتفاق عليهم غير شيء زهيد بالنسبة للنفقات التي كان على السادة ان ينفقوها اذا استخدموا الاحرار في اعمالهم لانهم كانوا يطعمون عبيدهم طعاماً غليظاً ولا يؤثرون اليهم اجوراً . ثم انه من الصعب على الفقير ان يعمل لحسابه لندرة الدراهم ولم تكن الفائدة اقل من عشرة في المئة وهيئات ان يقرضه انسان ما يعوزه

على ان العادة لم تكن تسمح للوطني ان يتعاطى الصنائع لان الفلاسفة كانوا يقولون بانها تفسد الجسم وتضعف النفس ولا تترك في وقت صاحبها متسعاً للنظر في الشؤون العامة ولذلك قال ارسطو ان المدينة الحسنة النظام لا يجب عليها ان تعد الصانع فيها وطنياً . فكانت من الوطنيين في يونان طبقة شريفة ترى كما كان يرى الاشرف في فرنسا قديماً ان لها الحق ان تحكم وتحارب وفي ذلك شرفها اما تعاطيها الاعمال بايديها فيعد ثنائلاً وانضاعاً ومن اجل هذا حالف البؤس معظم الوطنيين بما كانوا عرضة له من منافسة العبيد في اعمال الحياة وما وقر في نفوسهم من شروط الشرف والنهاية فحكم الفقراء المدن ولم تكن اسباب عيشهم متوفرة وخطر لم ان يسلبوا الاغنياء فالف هؤلاء شركات منهم لمقاومة اولئك وعند ذلك انقسمت كل مملكة يونانية الى قسمين الاغنياء ويدعون « الاقلية » والفقراء ويدعون « الاكثرية » او الشعب . وبدأ الاغنياء والفقراء يتباغضون ويتقاتلون فاذا صار الحكم للاغنياء يطردون الاغنياء ويصادرون اموالهم وريثاً اتخذوا واسطتين بالفتن في التطرف وهما الغاء الديون وتقسيم الاراضي من جديد . فاذا عادت السلطة للاغنياء يطردون الفقراء وكانوا يتعاهدون بينهم في كثير من المدن قائلين : « اقسم بافي اظل ابدأ معادياً للشعب واؤذيه ما استطعت » ولم يكن ثمة من سبيل الى التوفيق بين الفريقين فلا الاغنياء يستطيعون ان يستسلموا للفخلى عن ثروتهم ولا الفقراء يرضون بان يموتوا جوعاً . قال ارسطو « ان الثورات تنشأ من سبب تقسيم الثروات » . ويقول بوليب « ان كل حرب اهلية تنشب فهي لنقل الثروات من يد الى اخرى » .

ومن ثم كان الفريقان يقتتلان اشد قتال على نحو ما يحدث ابدأ بين الجيران فتغلب الفقراء باديء بدء في ميلت واكرهوا الاغنياء على الحرب من المدينة ثم اسفوا لانهم لم يذبحوا فاحذوا اولادهم وجمعهم في الانابير تحت ارجل البقر ودخل الاغنياء المدينة فاصبحوا اصحابها الحاكمين فيها واخذوا هم ايضاً ابناء الفقراء وزفونهم (دهنوم بالزفت) واحرقوهم احياء .

الحكم الجمهوري والحكم الافرادي — كان لكل من الاغنياء والفقراء شكل خاص في الاحكام يجرونها في المدينة عند ما يقوى احد الفريقين . فكانت حكومة الاغنياء من نوع الحكم الافرادي (اوليكرشي) تعهد بالاحكام الى بعض افرادها اما حكم الفقراء فكان حكمهم ديمقراطياً يكون حكمهم الى مجلس الامة وكل واحد من الفريقين يتفق مع الفريق المائل له في المدن الاخرى وبذلك تألفت عصابتان تقاسمتا بينهما جميع المدن اليونانية : عصابة الاغنياء او الحكم الافرادي وعصابة الفقراء او الحكم الجمهوري . وبدأت هذه الطريقة في الحكم خلال حرب المورة فكانت آتية تعضد الحزب الديمقراطي واسبارطة تمالئ الحكم الافرادي فاتحدت المدن التي كان فيها سلطة للفقراء مع آتية كما اتحدت المدن التي تسلط عليها الاغنياء مع اسبارطة .

ولقد دامت الحروب الاهلية بين الاغنياء والفقراء نحو ثلاثة قرون (من ٤٣٠ الى ١٥٠) دمج في خلالها كثير من ابناء البلاد وطرد منهم عدد اكثر من ذلك فاحذوا بهيمون في اطراف الارض على وجوههم لا مورد لهم يعيشون منه ولا يعرفون الا صناعة واحدة وهي الجندية فيخربون متطوعين في الجيش الاسبارطي والاتيبي وفي جيش الخاقان الاعظم والجيش الفارسي بل وفي كل جيش يدفع اليهم اجورهم فكان من ابناء يونان خمسون الفا في خدمة دارا عند ما قاتل الاسكندر وهم لا يكادون يعودون الى بلادهم متى خرجوا منها .

العصابات — ضعفت الشعوب التي حكمت على بلاد اليونان واسبارطة وآتية وثيبة ولم يبق في القرن الثالث من اهل الشدة والبأس غير سكان غربي البلاد فالايوليون يسكنون الجبال في شمالي خليج كورنت والاشيون النازلون في شاطئ المورة في جنوبي هذا الخليج وقد نظمو احوالهم عصابات لا مدناً فاحتفظت كل مدينة بحكومتها وكانت لها كها مجالس للعصابة يقرر فيه الحرب والهدوء ويفرض الجند الذي تقدمه وينتخب القائد الذي يقضى عليه ان يقود جيش العصابة .

فانقسمت المدن اليونانية بين هاتين العصابتين المتعادتين . ومن العادة ان تعضد العصابة الايتولية الحزب الديمقراطي والعصابة الآشية الحزب الاوليكارشي . وقد رأس العصابة الآشية ضابطان شهيران احدهما ارتوس في القرن الثالث وهو الذي طاف بلاد اليونان سبعاً وعشرين سنة (٢٥١ — ٢٢٤) طارداً الظالمين من جميع المدن آخذاً بيد الاغنياء معيداً اليهم اموالهم ومقلدماً حكم البلاد والقائد الثاني فيلو جارج . قام في القرن الثاني وقاتل الظالمين في اسبارطة فقتله المسيونيون .

احلاف الرومانيين — لم يكن احد من تيزك العصابتين من القوة بحيث يجمع جميع المدن اليونانية وعندئذ ظهر الرومان فخارهم من ملوك اليونان فيليب ملك مكدونية (١٩٧) ثم ملك سورية انطيوخس (١٩٣ — ١٦٩) فنكست اعلامها كليهما ودمرت رومية جيوشها واستولت على اساطيلها وقاتلت « برسي » ملك مكدونية الجديد وأسرته وخربت مملكته (١٦٧) .

ولم يحاول اليونان قط ان يجتمعوا للدفاع عن انفسهم وظل فقراؤهم واغنيائهم يقتتلون وكل حزب يمتت الحزب المعادي له اكثر من بغضه الغريب وتحالف الحزب الديمقراطي مع ملك مكدونية ودعا الحزب الاوليكارشي للرومانيين . وبينما الثيبون من الديمقراطيين يقاثلون في جيش فيليب كان مواطنوهم من الاوليكارشييين يفتحون ابواب المدينة للقائد الروماني وقد حكم بالاعدام في رودس على كل من قاموا او تكلموا بما يخالف رضى رومية كتب كاليكرات احد اشياخ الرومانيين من الآشيين قائمة بالف وطني اتعهم بانهم كانوا يميلون للبرسي فارسلوا الى رومية وأمكوا فيها عشرين سنة بدون ان يحاكموا الفتح — لم يظهر الرومانيون اولاً سيفه مظهر الاعداء وقد ذهب القنصل فلامانيوس سنة ١٩٧ بعد ان غلب ملك مكدونية الى برزخ كورنت وعلن امام اليونانيين المجتمعين للالعب البرزخية بان جميع الشعوب اليونانية حرة فطرب الجموع لقوله واقترحوا منه ليشكروه يريدون ان يسلموا عليه وهو محررهم وان يروا صورته ويلبسوا يده ويلقوا عليه اكاليل النصر وباقات الزهور فازدحم الناس عليه حتى كاد يخنق .

ولم يلبث الرومانيون ان اصبحوا سادة فحدثتهم انفسهم بان يقودوا البلاد فاطاعهم الاغنياء عن رضى لان رومية كانت لهم واسطة للخلاص من حزب الفقراء ودامت هذه الحال اربعين سنة . ولما شغلت رومية بقرطجة سنة ١٤٧ عادت للحزب الديمقراطي حياته في بلاد اليونان فاعلن الحرب على الرومانيين فدعرك لذلك فريق من اليونانيين وتقدم كثيرون الى الجند الروماني ووشوا اليهم بمواطنيهم بل ووشوا بانفسهم وبعضهم فروا الى اقاصي المدن وآخرون القوا بانفسهم في الآبار والهوات وصادرزعماء المقاومين اموال الاغنياء والنوا الديون واعطوا سلاحاً للغيبد وكان الجهاد شديداً واذ غلب الآشيون للمرة الاولى عادوا فحشدوا جيشاً وساروا الى القتال مستعجيين نساءهم واولادهم وحبس القائد ديوس نفسه وجميع عياله في بيته والتي فيه النار .

وكانت كورنت مركز المقاومة فدخلها الرومانيون وذبحوا الرجال وباعوا النساء والاولاد

(١٤٦) ونهبت المدينة وحرقت وكانت مملوءة بالنفاس وكنت ترى صور كبار المصورين مطروحة في الغبار والجند الروماني مستلقياً فوقها يلعب بالنرد اه .

الرومان

وصف ايطاليا

شعوبها القديمة — سكنت ايطاليا عدة اجناس من الامم لم يقدوا في عاداتهم ولغاتهم فكان يعتبر السهل العظيم الشمالي بين جبال الالب والابنين جزءاً من ايطاليا وهناك نزل شعوب من الغاليين اتوها من الشمال . فكان الاتروسكيون ينزلون في البلاد الواقعة بين جبال الابنين والبحر (هو اقليم توسكانيا) الى نهر التيبر وفي جنوبه ينزل اللاتين . ولقد سكنت قبائل كثيرة في جبال الابنين الوعرة وراء السهول الرومانية في الشرق والجنوب ولم تدع كل هذه الشعوب باسم واحد ولم تؤلف امة واحدة بل كانت تنقسم الى اومبريين وصابنيين وفولسكيين وايبكيين وهرنكيين ومارسيين وسامنيين ولكنهم يكادون كلهم يتكلمون بلغة واحدة ويعبدون ارباباً واحدة ولم عادات واحدة . يتكلمون كالفرس والهند واليونان بلغة آرية ولبعدهم وراء جبالهم عن الاختلاط بغيرهم احتفظوا بعاداتهم القديمة وعاشوا عصابات مع قطعانهم مشتتين في الحلاء ولم يكن لهم مدن ولا حواضر بل كانوا يلجئون زمان الحرب الى حصون أقيمت في الجبال وقد عرفوا بالشجاعة والقتال وبسلامة الاخلاق ومثانتها وكان منهم بعد حين اعظم قوة للجيش الروماني وفي امثالهم : « من يستطيع ان يغلب على المارسيين او ان يغلب بدونهم »

جاء في احدى اساطيرهم ان الصابنيين نزل بهم خطب فادح فاعتقدوا ان الارباب ساططون عليهم فعتقدوا العزم على ان يسكنوا غضبها وان يقدموا ضحية الى رب الحرب والموت كل من يولدون من الاولاد في احدى فصول الربيع . ودعيت الضحية « الربيع المندور » فاصح جميع الاطفال الذين وضعتهم امهاتهم تلك السنة ملكاً للرب حتى اذا بلغوا سن الرجال غادروا البلاد وبعثوا عنها الى القاصية وتألفوا عصابات فاخترت كل عصابة احد حيوانات ايطاليا المقدسة دليلاً من مثل الصرد والدب والثور وهي تتبعه كأنها تتبع مرسلاً من الرب وحيثما وقف اخيوان نزل العصابة وتتخذ موطناً لها . وقيل ان عدة شعوب من ايطاليا كان اصلها من تلك الاسرات من النازحين وما زالت محافظة على اسم الحيوان الذي كان اجدادها اتبعوا آثاره في القدم وذلك مثل المربيذين (شعب الدب) والبيسانتيين (شعب الصرد) والسامنيين وكانت عاصمتهم تسمى بوفيانوم اي مدينة البقرة .

السامثيون — كان السامثيون من اقدر تلك الشعوب وقد سكنوا في اقليم الابرور وهو معمى حقيقي فيزلون الى السهول المخصصة في نابلي وبويل وينهبون المدن الاتروسكية والمدن اليونانية . جاهدوا قرنين في الرومانيين فكانوا كل مرة يردون على اعقابهم خاسرين اذ لم يكن لهم موطن ولا نظام ثم يماودون القتال . وكان جهادهم الاخير شديداً . واقد اثى شيخ الى زعماء الجيش بكتاب مقدس كتب على نسج من الكتان فاقاموا داخل المسكر سوراً من نسج الكتان وجعلوا في وسطه مذبحاً والجند واقفين من حوله شاهدين سيوفهم فيدخل اشجع المحاربين الى السور وتؤخذ عليهم اليهود ان لا يهربوا من الزحف امام العدو وان يقتلوا المهزمين فاخذ من اقساموا الايمان المغلظة وكانوا ستة عشر الفا البسة من الكتان فآلفت منهم (كشيبة الكتان) وشرعت في القتال فقتلت عن آخرها .

يونان ايطاليا — سكن ايطاليا الجنوبية طواري من اليونانيين كما سكن بعضهم مدينة سيباريس وكروتون وتارانت وفوي فيها امرهم وكثر سوادهم . بيد ان اليونانيين لم يلقوا بانفسهم قط الى الوقوع في التهلكة اذا لم يقصدوا رومية خوفاً من الاتروسكيين وما عدا مدينة كومس فان المستعمرين من ابناء يونان كانت لهم الى القرن الثالث صلات قليلة مع الرومانيين . الاتروسكيون — أطلق اسم الاتروسكيين على اقليم توسكانيا فسمي تروسكي وهو اقليم حار رطب مخسب للغاية . وظلت حال الاتروسكيين الى الآن طليساً من الطلاسم لم تفكك فهم لم يكونوا يشبهون جيرانهم ولا يعلم . اين اتوا بل اتنا لا نعرف اللغة التي يتكلمون بها الا ان ايجديتهم تشبه ايجدية اليونان ولكن الآثار التي عرفت عن هذا الشعب قصيرة لا تمكن معها من استنتاجات لغتهم .

كان الاتروسكيون يحسنون استخدام ارضهم في الزراعة على انهم عرفوا البحارة والتجارة ايضاً وكانوا يذهبون كالفينيقيين الى البلاد اقصية للبحث عن عاج الهند وشعر البلطيق وعن القصدير والارجوان الفينيقي والحلي المصرية المكتوب عليها حروف هيرغليفية وعن بعض النعام . وانك تجد من جميع هذه الاشياء في قبورهم . وكانت سفنهم تتقدم نحو الجنوب حتى جزيرة صقلية . وقد كان اليونان بكرهونهم وبدعوتهم (التيرينيين المتوحشين) او القرصان الاتروسكيين . وكل بحار في تلك العصور ساعدته الاحوال يأتي منه قرصان بحر فكان من مصلحة الاتروسكيين خاصة ان يردوا البحارة اليونان ويصدوهم ليخلوا لهم الجو في الشاطئ الغربي من ايطاليا ويستأثروا بتجارته . ولم يبقوا من آثارهم الا حوائط حصينة وقبوراً . وعند ما يفتح قبر احد الاتروسكيين تشاهد وراء باب ذي عمد غرقاً في البحر . وتقدمت عليها جثث وحواشيها حلل من الذهب والعاج والعنبر واقشة الارجوان وفرش واوان كبيرة

منقوشة اما الجدران فيرسمون عليها صور حروب والعابا وولائم ومشاهد غريبة .
وان ما استخراج من القبور بالالوف من الاواني الاتروسكية فازدانت به متاحفنا
وصنع على مثال الاواني اليونانية هو من صنع الاتروسكيين انفسهم وفيها متاعه ميشولوجية
يونانية ولا سيما صور الحروب التي جرت حول طروادة والاشخاص نائفة حمراء على صفيح اسود
وقد أسس الاتروسكيون في طوسكانيا اثنتي عشرة مدينة ولكل منها ملكها وحكومتها وكان
لمن من الجانبين مستعمرات فلهم اثنا عشرة مستعمرة في اقليم كامبانيا في جوار نابولي واثنا
عشرة في سهل بو .

ديانهم — اعتقد الاتروسكيون بارباب جبارين وربما كانوا اشرارا وارق اولئك
الارباب الارباب المستوردون المجهول امرهم ثم يجي بعدهم الارباب الذين يرسلون
الصاعقة وعددهم اثنا عشر رباً يؤلفون مجلساً لهم ويعتقدون انه يقيم تحت الارض في
مدافن الاموات ارباب مشائهم وكثيراً ما كانوا يثثون صورهم على اوان من صنع ايديهم
فيثثون ملك الحجم المدعو ماتوس في صورة جبار يجنح جالس وتاج على رأسه ومثل على يده
كما يثثون شياطين آخرين مسلحين بسيف او مطرقة والحيات يقبضون عليها بايديهم وهم
يثثون ارواح الموتى واهمهم الشيطان شارون المعروف عند اليونان بهذا الاسم ايضاً وقد
تحياه على صورة شيخ ذي هيئة قبيحة يحمل مطرقة ثقيلة ليضرب بها الضحايا . ويعتقدون
ان ارواح الموتى وتسمى « المان » تخرج ثلاثة ايام في السنة من مقرها في عالم الظلمات
ونطوف الارض تزوع الاحياء وتؤذيهم فيقدم لهم الاتروسكيون ضحايا بشرية نسكياً
لنفسهم لانهم يحبون الدم . وكانت معارك المصارعين المشهورة التي اصطلح عليها الرومان ضحايا
دموية اكراماً لليت في اصل نشأتها وكان للعرافين الاتروسكيين الذين دعوا بالهاروسيسيين
او اهل الفأل قواعد يجرّون عليها للتنبؤ عن المستقبل فيرصدون احشاء الضحايا كما يرصدون
الصاعقة وطيران الطير فيقف العراف ويدبر وجهه نحو الشمال ماسكاً بيده عصا معقوفة
ويحيط خطاً يقطع به السماء شطرين فسطر الشرق وهو على اليمين يكون فال خير وشطر الشمال
يكون فال شر (١) ثم يقطع الشطر الاول على قطع الصليب ويؤلف خطوطاً متوازية يكون
منها في السماء شكل مربع يدعونه المبد فيرمي العراف بصره الى الطيور التي تمر في ذاك المربع
فيعضها كالتسر علامة خير واخرى كالبومة طالع شؤم .

واقعد نبأ الاتروسكيون عن مستقبلهم انفسهم فهم الشعب الوحيد من بين الشعوب

(١) هذا اشبه بالساح والبارح عند العرب ولعلها اخذته عن الرومان نقول العرب :
من لمي بالساح بعد البارح اي بالمبارك بعد الشؤم قال ابو عبدة سأل يونس رؤبة وانا شاهد

القديمة الذي لم يعتقد بأنه خالد وكانوا يقولون ان بلادهم يدوم امرها عشرة قرون . وهذا القرون لم يكن كل واحد منها مؤلفاً من مئة سنة ولا تعين مدة القرن الا بعد ان يجري له قائل . ففي سنة ٤٤ وهي سنة وفاة قيصر ظهر في السماء نجم مذنب فقال احد العرافين من الاتروسكيين في رومية في جمع من الامة ان هذا النجم يشير الى نهاية القرن التاسع وابتداء القرن العاشر وهو آخر قرن يستقيم فيه امر الاتروسكيين .

نفوذ الاتروسكيين — كان الرومان امة نصف متوحشة فاقتدوا كثيراً بالاتروسكيين وهم اكثر منهم تمدناً واخذوا عنهم بعض المصطلحات الدينية خاصة مثل البسة الكهنة والحكا والشعائر الدينية وعلم معرفة الغيب وزجر الطيور وعند ما كان الرومانيون يؤسسون مدينتهم يعيرون على شعائر الاتروسكيين فيحط المؤسس لها بالمحراث سوراً وربما وللحراث سكة من الفخاس يجرها ثور ابيض وبقرة يضاء فيتبع الناس المؤسس ويلقون بزيد العناية جميعاً مدر الارض من ناحية السور وتصبح كل الهوة التي يشقها المحراث مقدسة لا يستطيع احدا ان يتعداها للدخول في السور ولذلك اقتضي ان يقطع المؤسس تلك الاثلام او الهوى المقدسة من عدة مواقع فكل مكان يخطاه المحراث يفتح فيه باب وكل فرجة لم تنسها السكة تبقى غير مقدسة وتكون باباً يسوغ منه الدخول . ولقد أسست رومية بحسب هذه المراسم الدينية وكانت تسمى رومية المربعة ويقولون ان مؤسسها قتل اخاه عقاباً له عن تجاوزه السور المقدس الذي خطه ثم جرى الاصطلاح ان تخطط اسوار المستعمرات والمسكرات الرومانية بل وحدود المساكن بحسب هذه القواعد الدينية وبخطوط نصف هندسية . وكان دير الرومانيين من اصل اتروسكي فنقلوه الى ارجاء العالم القديم بأمره ولذلك حق لا باء الكنيسة ان تسمى بلاد الاتروسكيين « ام الخرافات »

اللاتينيون — نزل اللاتينيون في بلاد الآكام والشعاب الواقعة جنوبي نهر التيبر وهم يطلق عليها اليوم اسم برية رومية وكانوا قليلاً عددهم ولم تكن مساحة البقعة التي يسكنونها اكثر من ٢٧٠ كيلومتراً مربعاً وكانوا من عنصر واحد كسائر الطليان يشبهونهم باللغة والدين والاخلاق ولكنهم يفوقونهم في التمدن بعض الشيء يزرعون الارض ويتنوبون

عن السائح والبارح فقال السائح ما ولاك ميامنه والبارح ما ولاك ميامره وقال ابو عمرو الشيباني : ما جاء عن يمينك الى يسارك وهو اذا ولاك جانبه الايسر وهو انبسه فهو سائح وما جاء عن يسارك الى يمينك ولاك جانبه الايمن وهو وحشيه فهو بارح قال ابن بري العرب تختلف في العيافة يعني سيف التيمن بالسائح والشاؤم بالبارح فاهل نجد يمتنرون بالسائح (المترجم)

المدن الحصينة وينقسمون الى شعوب صغيرة مستقلة ولكل شعب ارضه الخاصة به ومدنته وحكومته وتدعى تلك المملكة الصغيرة مدينة .

ولقد قامت ثلاثون مدينة لاتيية فالفت منها مجتمعاً دينياً يشبه مجتمع الامفكتيون اليوناني واخذوا كل عام يحتفلون احتفالاً عاماً بعيد لهم وتندب كل مدينة عنها من يمثلها في مدينة الب فيذبجون ثوراً ضخمة للرب المشترك بينهم وهو كوكب المشتري الراتيني .

رومية الاصلية

رومية - على تخوم قطر اللاسيوم من ناحية بلاد الايتروسكيين يمتد سهل ذو بطائح تغطله اكمات وتلعات هناك على ضفة نهر التير أنشئت مدينة رومية مقر الشعب الروماني المنفرد في الخلاء . ولقد كانت الحيات تنساب تلك البلاد وحالتها من الكآبة والبؤس على جانب ولكن كان موقعها جميلاً ونهر التير بمثابة هوة قائمة في وجه الايتروسكيين كما كانت تلك الآكام كالحصون وبين تلك المدينة والبحر ستة اميال وهو بعد لا يكاد ينجيها من سطوة فرسان البحر وبقرها قليلاً من تناول البضائع الواردة عليها . وكان مرفأ اوستي عند مصب نهر التير حياً من احياء رومية كبير مثل بيرة مرفأ آثينة . فوقع رومية كان والحالة هذه مناسباً لحال امة حرية تجارية .

تأسيس رومية - لا نعرف من حال القرون الاولى لرومية غير اساطير . والرومانيون انفسهم لم يعرفوا عنها شيئاً مثلنا . وقد ادعوا ان رومية كانت لاول امرها مدينة صغيرة مربعة المساحة قائمة كلها على راية «بالاتين» ويدعى مؤسسها رومولوس وهو الذي اختط سورها بحراث مراعياً في تخطيطها الشاعتر الايتروسكية . وكان الرومانيون يحتفلون كل سنة يوم ٢١ ابريل (نيسان) بعيد هذه المدينة فيطوفون حول سورها الاصلي فيدق احد الكهنة مسماراً في بعض المعابد تذكراً للحفلة . وكان يُقدَّر ان الاحتفال بتأسيس تلك المدينة قد وقع في سنة ٧٥٤ قبل المسيح .

أنشئت على الروابي الاخرى قبالة جبل بالاتين عدة مدن صغرى ونزلت عصابة من سكان الجبال من السابينين في معبد الكايتول كما حلت عصابة اخرى من متشردي الايتروسكيين في جبل سلبوس وربما كان ثمت ايضاً شعوب اخرى . وانتهت الحال بجميع اولئك الجماعات الصغيرة ان يجتمعوا في مدينة رومية الواقعة على راية بلاتين ثم انشئ سور جديد احاط بالسبع اكمات . اما ساحة المنيخ حيث يقف الجيش فكانت ممتدة الى نهر التير من الشاطي الاخر من النهر خارج السور فكان الكايتول في رومية مثل الاكروبول في آثينة . ولقد قامت على هذا الصخر معابد الارباب الثلاثة حامية المدينة وهي المشتري .

وجونون ومنيرفا وهناك القلعة التي حوت خزانة الحكومة ومجلات الامة . وفي اساطيرهم
انهم عثروا عند ما حفروا أسس المدينة على رأس رجل قطع حديثاً فكان هذا الرأس فألاً
حسناً اولوه بأن رومية ستغدو رأس العالم .

تقاليد بشأن الملوك وانشاء الجمهورية — جاء في هذه التاليد انه حكم رومية ملوك
مدة قرنين ونصف ولم تذكر فيها اسماؤهم وتاريخ وفياتهم بل ذكرت تراجمهم وقيل انهم كانوا
سبعة ملوك خرج الاول وهو رومولوس من مدينة آلب اللاتينية فانشأ مدينة بالاتين وقتل
اخاه الذي ارتكب محرماً بأن قفز من فوق خندق سور المدينة ثم حالف احد ملوك السابينيين
المدعو تاتيووس . وفي تقليد آخر انه انشأ في سنج المدينة حياً محاطاً بسياج حشريه جميع
المشردين الذين احبوا الانضمام اليه .

اما الملك الثاني وهو نوما بومبيليوس فقد كان سابنياً وهو الذي رتب الديانة الرومانية
أخذاً برأي احدى الربات « ايجري » التي كانت تسكن في غابة . وكان الملك الثالث المدعو
تولوس مارتيووس حفيد نوما الموما اليه بنى جسراً من خشب على نهر التيبر وانشأ جسر
اوستي وعليهما كانت تمر تجارة رومية منذ ذاك الحين . وكان الملوك الثلاثة الآخرون
من الايتروسكيين وحدث من امر تاركين التديمن وسع المملكة الرومانية وادخل الاحتفالات
الدينية الشائعة في بلاد ايتروريا والايتروسكيين . ونظم سرفيوس نوليوس الجيش الروماني
بان ادخل فيه جميع اهل البلاد بدون تمييز في موالدهم واعمارهم ووزعهم مئة مئة بحسب
ثروتهم . اما الملك الاخير المدعو تاركين الباهر فقد ظلم الاسرات الكبرى في رومية فذمر
عليه بعض الاشراف ووقفوا الى طرده .

ومنذ ذاك العهد ٥١٠ لم يملك على الرومانيين ملك فكانت البلاد الرومانية او كما
يقال الملك العام يحكم عليها كما كان يختاران كل سنة ويسميان « القناصل » . وليس من
الممكن ان نعلم ما في هذا التقليد من الحقيقة لانه نشأ قبل ان يبدأ الرومان في وصف
تاريخهم بزمان طويل وفي هذا التقليد من الاساطير ما لا يسعنا قبوله برمته . وقد حاول
بعضهم ان يفسر اسما هؤلاء الملوك ويستدل منها بانها رمز الى جنس او الى طبقة خاصة
كما حاول بعضهم ان ينشئ تاريخ رومية في عهده الاول على ضروب من الصور ولكن كلما
بذلت العناية للنظر فيه صعب الاتفاق بين المشتغلين في ذلك على تقرير امر وكثير
الخلاف بينهم .

وصف تربيات الرومانيين على سبيل الايجاز — كان سيف رومية نحو القرن الخامس
بل المسيح طبقان من الناس وهما الباترسين والبلبين (اي الاشراف والعامة) فكان

الباترسيون من نسل قدماء الأسرات النقية منذ القدم في البقعة الضيقة في ضاهر مدينة رومية وكان لهم وحدهم الحق ان يظهروا في مجمع الامة وان يحضروا الحفلات الدينية وان توسد اليهم الوظائف . ويعتقدون ان اجدادهم اسسوا المملكة الرومانية او كما كان يقال المدينة الرومانية واوصوا بها لهم فكانوا هم من ثم الشعب الاصلي في رومية اما البليين فهم من نسل الغرباء النازلين في المدينة ولا سيما من المغلوبين من سكان المدن المجاورة اذ ان رومية اخضعت بالتدريج جميع المدن اللاتينية وضمت سكانها اليها بالقوة فاصبحوا رعايا لرومية لكنهم ظلوا غرباء عنها يخضعون لحكومة رومية دون ان يشركوها في شيء من الامر فلا يدينون بالدين الروماني ولا يسوغ لهم ان يحضروا الحفلات الدينية ولا ان يتزوجوا من الاسرات الشريفة وكانوا يدعون باللب اي الجمهور ولا ينظر اليهم بانهم جزء من الشعب الروماني . وقد وجدت في الصلوات القديمة هذه العبارة « خير الشعب وخير البليين في رومية » .

وكان يجتمع ابناء البلاد وعليهم اسلحتهم كل سنة خارج المدينة في ساحة المناورات (ساحة المريح) يتخبطون زعميين يطلقون عليهم لقب القضاة او القناصل . وكان هؤلاء القناصل في خلال السنة التي يتوظفون فيها يحكمون رومية ويقودون جيشها ويدهم حياة جميع افراد الامة وموتها . يرافقهم اثنا عشر رجلاً من حملة القوس اشارة لما هم من السلطة فيحمل كل منهم فأساً وحزمة قضبان للجلد المجرمين او ضرب رقابهم . فيجلس القناصل على عتبة قدماء الملوك على دكة تشبه العرش وهو كرسي عال من العاج . ويتعاض في اوقات الحروب الخطارة عن القنصلين بما هم واحد يلقون اليه بزمام السلطة فيعجز الحاكم التمسك والامر الناهي وحده ويكون في قبضته الاربعة والعشرون جلاداً ولكن سلطته لا تدوم الا ستة اشهر .

فيجمع القناصل مجلس الشيوخ وهو مؤلف من رؤساء الأسرات وكبار ارباب الاملاك لمفاوضة في المسائل المهمة وبدعي هؤلاء بالآباء وبدعي نسايتهم بالاشراف فكان مجلس الشيوخ يصدر رأيه ويطلقون عليه « رأي الشيوخ » ومن العادة ان ياتزم القناصل امثاله فكانت من ثم رومية محكومة عليها من القناصل ومجلس الشيوخ في آن واحد .

التزاع بين طبقات الشعب - كان العامة واهل الطبقة الوسطى عبارة عن شعبين متباينين سادة ورعية . ومع هذا كان حال اهل الطبقة الوسطى يشبه كثيراً حال الاشراف فهم يخدمون في الجندية مثلهم ويخدمون في الجيش على نفقتهم وينادون بارواحهم في خدمة الشعب الروماني وهم مثلهم من اهل الفلج والكرث يعيشون في قراهم واما كنههم وكان كثير

من اهل هذه الطبقة المتوسطة اغنياء ومن أسرة قديمة والفرق بين الطبقة المتوسطة وبين الاشراف ان الاول كانوا من نسل أسرة عظيمة من بعض المدن اللاتينية المغلوبة على حين كان الاشراف من نسل أسرة قديمة من سكان المدينة العالية . ولم ترض نفوس اهل الطبقة الوسطى ان تظل ساكنة على ما قضى به عليها من المهانة بل اثار بينهم وبين الاشراف نزاع دام قرنين (من نحو ٢٩٣ الى نحو سنة ٥٠٠) واليك كيف بدأ ذلك على نحو ما ورد في اساطيرهم .

رأى اهل الطبقة المتوسطة ذات يوم انفسهم مهانة فالتصموا في جبل هناك وعليهم اسلحتهم وعزموا ان يتأوتوا الشعب الروماني فها ان عزمهم جماعة الاشراف فبعثوا اليهم بالقائد مينيوس اغريبا ليقص عليهم قصة الاعضاء والمعدة فرضيت الطبقة الوسطى بالدخول في الطاعة وعقدت محادثة مع الشعب ففزع رؤساء هذه الطبقة الحق في ان يدعوا يد المساعدة لاهل الطبقة الوسطى للاخذ بايديهم من حيف حكام الامة ولاجل ان يحولوا دون قيام امر يخالف رغائبهم . وقد كان يكفي ان يلفظ احدهم قوله « فتو » اي اني اعارض فيتوقف البت في الامر . وقد كان الدين يحظر الانتفاض على المدافع عن حقوق الشعب ومن فعل ذلك استحق العقاب من ارباب الجحيم .

ففل « ارباب الطبقة الوسطى آخذين انفسهم بمجاهدة خصومهم من اهل الطبقة العالية واذ كانوا اعز منهم نفراً واكثر غنى وأيداً انتهت بهم الحال ان ظفروا بهم فوصلوا اولاً الى وضع قوانين عامة للجميع وان يسمح بالزواج بين اهل الطبقة العالية والطبقة الوسطى وكان اصعب ما في هذا التغيير زرع الاستئثار بلاطة الحكم او الذهاب بفضل الشرف وقد كان الدين يأمر انه يجب قبل ان يعين رجل حاكماً ان يطلب من الارباب فيما اذا كانت توافق على انتخابه ام لا . فيسألون الارباب عن رأيها في ذلك يزجر الطيور ويسمونه اخذ الفأل . بيد ان الديانة الرومانية القديمة لم تكن تسمح باخذ الفأل الا على اسم رجل من اهل الطبقة العليا وما كان يحظر في بال القوم بان الارباب يقولون بحاكم من اهل الطبقة الوسطى . وكان ثمة امر كبرى من الطبقة الوسطى تحرص على ان تصح مساوية لامر الاشراف في تولي المناصب كما كانت تساويها في الغنى والمكانة فاضطر اهل الطبقة الاولى الى ان تنسج لها جميع المناصب شيئاً فشيئاً فيدوا يدخلون في مجلس القناصل سنة ٣٦٦ وفي مجلس الحكم ٣٥٥ والقضاء سنة ٣٢٧ والمراقبة سنة ٣٣١ وزعامة الدين الكبرى سنة ٣٢٢ ومن ذلك العهد امتزج الاشراف اهل الطبقة العليا باهل الطبقة الوسطى واصبحوا شعباً واحداً .

الديانة

ارباب الرومان — اعتقد الرومان كاعتقاد اليونان بان كل ما يحدث في هذا العالم

هو مما قضت به ارادة خالق ولكنهم لم يعتقدوا بأنه واحد يدبر العالم بل قالوا بتعدد الارباب بتعدد المظاهر المختلفة التي تُجلى فيها اوامرهم ونواهيهم . فهناك رب ينبت البذر وآخر يحمي حدود الحقول وثالث يحرس النار . ولكل رب اسمعه وجنسه وعمله . وام الارباب «المشتري» رب السماء و «جانوس» ذو الرأسين و «المرىخ» رب الحرب و «عطارد» رب التجارة و «فولكان» رب النار و «نبتون» رب البحر و «سريس» ربة الحصاد والارض والقمح و «جونون» و «منيرفا» .

ثم يجيء الارباب من الدرجة الثانية فكانت تُعبد في بعض تلك الارباب صفة من الصفات كالثناء والاتحاد والراحة والسلام ويشرف بعضها على عمل من اعمال الحياة فعند ما يولد المولود يأتيه رب يعلمه الذئقي وربة تعلمه الشرب واخرى تقوى عظامه وربان يرافقانه الى المدرسة وآخران يرجعان به وبالجملة فانهم كانوا يعتقدون بوجود جيش من الارباب من الدرجة الثانية . ويعتقدون بان هناك ارباباً تحمي مدينة وحارة وجبلاً وغابة . ولكل نهر ولكل نبع ولكل شجرة ربٌ خاص بها حتى لقد قالت امرأة سالحة في احدى القصص من تأليف برون الكاتب اللاتيني «ان بلادنا غاصة بالارباب بحيث يسهل عليك ان تلقى فيها رباً من ان تصادف رجلاً» .

ولم يمثل الرومانيون كليونان اربابهم على صورة مخصوصة فقد مضى زمن طويل ولم يكن في رومية صنم فكانوا يبدون «المشتري» في صورة حجر و «مارس» على صورة سيف . ولم يعتقدوا الا مؤخراً باتخاذ الاصنام من الخشب على مثال اصنام الايتروسكيين واصنام الرخام على مثال اصنام اليونان ولم يتصوروا على العكس في اليونان ان بين الارباب صهراً ونسباً ولا عزوا اليهم قصصاً كما يفعل اليونان مع اربابهم ولا يعرفون لهم جنة يعتقدون فيها مجالسهم . وكان في اللغة اللاتينية لفظة مشهورة للتعبير عن الارباب وهي «التهليلات» فكانوا يعتقدون انها تهليلات قوة الالهية مجهولة . ولذلك لم يصورهم الرومان في صورة من الصور ولا نسبوا اليهم رحماً ولا صهراً ولا تاريخاً وكل ما كانت يعرف عن الارباب الرومانيين هو ان كل واحد منها يسيطر على قوة من قوى الطبيعة ويستطيع ان يعمل للناس الخير والشر على ما يحب ويهوى .

العبادة — قلنا يجب الروماني اولئك الارباب الجهنوميين الصغر الباردين . والمظاهر انه كان يخاف منهم فيخاف وجهه عند ما يتوسل اليهم وربما اتى ذلك لثلايق بصره عليهم ولكنه يذهب الى ان الارباب قادرين وان من يرضيهم يخدمونه . قل بلوت (الشاعر المزلي اللاتيني) ان الرجل الذي يرضى عنه الارباب يكسبونه مالا . ويعتقد الروماني

بان الدين عبارة عن مقايضة المنافع فيقدم المرء للرب نذوره وقرابينه ويمنحه هذا بعض المنافع فاذا قدم المرء ما يجب تقديمه للرب ولم يظفر بمقتضاه يعتبر نفسه قانطاً خدوعاً . ولقد قدم الشعب للارباب في خلال مرض القائد جرمانيكوس نذوراً تلقى عليه بالشفاء ولما ذاع خبر موته سخط العامة وقتلت المذابيح واثقت في الشوارع بتماثيل الارباب لان هذه لم تعمل . ما كان يرجى منها ان تعمل وهكذا فانا نرى الفلاح الايطالي لهدنا هذا يشتم القديس الذي لم يعطه ما طلبه منه .

فالعبادة اذاً عبارة عن القيام بما يرضى عنه الارباب من الاعمال والشعب بأنبيهم بالثبات والابتن والخر ويضحي لهم بالميوونات . وفي بعض الاوقات يخرجون تماثيل الارباب من معابدهم ويجمعونها على سرر ويولون لها وليمة ويقومون بما يقوم به الشعب في بلاد اليونان فيبنون لهم دوراً جبيلة وهي المعابد ويحتفلون بآربابهم .

ولم يكن يكفي في تعظيم ارباب الرومانيين ان ينفق الناس مالا في سبيل اكرامهم بل كانت تنظر الى الصور التي يقوم بها ذلك الاكرام فنقضي ارادتها ان تجري جميع اعمال التعب والنذور والالاعاب بما رسمته القواعد القديمة (الطقوس) فتى أريد تقديم ضحية للشئري كان عليهم ان يختاروا حيواناً ايض وان يذروا على رأسه دقيقتاً ملحاً وان يضرب بفأس وان يقف المقدم لهذه الضحية على قدميه ويدها مرفوعتان الى السماء حيث يقيم المشتري وان يلفظوا بجملة تقديساً لاسمه . فاذا غلط المقدم بما يقول فعنى ذلك ان الضحية لا تساوي شيئاً ويذهب القوم الى ان الرب لا يرضى عما قدم له . ولقد قام احد الحكام بالاعاب اكراماً للارباب الحامية لرومية فقال شيشرون « اذا غيرت عبارة واذا وقف اللاعب بالشباب او انقطع الممثل فتكون الاعلااب غير موافقة للشعائر الدينية فيجب اذ ذاك اعادتها » ولذلك كان اهل الرأي من الناس يحضرون كاهنين احدهما يتلو الصلاة والاخر يتابعه فيما يقول يجتمع الكهنة وهم يدعون « اخوة ارفال » كل سنة في معبد بجوار رومية فيرقصون رقصاً مقدساً ويتلون الصلوات وهي مكتوبة بلغة قديمة لا يفهم منها احد شيئاً ويقضي في اوائل الصلاة ان يدفع الى كل كاهن مجموع قوانين مكتوبة في اول الجلسة . وظل الرومانيون بعد ان نسبت هذه اللغة بقرون يتلونها كل سنة دون ان يغيروا منها حرفاً . وما يدل على ان الرومانيين كانوا يرمون الى الوقوف عند حد ما رسمه اربابهم هو انهم كانوا يقومون احسن قيام بقواعد الدين . ولذلك يرى الرومانيون انفسهم من اكثر البشر تدنياً . قال شيشرون « اتنا احط من جميع الامم او مساوون لهم من كل وجه ولكننا نقوقهم من كل وجه في امور الدين اي بعبادة الارباب » .

الصلاة — اذا صلى الروماني فليست صلاته لتركبة نفسه ومناجاة ربه بل ليطلب منه معونة ويسأله حاجة له . فمن ثم تراه يبحث قبل كل شيء عن الرب الذي يستطيع ان ينيله رغبته . قال فارون (الشاعر اللاتيني) : « يلزمنا ان نعرف اي الارباب يتيسر له ان يعيننا في احوال مختلفة كما نعرف اين يقوم التجار والحجاز » وهكذا نفت الحال بان يعمد الى سويس للحصول على زروع جيدة والى عطارد لا كتنساب المال والى نبتون للمعونة على ركوب البحار . فيلبس المستغيث البسة نظيفة لما وقر في الاذهان من ان الارباب يرغبون في النظافة . ويقدم بين يدي نجواه ضحية لان الارباب لا يحبون من يجيىء وايدبه فارغة ويقف المستغيث وقد كشف رأسه فينادي الرب الا انه لا يعرف اسم الرب الذي يناديه ويقول الرومانيون انه ما من احد يعرف اسماء الارباب الحقيقية . بل يكتمني بان يقول له مثلاً : « ايها المشتري الاعظم الرحيم او باي الاسماء تحب ان تدعى بها » ثم يمرض عليه ما يريد عرضه متوقفاً استعمال جملة صريحة كل الصراحة حتى لا يتخذه الرب فاذا قدم له خمر يقال له : « ثقب طاعة هذا الخمر الذي أهرقه » لانه يسهل على الرب الاعتقاد بانه يقدم له خمر آخر غير الذي قدم له وان يعاقب به . ولذلك كانت صلواتهم مطولة كثيرة الحشو مملوءة بالترادفات .

انفال — يعتقد الرومان كاليونان بالفأل فيذهبون الى ان الارباب يعرفون المستقبل ويرسلون للناس آيات يدركونها فيستنصح الروماني الارباب قبل ان يشرع في عمل فاذا ما ازمع القائد فيهم ان يهجم على عدوه يبحث في احشاء الموتى والحماكة قبل ان يجمع لديه مجاساً ينظر الى الطيور السائرة (وهذا ما يدعونه اخذ الطالع والفأل) فاذا كان فيها اشارة موافقة يدركون بان الارباب استحسنوا اشروع والا فتمناه انهم غير راضين عنه .

وكثيراً ما يرسل الارباب بالآيات من قبلهم ومن دون ان يسئلوا ارسالها . وكل ظاهرة لم تكن متوقعة تعد فألاً على حادث غير منظر . فقد ظهرت نجمة مذنب قبل موت قيصر فذهب القوم الى انها اشارة الى نفيه واذا ارعدت السماء عند ما كانت الامة تجتمع للمفاوضة في امر فعنى ذلك ان كوكب المشتري لا يجب ان يتوا اسراً ذلك اليوم ولذلك يمتصون كل حادث طفيف ويؤولونه بانه رمز الى امر يقع . فاذا ابرق البرق او سمعت كلمة من متكلم او وقف جرد في الطريق او شوهده عراف فكل ذلك يأخذون منه العبر حتى ان مارسولس كان اذا عزم على البداية بعمل امر بان يحمل في محفة مغلقة ليكون على ثقة من انه لا يرى شيئاً يتفاهل به .

وما كان ذلك مجرد خرافات للعامة بل كان للجمهورية الرومانية ستة طوابع لتنبأها

بالمستقبل فكان لها كتاب للتبوّات تبالغ في المثابة به دعته كتاب « سيبيلين » وكان لها فرائخ مقدسة يقوم على تزيينها الكهنة وما كان يجري عمل عام ولا تلتئم جمعية ولا يشرع بانتخاب ومفاوضة بدون ان يعمدوا الى اخذ الطالع اي انهم ينظرون الى السارح والبارح . وقد شاع سنة ١٩٥ ان الصاعقة انقضت على معبد للثتري وانه نبئت شمرة على رأس تمثال هر كول فكُتب احد الولاة بانه ولدت فرخة ذات ثلاث ارجل فاجتمع مجلس الامة للمفاوضة في هذه القول .

الكهنة — لا يقوم الكاهن في رومية بما يقوم به في بلاد اليونان من الاعمال الروحية بل كان ينقطع فقط لخدمة الرب فيلاحظ معبده ويدير شؤون املاكه ويقوم بالاحتفالات لاكرامه وهكذا كانت جمعية السالين (الرقاصين) تحفظ بترس سقط عليها من السماء كما زعموا وكان يعبد كما يعبد الصنم وكانت تقيم تلك الجمعية كل سنة حفلة رقص بالسيوف وهذا ما كانت تتوفر عليه اعضاء تلك الجمعية . والاحبار يراقبون الحفلات الدينية فيضعون ثقوباً للسنين ويحددون اوقات الاعياد التي يجب الاحتفال بها في ايام مخصوصة من السنة ورئيسهم هو الخبير الاعظم .

وما كان الكهنة ولا العرافون ولا الاحبار يؤلفون طبقة خاصة بهم بل يجري اختيارهم من كبار الرجال ويقومون على القيام بجميع وظائف الحكومة فمنهم من يتولى القضاء ومنهم رئاسة الجمعيات ومنهم قيادة الجيوش . ولذلك لم يتألف من الكهنة الرومانيين على قوتهم كما تألف من الكهنة المصريين طبقة كهنوتية فقد كان للحكومة رومية دين خاص بها ولم يكن للكهنة حق الحكم فيها .

عبادة الموتى — اعتقد الرومانيون كما اعتقد الهنود واليونان بان الروح تبقى بعد موت الجسد فان عُنوا بدفن الجثة بحسب العادات فقد اعتقدوا بان الروح تذهب لتجيا تحت الارض وتصبح ربة والا فالروح ليس في استطاعتها الدخول الى عالم الاموات بل كانت تعود الى الارض تدخل الرعب على قلوب الاحياء وتمذهبهم ليدفنها . حكى بلين لجون قصة شيخ كان يختلف الى احد البيوت ويهلك سكانه هلعاً فاكشف احد الفلاسفة ممن كان له قوة قلب تمكنه من اقتفاء اثره الى المكان الذي وقف فيه ذاك الطيف — عظاماً لم تدفن بحسب العادات المتبعة . وهكذا كانت روح الامبراطور كاليغولا تطوف في حدائق القصر فاقتضى اخراج جسده ودفنه ثانية على ما رسمته الشائير الدينية .

فن ثم كان مما بهم الاحياء والاموات على السواء المحافظة على العادات الدينية فكانت أسرة الميت تنصب كومة حطب يحرقون فيها الجسد ويحسبون الرماد في صندوق يسمونه

في القبر . وكان لهم معبد صغير خاص بدفن ارواح الارباب اي الارواح التي اصحت ارباباً فيأتي اهل الميت في اوقات معينة الى زيارة القبر حاملين طعاماً . لا جرم انهم اعتقدوا قديماً ان الروح محتاجة الى الغذاء لان القوم كانوا يهرقون الخمر واللبن على الارض ويحرقون لهم المنكوبين ويتركون في الاواني لبناً وحلاوى . وكانت هذه الاحتفالات بالموتى تدوم ما شاء الله ان تدوم وما كان لاهل بيت ان يتخلوا عن ارواح اجدادهم بل يظلمون على العناية بقبورهم ويأتونهم بالغذاء لاطعامهم . ثم ان تلك الارواح التي لتأله او تصير في عداد الارباب تحب ذريتها وتحمي احفادها من البوائق وهكذا كان اكل أسرة ارباب يحمونها يدعونها آلهة البيت .

عبادة البيت - اعتقد الرومان كاعتقاد الهنود بان الالهيب رب كما ان البيت مذبح فكان لكل أسرة بيت تعبدونه ويقومون على العناية به ليل نهار تحمل اليه الزيت والشحم والخمر والبخور فيتصاعد الالهيب ويطمع كأنه منبث من الفخمية . فكان الروماني قبل ان يبدأ بتقديم الطعام لبيت يشكر لرب البيت ويدفع اليه جزءاً من الاطعمة ويصب له قليلاً من الخمر وهذا ما يدعونه بالصب والاهراق حتى ان هوراس نفسه على قلة اعتقاده كان يتعشى امام بيته مع خدمته ويصب الطعام ويصلي الصلاة المعتادة

وكان لكل أسرة رومانية في بيتها قبر جعل فيه ارباب البيت وارواح الاجداد ومذبح البيت . وكان لمدينة رومية نفسها بيت مقدس في قبر الالهة فسنا وهي عبارة عن اربع عذارى من اعظم الاسرات الرومانية عهد اليهن حراسته وذلك لانهم يرون ان لا ينطفيء الالهيب المقدس مطلقاً ولا يهد بالقيام عليه الا لانس من الاطهار فاذا ابت احدى تلك العذارى ان تقوم بما فرض عليها التوفر عليه من هذه الخدمة يدفونها حية في قبر لانها ارتكبت عملاً طالحاً واوقمت الشعب الروماني في خطر .

الجيش الروماني

الخدمة العسكرية - لم يكن يكفي لقبول الرجل في خدمة الجيش الروماني ان يكون وطنياً رومانياً بل يجب ان يكون له بعض الموارد ليجهز نفسه بالسلاح على نفقته لان الحكومة لم تكن تعطي الجندي سلاحاً حتى انها لم تكن تعطيه جراحة بأكلها الى سنة ٤٠٢ وعلى هذا فلم يكن يجند من الوطنيين الا من كانوا يملكون بعض ثروة اما الفقراء فكانوا يدفعون من الخدمة العسكرية وبعبارة ثانية ليس لهم الحق في خدمتها ويحق كل وطني له بعض الغنى ان يقبل في الجيش مدان يكون الى بلاستيستا في عشرين حملة واذا لم يبق بذلك فهو تبع للقائد اي منذ سن السابعة عشرة الى السادسة والاربعين فكل فرد في

رومية كما في المدن اليونانية وطني وجندي في آن واحد والرومان امة مؤلفة من صفار ارباب الاملاك المدربين على القتال .

التجنيد - متى احتاجت الحكومة الى جند يصدر القنصل امره الى جميع الوطنيين اللاتنيين للخدمة بان يجمعوا في معبد الكابيتول وهناك يلتئم ضباط تختارهم الامة وهم يختارون من ينبغي لهم من الجند لتأليف جيش وهذا هو التجنيد عند الرومانيين ويسمونه الاختيار . ثم يجري التحليف العسكري فيبدأ الضباط اولاً يقسمون اليقين المألوفة ثم الجند وكلهم يقسمون على الطاعة للقائد وان يقاتلوا دون اعلامهم حتى يكونوا في حل من ايمانهم في نظره . فيتلو رجل عبارة ويتقدم كل فرد في نوبته فيقول « وانا ايضاً » فيرتبط الجيش اذ ذاك بالقائد ارتباطاً دينياً .

دُعِيَ الجيش الروماني اولاً الفرقة او التجنيدة ولما نما الشعب اصبح يؤلف بدل الفرقة فرقاً والفرقة الرومانية عبارة عن ٤٢٠٠ او ٥٠٠ رجل كلهم من ابناء البلاد . وكان اصغر جيش على الاقل عبارة عن فرقة وكان كل جيش بقيادة فصل عبارة عن فرقتين على الاقل . ويتألف نحو نصف الجيش من هذه الفرق وكان على جميع شعوب ايطاليا الخاضعة لرومية ان تبعث اليها يعوشها وبدعى هؤلاء الجنود « المحالفون » وهم تحت قيادة الضباط الرومانيين . وكنت ترى المحالفين في الجيش الروماني اكثر عدداً من كتائب الوطنيين . وجرى العادة ان يعثوا مع كل اربع فرق (١٦٨٠٠ جندي) عشرين الف راجل من المحالفين وهكذا كان الشعب الروماني في حروبه يستقدم رعاياه اكثر من مواطنيه .

التسلح - اعتاد الرومان كاليونان ان يحاربوا مترجلين متدرعين بالدرع والخطو والماسي (الطماقات) قابضين بايديهم اليسرى على ترسة ليدفعوا بها الضربات . مضى عليهم زمن وهم يقاتلون بالرمح والسيف فكانوا اذا تلاقوا بالعدو يجمعون كتيبة واحدة على نحو ما كانت تجمع الكتائب الرومية ثم عمدوا الى استعمال ضرب آخر من ضروب الكر والفر . ونقسم الفرقة الى سرايا صغيرة كل سرية مؤلفة من ١٢٠ جندياً « مانيبول » اي الفرقة لان علمهم عبارة عن حزمة من الحشيش فنصطف كل فرقة على شكل رقعة الشطرنج على ثلاث خطوط وكل فرقة منفصلة عن جارتها بحيث يكون المجال امامها متسعاً للعمل على حداثها فيضرب جنود فرق الصفوف الاولى بحراهم ويضعون سيوفهم في ايديهم ويدوثون بالقتال . فاذا اندحروا يتراجعون الى الفضاء الذي وراءهم فيزحف الصف الثاني من الفرق في نوبته الى القتال فاذا ما دُحر ينكفي راجعاً نحو الخط الثالث . وهذه الفرق

هي خيرة رجال الجيش يحملون الرماح وهم واسطة اقيادة اخوانهم الآخرين لقتال الاعداء بهم .

وبعد فان الجيش الروماني لا يتألف جملة واحدة للقتال في آن واحد بل ان القائد يعي جنده مراعيًا حالة الارض التي يتخذها ساحة لقراع الاعداء . ولما التقى كتائب جنود الرومانيين وفرق المكدونيين في جبال سينوسيفال في نساليا للمرة الاولى وهما اشهر ما عهد من الجيوش في العهد القديم كان ميدان القتال عبارة عن أكمات وتلعات فلم يكن سبب إمكان الستة عشر ألف محارب من المكدونيين ان يظفوا متأسكين متجمعين بل كانت صفوفهم ذات فروج فزحفت الفرق الرومانية ودخلت الفضاء الذي كان يتخلل صفوفهم ومزقت شملهم كل ممزق .

التدريبات — لم يكن لرومية محال للالعاب الرياضية فكان الجنود يترنون في ساحة المناورات اي في ساحة المريج من الضفة الثانية من نهر التيبر وهناك كانت الشاب يسير ويعدو ويقفز وعليه العدة الكاملة من السلاح يلعب بـيفه ويضرب بحرته ويستعمل معوله فاذا ما علاه الفبار والعرق يمتاز نهر اتيبر عائماً . وكثيراً ما كان الرجال المدربون بل والقواد يشاركون فتيان الجند في تمارينهم اذ كان من دأب الروماني ان لا ينقطع عن التمرين حتى كانت القاعدة المتبعة اذ ذاك ان لا يترك الجنود حتى في الحرب بلا عمل فيترنون مرة في اليوم على الاقل ويشغلونهم بانشاء الطرق والجسور والمجاري اذا لم يكن امامهم تدو يقاتلونه ولا متاريس يقيمونها .

المسكر — يحمل الجندي الروماني حملاً ثقيلاً مؤلفاً من سلاح واوان واطعمة تكفيه اياماً وتند وبلغ وزن مجموعها ستين رطلاً رومانياً واذا تلاقى الجيش بجيش العدو يسهل عليه الحرب بسرعة اذ لا يكون له من الاثقال ما يشغله .

وكل مرة كان يريد الجيش الروماني الوقوف ليسكر يخطط المساح نطاقاً مربعاً ويحفر الجند في محيط ذاك النطاق حوة عميقة ويقون التراب من ناحيتهم في الداخل يكون مخدراً يضربون فيه اوتاداً وهكذا يكون المسكر محيماً بنطاق من اوتاد وارض ذات وهاد وفي داخل هذه النقلة الموقفة يضرب الجنود خيامهم ويحملون سراق القائد سبب الوسط وبقى الميون والحراس طول الليل يحرسون المسكر وهكذا يكون الجيش في مأمن من كل عدو مفاجي .

تعليم الجند — يعلم الجيش الروماني تعليماً قاسياً فيحق للقائد ان يمت جنده او يبي عليهم والجندي الذي يترك محله او يركن الى الفرار في الزحف يحكم طيه بالموت

فيربطه حملة القوس بعمود ويضربونه بالعصي ويقطعون رأسه او يقع عليه الجذع
فيضربونه بالعصي .

واذا تمردت كتيبة من الجيش يقسم القائد المجرمين الى عصابات كل عصابة مؤلفة
من عشرة اشخاص يقتربون في كل عصابة على واحد يكون نصيبه الاعداء ويسمون هذه
التعشير اي اخذ واحد من عشرة اما الباقيون فيقفض عليهم بان يعطوا خبز شعير ويتركونه
بمسكون خارج المعسكر ليكونوا ابداً على خطر من مفاجأة العدو لم .

لا يقبل الرومانيون ان يغلب جندهم ولا ان يؤسروا فقد سلم من القتل ثلاثة آلاف
جندي بعد وقعة « كان » وراحوا يهيمون على وجوههم الا ان مجلس الشيوخ ارسلهم
يخمدون في صقلية بدون جرات ولا القاب شرف ربثا يخرج العدو من ايطاليا وبقي ثمانيا
آلاف جندي في المعسكر قبض عليهم وقد عرض هانيبال ان يعيدهم الى الحكومة لقاء
فدية طفيفة تدفعها عنهم فالى مجلس الشيوخ ان يقتديهم .

الغلبة — متى كتب الظفر لاحد القواد يصدر مجلس الشيوخ امره اليه بان يحتفل بما
تم له من الغلبة دليلاً على تشريفه فيحتفل بذلك احتفالاً دينياً في معبد المشتري فيسير
في المقدمة الحكام والشيوخ ثم تأتي العجلات مملوءة بالغانم والاسرى مقيدتين من ارجلهم
وفي المؤخرة عجلة مذهبة تجرها اربعة جياد يأتي القائد الغازي متوجاً بالغار وجنده
يتبعونه مترنمين بادوار دينية يرددون فيها اسم الظفر فيحتار هذا الموكب المدينة بهذا الاحتفال
ويطلع الى معبد الكابيتول وهناك يضع الغازي اغصان الغار على ارجل المشتري ويحمده
على انه كان سبياً في نصرته وعند انتهاء الحفلة تضرب اعتناق الامرى كما فعلوا مع الزعيم
الغالي فرمجنور كس او ان يلقوا الاسير في مطبق (حيس مظلم) يموت جوعاً كما فعلوا مع
جوكورتا ملك فوميديا او انهم يكشفون بان يسجنوا الاسير . وقد دام ظفر بولس اميل
الذي تغلب على ملك مكدونية (١٦٧) ثلاثة ايام مرت في اليوم الاول ٢٥٠ مركبة تحمل
لوحات وقنايل وفي الثاني ما غنمه من الاسلحة و٧٥٠ برميلاً من المال وفي اليوم الثالث ١٢٠
ثوراً من ثيران الضحايا والملك برسي في المؤخرة لابساً السواد يحلف به خاصته مقيدتين
وثلاثة اولاد له مدوا ايديهم للامه يضربون اليها واخذوا يحركون شفقتها .

فتح ايطاليا — كان في رومية معبد خاص بالرب جانوس تبنى ابوابه مفتحة مادام الشعب
الروماني في الحرب . ولم يفتح هذا المعبد الا مرة واحدة دامت بضع سنين سيفاً خلال
خمسمائة سنة التي طال فيها عمر الجمهورية الرومانية وعليه فان رومية عاشت في حرب دائمة

واذ كان جيشها اقوى جيش في عصره انتهت بها الحال ان تغلب على جميع الشعوب الاخرى وان تفتح العالم القديم .

فبدأت إخضاع حيراتها أولاً فأخضعت اللاتينيين أولاً ثم الشعوب الاخرى النازلة في الجنوب مثل الفولسكيين والايكيين والمريكيين ثم الايتروسيين والسامنتيين ثم المدن اليونانية . وكان هذا الفتح من اشق الفتوح واباطه : بدأ على عهد الملوك ولم ينته الا في سنة ٢٦٦ اي بعد اربعة قرون (١) وذلك لانه كان على الرومانيين ان يقاتلوا شعبياً م وابام من عنصر واحد وهم على شاكلة في القوة والجد والشجاعة . ومن هذه الشعوب من ابى ابائها ان تخضع للرومان فما كان من رومية الا ان ابادتهم فاصبحت سهول فولسكا الغنية فقراً ذا بطائح ومستنقعات ولم تعد بطائح يونتتين صالحة للسكنى حتى يوم الناس هذا وقد كانت بلاد السامنتيين تعرف بعد ثلثائة سنة من الحرب التي وقعت فيها بما بقي فيها من بقايا المماريس اكثر مما تعرف بخوارها من السكان وكان فيها ٤٥ معسكراً للإمبراطور ديسوس و٨٦ للقائد فايوس .

الطرق العسكرية — اقام الرومانيون في جميع ايطاليا طرقاً عسكرية ليتسنى لهم ان يبعثوا بالبعوث الى القاصية وكانت هذه الطرق عبارة عن طرق مستقيمة مرصوفة بالحجر والحجر والرمل وبلغ من متانتها انها صبرت على الايام خلال ذلك العهد برمته . وقد اكثر الرومان منها في عامة بلاد ايطاليا فليس فيها بقعة لا ترى فيها الى اليوم اثرًا من آثار تلك الطرق الحربية وكانوا يسمونها باسم الوالي الذي امر ببنائها واهم هذه الطرق طريق ابين الممتد الى الجنوب الى بطائح يوتين حتى ترانتا وبرندس ثم طريق فلانتين الذي يجتاز طريق ابين و يصل الى بحر الادرياتيك وطريق اورلين الذي يقطع اقليم طوسكانيا آخذاً الى الشمال على طول الشاطئ حتى بلاد الغال ثم طريق الامين الممتد من بحر الادرياتيك مجتازاً جميع سهل « يو »

فتح حوض البحر المتوسط

صبغة الدياسة الرومانية — لم يخطر للرومان ان يفتحوا العالم أولاً حتى انهم تمهلوا بعد ان بسطوا حكمهم على ايطاليا وقرطاجنة مدة مئة سنة قبل ان يخضعوا الشرق الى سلطانهم

(١) لم يكن للرومانيين من اخبار جميع هذه الحروب في ايطاليا سوى اساطير لفتى اكثرها ليكون منها دليل على رجولية بعض اجداد احدى الاسر الشريفة

والظاهر انهم فتحوا فتوحاتهم دون ان يخطوا لها خطة من قبل لان مصلحتهم كلها كانت بان يفتحوا الفتوح ويدخروا الممالك .

فكان يرى الحكام وهم قواد الجيوش من الفتوحات فرصة لئيل علام الشربف بالظفر الذي يكتب لم ويكونون على ثقة من الاشتهار بين أمتهم والتأثير فيها . وكان أعظم رجال الحكومة في رومية مثل بابيريوس وفايوس وسبيون الاول والثاني وكانوا من القواد الذين فتحوا الفتوح وكتب الظفر لعلامهم . ويرجع الاشراف الذين تألف منهم مجلس الشيوخ اذا كثر سواد رعايا رومية فيذهب اليهم كما يذهب الحكام لقبول احترامهم وهداياهم . اما الفرسان أي الصياف والتجار وأرباب المصاريع فان كل فتح حديث كان لهم بمثابة مشروع جديد يستثمرونه

والامة نفسها تنتفع من الغنائم التي تؤخذ من العدو . وقد رفعت الضرائب بصورة دائمة بعد ان دخلت خزانة الدولة الرومانية كنوز ملك مكدونية . اما الجنود فكانوا يقبضون رواتب عالية من قوادهم وقد أخذوا بحاربون البلاد الغنية دع عنك ما كانوا يمدون اليه ايديهم من مال المغلوبين . وعلى هذا فقد فتح الرومان العالم للقوائد المادية اكثر من المجد

قرطاجنة — لما امتد سلطان رومية الى جزيرة صقلية حملت على قرطاجنة وعندئذ بدأت الحروب الفينيقية فحدثت ثلاث حروب فكانت الحرب الاولى من سنة ٢٦٤ — ٢٤١ حرباً بحرية ولا تعرف عنها شيئاً الا ما روته الاساطير بعد زمن من حدوثها . فذكروا ان الرومانيين لم يملكوا سفناً بحرية قط وانهم جعلوا قنهم على مثال سفينة قرطاجنة وقامت بالعرض في الشاطئ فأخذوا يرمونون مجذفيهم على استعمال المجاذيف على اليابسة . وهذه القصة لا اساس لها لان بحرية رومية قديمة اما الرومان فقد نقلوا اخبار هذه الحرب كما يلي : غلب القنصل دو بليوس الاسطول القرطاجني في ميلي (٢٦٠) وكان نزل الى افريقية من البحر جيش روماني على عهد اخا كمرجولوس فغلب وتمزق شذر مذر (٢٥٥) وأمر رجولوس وأرسل الى رومية ليعقد الصلح وقرر مجلس الشيوخ ابقاء الصلح فرجع هذا الى قرطاجنة حيث قضى نجه في العذاب . ثم حمي وطيس الحرب في صقلية فكثبت الغلبة للاسطول القرطاجني اولاً (٢٤٩) ثم دمر بالقرب من جزائر ايفات (٢٤١) وبعد ذلك حوصرها مليكار في جبل اركيس فوقع على الصلح ودخلت صقلية في حوزة رومية

ونشبت الحرب الثانية (من سنة ٢١٨ الى ٢٠١) وكان قائدها هانيبال من نسل الاسرة القرطاجنية صاحبة الحول والسطوة في بادكاس وكان قادروه هاميكار الى صقلية جيشاً قرطاجنياً في الحرب الفينيقية الاولى ثم عهد اليه ان يفتح اسبانيا وكان هانيبال اذ ذاك طفلاً

فصعبه ابوه . وكانت العادة ان تقدم الضحايا للارباب عند ما يبادر الجيش البلاد ويقال ان هامليكاز بعد تقديم الضحايا حلف ابنه ان يكون ابداً عدواً ازرق للرومان
 ربي هانيبال وسط الجند فأصبح احسن قائد وامهر راجل في حرب . ولم يكن يعرف من الحياة الا انه محارب وكانت عنايته منصرفة الى تعهد حصانه وأسلحته واشتهر أمره كثيراً حتى اذا هلك القائد اسدروبال الذي كان يقود الجيش الاسباني انتخبوه قائداً عليهم دون ان ينظروا أوامر مجلس الاعيان القرطاجي في ذلك . وهكذا أصبح هانيبال سيف الحادية والعشرين من عمره قائد جيش لا يطلع أحد سواه فدخل غمار الحرب على الرغم من مجلس الشيوخ في قرطاجنة وراح يحاصر ساغونت حليفة رومية فاستولى عليها وخرّبها وما كتب به الجند لهانيبال انه عوضاً عن ان ينظر الرومانيون جرأً على ان يقتحمهم في عقودارهم من بلاد ايطاليا ولم يكن له اسطول يحمله وجيشه اليهم فعزم على اجنيز البلاد اليهم براً فقطع جبال البيرنيه ونهر الرون وجبال الالب وفيمن لنفسه معاناة الشعوب الغالية وقطع جبال البيرنيه دون أن يلقى فيها مقاومة في جيش مؤلف من ستين ألف مقاتل من الجنود المستأجرة من الافريقيين والاسبانيين ومعه سبعة وثلاثون فيلاً مدربة على الحرب وقد طمع بعض الشعب الغالي ان يحولوا بينه وبين المسير في نهر الرون فأرسل هو فرقة من جيشه تقطع النهر على مسافة بضعة أميال من اعلاه وتهاجم الغاليين من ورائهم على حين يمتدحز معظم جيشه النهر على زوارق وتجبر القيلة على ارمات كبيرة . ثم صعد وادي ايزر وانتهى الى جبال الالب في أواخر شهر تشرين الاول (أكتوبر) فقطعا على ما كانت مفضاة به من الثلوج وعلى الرغم من غارة السكان الجبليين عليه فوقع كثير من الرجال والخيول في الهاويات . وقضى تسعة أيام ليلوغ فة جبل الالب وصعب عليه النزول لان المضيّق الذي كان يجب عليهم السير فيه غطته الثلوج والصقيع فاقتضى لجيشه ان يتخذ له طريقاً يحفّره في الصخر ولم يصل الى السهل الا وقد اصبح جيشه نصف ما كان . ثم لقي هانيبال ثلاثة جيوش رومانية في مسافة متدانية على شاطئ نهر تيسين وضفة نهر ترييا وبالقرب من بحيرة ترازيمين في اتروريا فهزمها كلها وكان كلما تقدم الى الامام يزداد جيشه وينضم الحاربون من الغاليين « ايطاليا الشمالية » تحت لوائه ليخدموه وينصروه على الرومانيين

فاجتاز هانيبال ايطاليا واتخذ لنزوله اقليم ابوليا في الجهة الثانية لرومية فهاجمه فيها الجيش الروماني . وكان جيشه نصف جيش ولكن كان معه فرسانه الافريقيون يركبون خيولاً سريعة وقد رابط في سهل « كان » بحيث جعل الرومانيين يقابلون بوجوههم الشمس والثراب الذي تنيره الريح فاحاط الفرسان بالجيش الروماني احاطة السوار بالمعصم وذبحوه

عن آخره (٢١٦) وكان يظن ان هانيبال سيزحف على رومية الا انه لم يكن على نصية تامة . وهكذا ظل هانيبال في ايطاليا الجنوبية تسع سنين يحاول ان يفصل عن رومية الشعوب المخالفة لها ولم ينجح الا بالاستيلاء على بضع مدن حاصرها الرومان وغربوها وبعد ذلك سافر اخوه اسدروبال في جيش اسبانيا للالتحاق به فوصل الى اوساط بلاد ايطاليا فسار الجيشان القرطاجيان احدهما على الآخر يقابل كلاً منهما جيش روماني بقيادة احد حكام الرومان . وكان نيرون معاذياً لهانيبال فجراً على قطع ايطاليا الوسطى لينضم الى رصيفه مقابل اسدروبال . ولقد سمع اسدروبال في صبيحة ذات يوم الاوراق تبوق مرتين في المعسكر الروماني وكان في ذلك اشارة الى انه كان في المعسكر قصصان او حاكبان فوق في نفسه ان اخاه غلب وانهمز وان الرومان بطاردونه وانه قتل وذبح جيشه عن بكرة ابيه ثم رجع نيرون الى الجيش الذي غادره امام هانيبال والتي في معسكر قرطاجنة رأس اسدروبال (٢٠٧)

فلم يبق لهانيبال غير قوته يعتمد بها واقام خمس سنين في اقليم كالابروماأ كره على الخروج من ايطاليا الا لما علم بان جيشاً رومانياً كان نزل الى افريقية واخذ يهدد قرطاجنة فذبح هانيبال الجند الايطالي الذي ابي الالتحاق به وركب البحر الى افريقية (٢٠٣) وانتهت الحرب بوقعة زاما (٢٠٢) وكان هانيبال اعتمد بحسب عادته ان يسوق الجيش الروماني الى الدخول في صفوفه ولكن القائد الروماني سيبون ثبت مع جيشه وما كانت الا هزيمة واختها حتى ركب هذا اكتاف عدوه وهزم جيشه شراً هزيمة .

فاضطرت قرطاجنة الى عقد الصلح وتنازات عن كل ما تملكه خارج افريقية وترك اسبانيا للرومانيين . واضطرت زيادة على ذلك الى تسليم سفنها وقيلتها وان تدفع مبلغاً من المال يربو على خمسين مليوناً من الفرنكات وتعهدت بان لا تعلن حرباً قبل الاستئذان من رومية . وكانت عاقبة الحرب الثالثة (من سنة ١٤٩ الى ١٤٦) القضاء على قرطاجنة فطال حصار الرومان كثيراً لها حتى اخذوها عنوة وجعلوا عاليها سافلها وقتلوا اقليتها واعمالها وجعلوها ولاية افريقية خاضعة لسلطانهم .

مكدونية والشرق - كان ملوك اليونان اخلاف قواد الاسكندر انقسموا الشرق وحارب اعظمهم سطوة مملكة رومية وغلّبوا مثل ملك مكدونية فيليب سنة ١٩٧ وابنه برسي سنة ١٦٨ وملك سورية انطيوخوس سنة ١٩٠ وهكذا خلا الجو للرومانيين فاخذوا يفتحون البلاد التي يرونها تناسبهم واحدة بعد اخرى فافتحوا مكدونية سنة ١٤٨ ومملكة فرغانة (١٢٩) وبقية آسيا (من سنة ٧٤ الى ٦٤) بعد هزيمة ميتريداتس ومصر (٣٠)

وما عدا مكدونية لم يندب الشرق لقنالم غير جنود مستأجرة او برابرة غير منظمين ينقرون ايدي سبا لاول صدمة يلقونها . ولم يقتل في الغلبة العظمى على انطيوخوس في مانيزيا سوى ٣٥٠ جندياً رومانياً وانفخر سيالاً بأنه لم يفقد من جيشه في شيرونيا سوى اثني عشر جندياً .

ودخل الرعب قلوب سائر الملوك تخضعوا السلطان مجلس الشيوخ من دون مقاومة فان انطيوخوس العظيم ملك سوزية بعد ان فتح جزءاً من ديار مصر جاءه بوبليوس مندوباً من قبل مجلس الشيوخ بأمره بالجلاء عما بسط يده عليه من البلاد فتردد انطيوخوس وكان ييد بوبليوس محبته فاخطب بها في الارض خطوطاً حول ملك سورية وقال له : اوجب مجلس الشيوخ قبل ان تخرج من هذه الدائرة التي رسمها لك . فلم يسمع انطيوخوس الا الخضوع والتي حبلى مصر على غاربها . وجاءه بوزياس ملك يفتيا وقد حلق رأسه ولبس ثياب العبد المنق وركع امام مجلس الشيوخ الروماني . وحاول ميتريدانس ملك يون ان يقاوم وحده فطرد من بلاده بعد حرب خمس وعشرين سنة (٦٣ - ٨٩) واضطر الى ان يتناول السم ويقول يدي لا ييد عمرو .

اسبانيا وغاليا الجنوبية — لم يستطع الرومان ان يثقلوا على الشعوب البربرية والمحاربين في الغرب بادنى سبب كما تغلبوا على غيرهم فقصوا قرناً لاختضاع اسبانيا لسلطانهم . وقد ناولهم الحرب في جبال البرنتال رجل من الرعاة اسمه فيرياث (١٤٩ - ١٣٩) وهزم خمسة جيوش واكره احد قناصل الرومان على عقد الصلح معه ولم يتخلص مجلس الشيوخ من شره الا بقتله . واهلك الاريفاكين وهم شعب صغير في الشمال الشرقي عدة جيوش رومانية واقتضى لرومية ان ترسل احد قوادها سبيون للاستيلاء على عاصمة تلك البلاد وهي المدينة الصغرى المسماة نومانس . وكانت الشعوب الصغيرة الخاملة في صيتها المعتصمة في جبال جين كثيراً ما ناولوا الرومانيين القتال . وكان الغاليون اشد الاعداء على رومية وهم منتشرون في جميع سهل بويونخفون على ايطاليا الجنوبية وقد استولت احدى عصاباتهم على رومية سنة ٣٩٠ فكان جندهم يدخل الدرع على قلوب الجند الروماني باجسامهم الضخمة البيضاء وسبلاتهم الطويلة الشقراء وعميونهم الزرقاء واصواتهم التي تسمع فيبلغ صداها عنان السماء . والحوف يستولي على رومية عند ما يلقها عجيبة العسكر الغالي فيصدر مجلس الشيوخ امره بجمع عامة الجند .

وكانت هذه الحروب شديدة جداً ولكنها تضع اوزارها في الحال في الحرب الاولى استولى الرومان على اقليم غاليا المعروف بسيزالين اي ايطاليا الشمالية ونشبت الحرب الثانية

(١٢٠) للدفاع عن مارسيليا حليفة رومية فدمر الجيش الغالي واخضعت رومية بلاد الرون وشاطي البحر الرومي (اقليم لانكدوك وبروفانس ودوفينه)

غواقب الفتوح

سريان الاصطلاحات اليونانية — ان الفتوح هي التي دعت الرومان الى رؤية الروم والمشاركة عن أم فاستوطن رومية الوف من اليونان جاؤوها اسرى او للاتجار وتعاطى بعضهم الطب وآخرون التعليم وغيرهم العرافة وغيرهم التمثيل . وكان القواد والضباط والجنود الرومانيون يعيشون في آسيا وسط الشعوب التي تشكل اليونانية فخلقوا باخلاق باليونان وهكذا عرف الرومان عادات حديثة ومعتقدات جديدة لم يكن لهم بها عهد واخذوا يعملون بها على التدرج وقد بدأ هذا التبدل بعد الحرب المكيدونية الاولى (٢٠٠) ودام الى اواخر المملكة الرومانية القانندان كاتون وسبيون — بينما كانت الاخلاق تتغير اشتهر احد رجالهم كاتون باحتفاظه بعادات اسلافه . ولد هذا الرجل سنة ٢٥٢ في بلدة توسكولوم وقضى شبته في الحرث والكرث وفي السابعة عشرة من سنه دخل في الجيش بحسب العادة المتبعة واشترك في عامة الحملات على هانيبال . ولم يكن من الاشراف ولكنه اشتهر بقوته واستقامته وزهده وقد انتخب مرات وزيراً للمالية وناظراً للابنية والملاعب وقاضياً وقنصلاً ووكيلاً للإحصاء وشغل مناصب الشرف عامة وكان في جميع حالاته على قدم قدماء الرومان قاسياً جافاً مجتهداً وقد ونح فصله عند ما كان وزيراً للمالية وكان القنصل سبيون غالب هانيبال فاجاب لست في حاجة الى ناظر مدقق مثلك الى هذا الحد . ولما عين ناظراً للابنية والملاعب في ساردينيا ابى ان يمس المال الذي دفعته اليه تلك الولاية للنفقة . ولما صار قنصلاً تكلم بشدة عن قانون اوبيا القاضي بالخطر على النساء الرومانيات بان لا يتزين بالحلي الثمينة فظفر النساء بمطلبهن وألغى ذلك القانون . ولما ذهب لقيادة الجيش الروماني في اسبانيا اتى باموال طائلة دفعها الى خزانه الامبراطورية وباع حصانه عند ما ركب البحر ليقتصد من نفقات نقله ولما عين وكيلاً للإحصاء اسقط من قائمة مجلس الشيوخ عدة من الاعاظم لما عرفوا به من الترف والبذخ واحال جباية الاموال الاميرية بثمن عال وقدر حلي النساء وزيتهن وعربانتهن بعشرة اضعاف ما تساوي وبعد ان خفت له اعلام النصر لم يستكف من الخدمة في الجيش الروماني ضابطاً بسيطاً .

سرف كاتون حياته في مناهضة الاشراف والنفس من بذخهم وتزهم وتجملم وحمل خاصة على امثال القانند سبيون مثعاً اباهم بالاخلاص الا انه لم ينج هو ايضاً من الصاق التيم به فاتهم اربعاً واربعين مرة ولكنه كان يبرأ كلما اتهم . وكان يحرق ارضه مع عبيده

ويواكلهم ويضربهم بالعصي متى رآهم يحيدون عن جادة الصواب وقد ذكر في رسالته في الزراعة التي كتبها الى ابنه جميع ما كان يأتي الفلاحين الرومانيين من الإيرادات ويرى ان من الواجب على المرء ان يتقني وكان يقول : « للارملة ان تصرف من مالها وعلى الرجل ان يزيد وكل من شهدت دفاتر حساباته بعد موته بأنه ربح أكثر مما وورث جدير بالشهرة وملهم من الارباب » ولما رأى ان الزراعة لا تأتيه بارباح طائلة اخذ يقرض ماله ليجوز به سفناً تجارية واتخذ له خمسين شريكاً جهزوا كلهم معاً خمسين سفينة ليتقاسموا بينهم الاخطار التي تنال سفنهم والارباح التي تأتيهم بها . وعلى هذا كان كثيرون زارعاً ماهراً وجندياً عظيماً عدواً للبخس حرصاً على الكسب فهو مثال الروماني الاصيل وانموذج الفضيلة والنبات وعلى العكس منه كان القائد سيون مثلاً للاهتمام بالفنون والافكار الفلسفية اليونانية فكان سيون الذي استولى على قرطاجنة ونومانس يتكلم باليونانية وهو صديق المؤرخ اليوناني بوليبي الذي أمسك في رومية رهينة . ولم يكن يهتم بجمع المال وقد دفع الى شقيقاته دفعة واحدة مبلغاً من المال كان عليه ان لا يدفعه اليهن الا في اوقات مختلفة وتنازل لاختيه وكان اقل منه مالاً عن حصته في ارث ابيه ولم يخلف بعده سوى كمية قليلة جداً من الاواني الذهبية والفضية .

الاخلاق القديمة — مضى زمن طويل على قدماء الرومانيين وهم يتوفرون على زرع حقولهم وقتال عدوهم والقيام بفرائض دينهم حتى كانوا حقاً الريفيين العاملين الجفاء . فكانوا يزرعون جانباً صغيراً من اقليم لاتيوم اولاسابين وهم من نسل الاتيين والابطاليين الذين تغلبت عليهم رومية . وقد صور لنا الشيخ كثيرون في كتاب له في الزراعة شيئاً من اخلاقهم بقوله : كان اجدادنا اذا أرادوا الثناء على رجل يصفونه بأنه زارع ماهر وحرث مجيد وهذا غاية ما يمدح به انسان (١)

فكان هؤلاء الزراع أشداء في اعمالهم واهل طمع في مكاسبهم وتنظيم في شؤونهم واقتصاد في نفقاتهم وبذلك كانوا قوة الجيوش الرومانية . ولطالما تألف منهم مجلس الامة أيضاً وكانت لهم القوة العظمى في الانتخابات . فنجي : الاشراف الذين يطمعون في ان ينتخبوا حكماً الى ساحة السوق ليزوا أيدي هؤلاء الفلاحين . رأى أحد المرشحين انفسهم للانتخابات يد احد الحرائين وهي شتنة غليظة . ألمه : هل تشي على بديك ؟ وكان السائل من الاشراف ينتسب الى أسرة كبيرة ولكنه لم ينتخب

(١) وقد اورد ايضاً شيئاً من امثالهم القديمة منها : « ادني الزراع من يتنازع شيئاً مما تغله له ارضه » « واحط المتصدين من يعمل في النهار ما يتأق له ان يعمل في الليل »

سكن الرومان بيوتاً ضيقة ذات طبقة واحدة لانظام في بنائها وكان الاثر يوم أهم ناحية من الدار وفيه المكان المقدس وهو مكشوف من أعلاه ينزل منه ماء المطر . والاثاث عبارة عن بضعة صناديق ومقاعد من الخشب . وطعامه بسيط مؤلف خاصة من حساء معمول بالبر ومن خبز وبعض بقول وما كانوا يتناولون اللحوم الا في الاعياد وما شرب النساء الخرقط والرجال يتناولون منه على الندرة . ولباسهم عبارة عن قميص يلبسون فوقه رداء من صوف زمن البرد . ويلبس الوطنيون في أيام الاعياد حلة من الصوف مزينة من جهة العنق ويلبسون في ارجلهم نعالاً مناطة بسيور . ويقضون حياتهم في التوفر على اعمالهم فالرجال يصطادون دون ان يحرقوا والنساء يغزلن الصوف وينسجن الاقمشة ويطحن الحبوب ليحفظنها براً . ولم يكن للرومانيين من ضروب التسلية الا ان يذهبوا كل تسعة أيام الى السوق أو يحضروا الاعياد التي تقام اكراماً للارباب

كان يرى قدماء الرومان ان الرجل الشديد هو غاية ما تطمح اليه الآمال ويقال ان ان سيذ - ميتانوس كان يسوق محراثه بنفسه عند ما اتاه نواب الامة من قبل مجلس الشيوخ يدفعون اليه الامر بتنصيبه . ولم يكن عند فابريسيوس من الاواني غير كأس وملحة من فضة . وكان كور يوس وانتانوس وهو غالب السامنتيين جالساً على مقعد يأكل بقولا في قصعة من خشب عند ما أتاه مذهبو السامنتيين ليقدموا اليه المال فقال لهم : اذهبوا وقولوا للسامنتيين ان كور يوس يؤثر ان يقود من عندهم ذهب أكثر مما يؤثر ان يكون هو مالكاً له . هذه هي بعض الافايس التي يروونها عن قواد الازمنة القديمة وسواء كانت حقيقية او ملفقة فانها تدل على ما كان الرومانيون بعد يذهبون اليه بشأن قدماء اجدادهم

الاخلاق الجديدة - اخذ كثير من الرومانيين بعد القرن الثاني ولا سيما طبقة الاشراف يقلدون الاجانب . وكان زعماءهم قواداً رأوا بلاد اليونان والشرق عن أم فكثبت الغلبة لسبيون على ملك سورية ولفلامنيوس وبولس اميل على ملوك مكدونية ثم للوكلوس على ملك ارمينية . فغزت نفوسهم عن الحياة القاسية الصعبة التي كان عليها اجدادهم وأخذوا يسبرون في حياتهم على البذخ والرفاهية وما زال الحال كذلك حتى نسيج على منوالهم عامة النبلاء والاغنياء بحيث لم يطلع فجر القرن الاول حتى لم يعد في ايطاليا الاسادة عظام يعيشون المعيشة الشرقية او اليونانية

يرى الشرقيون من دواعي العجب ان يعرضوا للانظار الاقمشة البديعة والاحجار الكريمة واثاث الفضة وأواني الذهب وان يستكثروا في ييوتهم من الخدم على غير طائل

وان ينشروا على الشعب المجتمع دراهم ليدمشوم (١) فكانوا يرغبون في الاعلاق النفيسة
الذادرة أكثر من رغبتهم في النفائس الجميلة المناسبة

واصبح للرومان على شدة عجبهم وضعف استعدادهم في الصناعات ذوق في هذا الضرب
من البذخ فكانوا قلما يحفلون بالجمال أو بالموافق ولم يعرفوا قط الا الأبهة والتخفة فانشؤا
لم يوتوا ذات حدائق متسعة وحشروا اليها التماثيل واقاموا فيها المصايف الزاهية التي تمتد
الى البحر وسط الحدائق المتسعة واستكثروا من الخدم والحشم وأخذوا هم ونساءهم يتناضون
عن ألبستهم المعمولة من الصوف بالشنوف (برنجك - كريشة) واكية الحرير والقصب
ويفرشون في ولائمهم بسطة مطرزة وأذثرة من الأرجوان وأواني من ذهب وفضة (وكان
عند الحاكم سيللا مئة وخمسون صحيفة من الفضة ووزن ما عند ماركوس وروزوس من
الأواني الفضية عشرة آلاف ليرة) واذا ظل العامة يأكلون فعوداً بحسب عادة الشعوب
الاطالية القديمة فالخاصة من الاغنياء اتبعوا العادة الشرقية في الاكل مضطجعين على
سررهم ثم سرت عادة التأنق في المآكل على الاسلوب الشرقي والاستكثار في المطاعم من
الابازير والصباغ (سلسا) والصيد والسمك الغريب وتفاخ الطواويس والسنة الطيور

واستحكم منهم السرف حتى تقدمت أحد الحكام سنة ٥٢ اوقد ذكر في وصيته قوله «لالم
يكن الاكرام الحقيقي عبارة عن أبهة باطلة بل هو لئذ كراقداز المتوفى وأجداده فانما أمر
أولادي ان لا ينفقوا على جنازتي أكثر من مليون آس (مئة الف فرنك)»

العلوم الادبية اليونانية — رأى الرومانيون في بلاد اليونان المصانع والتماثيل والالواح
التي كانت منذ قرون تفضى بها المدن وعرفوا الادباء والفلاسفة فصار لبعضهم ذوق في
الصنائع النفيسة واولع آخرون بالحياة العقلية فجعل امثال القائد سبيون حولم اناساً من
اليونان الثورين ولم تطمع نفس بولس اميل من جميع الغنائم التي غنمها جيشه من مكيدونية
الا الى الاستيلاء على مملكة الملك برمي وعهد بتربية اولاده الى اساتذة يونان وبذلك
صارت الكتابة والتكلم باللغة اليونانية من الامور المستحسنة في رومية (٢) واراد الاشراف
ان يظهروا في مظهر العارفين بالتصوير والنقش فجلبوا بالالوف التماثيل وقلز كورنت المشهور

(١) تجد مثلاً من هذا الذوق الشرقي في الابهة الباطلة التي تمثل لك في حكايات

الف ليلة وليلة

(٢) ولذلك كان يخاف الشخ كانوا عادية اليونان وقد كتب لابنه ما يأتي : اقول ان
ملاحظته في آثنية ان هذا الجنس من اخبت الاجناس واصعبها مراساً الا فاستمع لما اقول
كما تسمع لماتف رباني الا ان هذه الامة اليونانية كلما اتتنا بصناعاتها نفسدنا كلما

وملأها بيوتهم . ودخل في ملك الحاكم فريس شي ؟ كثير من النفائس والاعلاق جعلها في رواق وكانت مما نبيه من صقلية .

وهكذا اخذ الرومان على التدريج من الفنون ظواهرها ومن الآداب اليونانية قشورها . وسمي هذا التهذيب الجديد فن الادب معارضة للخشونة التي كان عليها اهل الربف من الرومان ومع هذا لم تكن الا قشوراً فقط فلم يعرف الرومان ان الجمال والحقيقة يرغب فيهما لئلا تمابل كانت الرشايع والعلوم عندهم اموراً يقصد بها الزينة والبذخ ليس الا . ولم يكن الرومان على عهد شيشرون يعتبرون من اهل الاعمال غير الجندي والحراث والسياسي والتاجر او المحامي اما الكتابة والتأليف والاشتغال بالعلم والفلسفة والنقد فكل ذلك كان يسمى عندهم بطالة . وما فط اصاب ارباب الفنون والعلماء من الاعتبار في رومية ما يساويهم بتاجر غني . قال لوسين احد كتاب اليونان : « متى صرت مثل فيدياس النقاش اليوناني تصنع الف قطعة بديمة من النقوش لا يرغب احد ان يتقبل مثالك لانك مهما بلغت من الخدمة لا يطلق عليك الا لقب صانع ولست اذ ذاك غير رجل يعيش بكده يمينه »

لوكلوس - ولد لوكلوس وهو مثال الروماني الحديث سنة ١٤٥ من أسرة شريفة وغنية جداً ولذا سهل دخوله في سلك ارباب المناصب والشرف واشتهر في غزواته الاولى بانه يعطف على المغلوبين ويعاملهم باللطف ثم عين قسلاً وقاد الجيش الذي انتدب لقتال ميتريدانس . وقد رأى سكان آسيا ساخطين من كثرة السرقة وقطاعة العشارين فعني يجعل حد لتلك الاعمال وحظر على جنده ان ينهبوا المدن المغلوبة وبذلك جلب لنفسه حب الآسيويين الباطل وبغض العشارين والجنود الخطر . فدمت الدمائس لتستدعيه حكومته وكان قد هزم ميتريدانس واخذ يطارده وهو سائر الى حليفه ملك ارمينية وقد هزم جيشاً من البرابرة بجيشه الصغير المؤلف من عشرين الف مقاتل فسلبت منه القيادة وصلت الى بومبي نديم العشارين وحببهم

واذ ذاك اعتزل لوكلوس الاعمال للاستمتاع بما جمعه في آسيا من الثروة واصبح يملك في احياء رومية حدائق غلبا وله في نابولي مصيف قام في البحر مبنياً بالحجر الصلد . وفي توسكولوم قصر صيفي وفيه صمغ للاعلاق والنفائس فكان يقضي الصيف في توسكولوم بين اصحابه وجماعة العلماء واهل الادب يطالع مصنفات اليونان ويبحث في الادب والفلسفة . وتروى عن بذخه حكايات كثيرة . منها انه كان ذات يوم يتفدى وحده فرأى مائنته اكثر بساطة من العادة فوجع الطامي فاعتذر بقوله ان عدم وجود الضيوف هو الذي دعاه الى تقليل المآكل فاجابه لوكلوس : « اما علمت ان لوكلوس يتفدى اليوم عند لوكلوس ؟ »

ودعا يوماً قيصر وشيشرون فقبلا دعوته على شرط ان لا يغير شيئاً من عاداته فاكثف لوكلوس بان قال لاحد الخدمة فقط اجعل الطعام في قاعة ابولون وكانت المأدبة على غاية من التأنق بحيث عجب منها المدعوان . ولما مثل عن اخلاقه بشرط الضيافة قال انه لم يأمر بشيء وان ثقافات طعامه محددة بحسب القاعة التي تجلس فيها وان بسط الموائد في قاعة ابولون لا يمكن ان يكلف اقل من خمسين الف فرنك

وظل لوكلوس في رومية يمثل الاخلاق الجديدة كما كان كاتون يمثل الاخلاق القديمة ويرى قدماء الرومان ان كاتون هو الروماني الصالح وان لوكلوس هو الروماني الفاسد ومع هذا فقد كان لوكلوس يتعد عن عادة الاجداد ولذلك كان واسع المدارك حسن التربية لطيف المأثى مفعولاً راعى العطف على الخدم والراعي .

الاتقلاب الديني والعقلي

العبادات الجديدة — لم يكن بين ارباب الرومان وارباب اليونان من شبه حتى في الاسماء ومع هذا اعتقد اليونان بان معظم الارباب المعبودة في رومية كانت اربابهم احبوا ان يعترفوا بانها كذلك . والى ذلك العهد لم يكن للارباب الرومانية شكل خاص ولا تاريخ معين وهذا مادعا الى الارتباك في حالتها فخرى تمثيل كل رب روماني على صورة رب يوناني واخترعوا له تاريخاً وحكايات .

نقلوا بين المشتري اللاتيني وزيوس اليوناني وجونون مع هيرا ومنيرفا ربة الذاكرة مع بالاس ربة الحكمة وديان زوجة جانوس مع اريثيس الصيادة البديعة ومزجوا هر كول رب السواد بهيرا كليس الخالب على النيلان . وهكذا دخلت الميثولوجيا اليونانية تحت اسماء لاتينية واستحال ارباب رومية الى ارباب يونان . امتزجت الارباب بعضها ببعض حتى اعتدنا ان نطلق على الارباب اليونانية اسماء لاتينية فلا نزال نقول اريثيس ديان وبالاس منيرفا . وبالميثولوجيا اليونانية اعتاد الرومان ان يصوروا اربابهم في تماثيل كما اقتبسوا ايضاً بعض الاحتفالات اليونانية وكانت الحكومة الرومانية ادخلت الى بلادها عبادة ابولون وبدأ بعض الافراد يعبدون باخوس رب الكرم . ويحتفلون من يعبدون باخوس بعبادته من الليل سراً ولا يطلعون احداً على خفايا العبادة الباخوسية واخذ المجلس يحقق قرأى المتعبدين بهذه العبادة سبعة أشخاص بين رجال ونساء اشتركوا معاً في هذه الاسرار نقض عليهم بالموت .

ثم ان الرومان اخذوا ايضاً يعبدون ما يعبد شعوب الشرق فقد كان سنة ٢٢٠ سيف

رومية معبد للرب سيرايس المصري فامر مجلس الشيوخ بهدمه فلم يحسر احد الفعلة على ذلك وبقى المعبد لا يس بسوء حتى جاء القنصل بنفسه فحضر ابوابه بالقأس وبعد سنين اي في سنة ٢٠٤ خلال حرب هانيبال بعث مجلس الشيوخ الى آسيا الصغرى يوفد للبحث عن المعبودة سيبييل وكانت هذه الام الكبرى كما كانوا يدعونها مصورة على حجر اسود فأتى بها مندوبو مجلس الشيوخ باحتفال حافل وجعلوها في رومية وقد لحق بها كهنتها واخذوا يطوفون الشوارع على اصوات الزامير والصنوج لابسين البسة شرقية وهم يستوكفون الاكف على الابواب

ثم غصت بلاد ايطاليا بالهجرة من الكلدان ولم يكن العامة يعتقدون وهدم بهؤلاء العرافين . ولما هدد برايرة السمبر مدينة رومية سنة ١٠٤ تقدمت عرافة من سورية اسمها مارتا فعرضت على مجلس الشيوخ الروماني بانها تنوسط في غلبة رومية على عدوتها فطردوها مجلس الشيوخ ولكن النساء الرومانيات بعثن بها الى المعسكر فاقبها مازيوس القائد العام لديه وما فتيء بأخذها اليها الى ان وضعت الحرب اوزارها . ورأى سيللا في نومهرية كابودسيا فعمل بنصيحتهما وسار الى ايطاليا .

الفسطاطيون — لم يكن يأتي الى رومية كهنه وعرافون فقط بل كان ينزل فيها فلاسفة يحمقرون الدين القديم . ومن اشهرهم كارنياد سفير الآتيين فانه كان يصرح بافكاره في رومية امام الجمهور فيحفز شبان الرومان الى سماع اقواله حتى اراد مجلس الشيوخ على الخروج من المدينة الا ان الفلاسفة ظلوا على بث مبادئهم في رودس وآثينة حتى اصبح من السنن المألوفة ان يبعث الرومان بفتيانهم الى تينك المدينتين يتعلمون فيها الفلسفة

وفي القرن الثالث قبل المسيح ألف ابهمير اليوناني كتاباً باني فيه وجود الارباب وانها ليست الا رجالاً ألهم الناس حتى ان المشتري نفسه كان ملكاً على كريت . فانتشر كتابه اي انتشار ونقله الشاعر انيوس باللاتينية . وعلى هذا النحو اخذ اشراف رومية يحضرون من اربابهم ولم يقوا من الدين القديم الا على مراسيمه وظواهره (١) وكان اهل الطبقة العالية في المجتمع الروماني مدة زهاء قرن يعتقدون بالخرافات اعتقاد فسطاطيين لا يؤمنون بشيء الحياة العقلية — كان غاية ما يعلم اليونان الاقدمون اولادهم القراءة فقط في الزمن الذي كان فيه بوليب في رومية (قبل سنة ١٥٠) وبعد المحدثون من الرومان بتعليم ابنائهم الى مربين من اليونان ولذلك افتتح اناس من اليونان في رومية مدارس لتعليم الشعر والبلاغة والموسيقى . وكانت الاسرات الكبرى تنقسم الى اناس يتعلمون على الطريقة القديمة وآخرين

(١) قال شيشرون : يجب ان نبقى على عادة اخذ الطالع لثلاث غس العامة في معتقداتهم

على الحديثة. ولكن بقي في الازدهار شيء من الموسيقى والرقص فكانوا ينظرون اليهما بانهما من الصناعات المهيئة بن يتعاطاها اذا كان كرم المتمدن. قال سبيون املين حامي اليونان في كلامه على مدرسة رقص كان يختلف اليها بنون وبنات من الخاصة : ما كنت اتوم عند ما ذكر لي ذلك ان اناساً من الاشراف يعلمون مثل هذه الامور لاولادهم ولما اخذوا يدي الى مدرسة الرقص رأيت فيها زهاء خمسمائة صبي وفتاة وفي جملتهم ولداً شريفاً في الثانية عشرة من عمره وهو احد المرشحين للانتخابات يرقص على نغمات البوق "كروئال" وقال سالوست في كلامه على عقيلة رومانية قليلة الاعتبار انها كانت تضرب على الطنبور وترقص احسن مما يليق بامرأة محتشمة .

التربية — استهوى نساء الرومان حب الاديان الشرقية والبنخ الشرقي في اسرع ما يكون فكن يذهبن زرافات زرافات الى معابد باخوس ومساجد ايزيس . وقد سنت لهن قوانين ليمنعن بها من لبس الالبسة الثينة وركوب العجلات واتخاذ الحلي والجواهر ولم تلبس ان ألقبت فصار النساء في حل من ان يلبسن كالرجال ما يشأن . واقطع النساء النبيلات عن العمل والجلوس في بيوتهن واتشأن يخرجن في أبهة ويختلفن الى دور التمثيل والملاعب والحمامات والمجتمعات . واذ كن بلا عمل ومن الجهل على جانب سرى الفساد اليهن في الحال حتى اصبح النساء الطاهرات في طبقة الاشراف من النوادر

سقط النظام القديم في تربية الاسرات وجعل القانون الروماني الزوج سيد زوجته وابتدعوا ضرباً جديداً من الزواج يجعل المرأة تحت تصرف ابوها ولا يكون للزوج اذنى سلطة عليها وكان الآباء يجهزون بناتهم بمجهاز وصدقات ليجملوهن اكثر استقلالاً .

وكان من حق الزوج وحده ان يطلق امرأته ومن العادة ان لا يحاد عن هذا الحق الا في احوال استثنائية شديدة فصار للمرأة الحق ان تترك زوجها واصبح منذ ذلك العهد من امين اللين ان يفصم الزوجان عرى ارتباطهما ولم يعودا يحتاجان الى حكم حاكم ولا الى سبب مشروع وبكفي احد الزوجين متى استاء من زوجه ان يقول له : « احمل ما يخصك واعد لي ما امالكه » وبعد الطلاق يتيسر لكل منهما بل للمرأة ايضاً ان يتزوجا في الحال .

وبلغت الحال في الطبقة الرومانية العالية ان تعتبر الزواج عقدًا مؤقتاً فقد تزوج سيللا بجمس نساء وقصر باربع وبومي بجمس وانطونيوس باربع . وتزوجت ابنة شيشرون من ثلاثة رجال وطلق هورتانسيون زوجته لزوجها من احد اصدقائه

يبد ان هذا الفساد لم يصب غير اشراف رومية ومن هذا حذوم من اهل النعمة الحديثة

اما في أسرار رومية والولايات فقد حفظت قروتاً آداب الدور القديم القاسية الشديدة واخذت تربية الاسرة ترق شيئاً فشيئاً والمرأة تحرر من استبداد الرجل يبط

التبدل الاجتماعي

زوال الطبقة الوسطى — كان الشعب الروماني القديم مؤلفاً من صغار ارباب الاملاك وهم يتعاطون زراعة حقولهم بانفسهم ومن هؤلاء الفلاحين الصالحين الاقوياء يتألف الجيش والمجلس . وكان ندرهم كثيراً سنة ٢٢١ خلال الحرب الفينيقية الثانية . وفي سنة ١٣٣ لم يبق منهم احد . لا جرم انه هلك منهم كثيرون في الحروب التي اعلنتها رومية على البلاد القاصية ولكن هلاكهم يحمل في الاكثر على انه كان من المتعذر عليهم البقاء . فقد كانوا يعيشون من زراعة القمح عند ما اخذت ترد على رومية حبوب صقلية وافريقية فسقطت اسعار الحنطة بحيث لم يتيسر للحراثين الايطاليين ان يستخرجوا من غلاتهم ما يغذون به اسررتهم ويقوموا اعباء الخدمة العسكرية ففضي عليهم من ثم ان يبيعوا حقولهم فيبتاع كل غني من جاره الفقير ارضه فعدت الحقول الصغيرة ملكاً عظيماً لواحد وصير ارباب الاملاك من تلك الاراضي مروجاً يقيمون فيها ماشيتهم واذا عن لم ان يزروعها يمشون اليها برعاة وحراثين من العبيد بحيث لم يرض قليل حتى لم يبق على ارض ايطاليا الا بعض كبار ارباب الاملاك وجماعات من العبيد . وكان بلين القديم يقول ان الاملاك العظيمة قد اخطأت ايطاليا ومع هذا فالدوائر العظيمة هي التي قضت في الارياض على احرار الفلاحين . فصاحب الارض القديم الذي اباع حقله لم يستطع ان يبقى اجيراً بل قضى عليه ان يتخلى عن مكانه ليحل محله العبيد وبذا اصبح دائماً على وجهه لا عمل له ولا شغل قال فارون في رسالته في الزراعة ان معظم زعماء الاسرات دخلوا بيوتنا تاركين النمل والمحراث وآبوا يؤثرون التصفيق بايديهم في الملاعب على العمل في حقولهم وكرومهم .

الطبقات الاجتماعية — ليس الشعب في رومية كما هو في يونان عبارة عن مجموع السكان بل هو مجموع الوطنيين وكل رجل ينزل ارض البلاد لا يعد وطنياً بل الوطني هو الذي له حق التمتع بحقوق الوطنية . وللوطني عدة امتيازات فله الحق وحده ان يكون عضواً في الهيئة السياسية وله الحق وحده ان يقترح في مجالس الشعب الروماني وان يخدم سيفه الجيوش الرومانية ويحضر احتفالات رومية المقدسة وينتخب حاكماً رومانياً وهذا ما يسمونه بالحقوق العامة . وللوطني الحق وحده ان يحميه القانون الروماني وبحق له فقط ان يتزوج على طريقة مشروعة ويكون رب أسرة أي حاكماً مطلقاً على زوجته وأولاده وان يوصي بما يشاء ويبيع ويبتاع من يشاء وهذا ما يسمونه بالحقوق الخاصة

ولا يحرم من لم ينالوا حق الوطنية الرومانية من الخدمة في الجيش والمجلس فقط بل لا يسوغ لهم ان يكونوا ازواجاً ولا آباء ولا أصحاب أملاك مشروعة ولا ان يتقاضوا الى القانون الروماني ويحاكموا في المحاكم الرومانية ولذا تألفت من الوطنيين طبقة من الاشراف بين سواد الامة من غير طبقتهم الا لا يتساوون بينهم أيضاً . فبينهم فرق في الطبقات أو كما يقول الرومان في الصفوف .

النبله - النبلاء - في الصف الأول من الامة فكل وطني يعد في النبلاء اذا سبق لاحد أجداده ان تولى شيئاً من امر الامة لان الحكم في رومية من علائم الشرف ينبل به من تولاه كما يكون بضعة شرف لاختلافه من بعده . اذا نصب احد من الوطنيين ناظر الملاعب والابنية أو قاضياً أو قنصلاً تخلف عليه خلع مطرزة بالارجوان ويخ كرسياً كالعرش ويحق له ان يُرسم ويصور . وهذه الصور عبارة عن تماثيل صغيرة تعمل من الشمع اولاً ثم تطلي بالفضة وتُجعل في زرار الدار (انزبوم) بالقرب من الكانون وارباب البيت وتُجعل في مخادع خاصة بها كما تُجعل الاصنام وبعدها القرية من اهل البيت . متى مات احد في الاسرة يخرجون الصور ويحرقونها على مركبة في موكب يأخذ احد انساب المتوفى بعد صفاته ويرثه . وهذه الصور هي التي تُشرف الاسرة كلما احتفظت بها وكما كثرت الصور في أسرة تزداد شرفاً فيقولون فلان شريف بصورة او شريف بعدة صور . والاسر الشريفة في رومية قليلة جداً (ولم يكن فيها اكثر من ثلثائة امرة) لان المناصب التي تولي صاحبها شرقاً توسد في الغالب الى اناس حازوا الشرف من قبل

الفرسان - تجيء طبقة الفرسان بعد طبقة النبلاء . وهم أغنياء الوطنيين الذين لم يعد لهم جدود من الحكام فقيد ثرواتهم في سجلات الاحصاء وينبغي ان لا يقل ما يملكه احد من عن اربعمائة الف سستوس (او مئة الف فرنك) منهم التجار والصيارف والمتمردون وهم لا يحكمون بل يقتنون . ولهم في دور التمثيل اما كن خاصة بهم تقع الى ما وراء مقاعد طبقة الاشراف . وربما ساع للفراس منهم ان ينتخب حاكماً وعندها يدعونه الرجل الحديث الشعمة ويصح ابنه شريفاً

العامة - العامة هم غير طبقة الاشراف والفرسان فهم جمهور الامة ويكونون من نسل ابناء البلاد في ايطاليا وينقلون من فلاحين اصحاب املاك الى وطنيين رومانيين . و يعد في طبقتهم العبيد المسترقون او قدماء العبيد وابناؤهم . ويحافظون على مميزات اصولهم ولا يقبلون في خدمة الجيش الروماني ولا ينتخبون الا بعد غيرهم . ولقد مضت ازمان وصغار ارباب الاملاك يؤلفون السواد الاعظم من الامة وبينما كانت الارباب تصغر من قلة

الناس غصت رومية بالواردين عليها فانها لعلها اليونان والسوريون والمصريون والآسيويون والافريقيون والاسبانيون والغاليون ممن أخذوا من بلادهم ويبيعون العبيد ثم اعتقهم مواليهم فاصبحوا وطنيين ضاقت بهم المدينة فهم كانوا شعباً جديداً ليس لهم من الرومانية غير اسمها

خطب سبيون غازي قرطاجنة ونومانس جمهوراً من الناس في احدى الساحات فقاطعه العامة باصواتهم فقال لهم: « صديقا الانباء الادعياء المنتسبون لايطالوا زوراً فمن العبث مالهملون لان من جالبتهم الى رومية مقيدون لاهابهم ولو حلت قيودهم » وهذه الطبقة الجديدة من السوق تعيش بكدها او يقضى على الحكومة ان تطعمها وقد اخذت الحكومة سنة ١٢٥ تقدم لعامة الوطنيين حنطة بنصف ثمنها المعتاد تأتي بها من صقلية وافر يقية . ومنذ سنة ٦٣ اخذت توزع الحنطة مجاناً وتشفعها بزيت . ورأى قيصر سنة ٤٦ ان من كانوا يناولون هذه الجراية بلغوا ٣٢٠ ألفاً

العبيد - جميع الاسرى وسكان البلد المفتوح ملك للفاتح يتصرف فيهم فاذا بقي عليهم ولم يقتلهم يستعبد لهم . وهكذا كان الحق القديم . وقد ظل الرومان يعملون به بالحرف يعملون الاسرى كأنهم بعض الغنيمة يبيعونهم من الخاسين الذين يتبعون الجيش واذا حملهم الى رومية فائماً يحملونهم ليعبدهم في المزاد (١) وهكذا كانوا يبيعون عقيب كل حرب الوفاة من الاسرى رجالاً ونساءً والاولاد الذين يولدون من اسيرات يكونون اسرى كسائهم فالام المغلوبة للرومانيين هي مادة الرقيق الروماني

العبد ملك صاحبه فهو لا يعتبر اعتبار شخص بل اعتبار متاع فمن ثم ليس له حق من الحقوق فلا يكون وطنياً ولا مالكاً ولا زوجاً ولا اباً . قال احد الابطال في رواية هزلية رومانية : « اي شيء هذا أعرس عبيد ! ما اعجب عبداً يتزوج ! ان هذا مخالف لعادة جماع الام » .

ولمولى جميع الحقوق على عبده يرسله حيث يريد ويشغله على ما يرى بل يشغله اكثر من طاقته ويطعمه اخشن طعام ويضربه ويعذبه ويقتله دون ان يسأله احد عما جنى وعلى العبد ان يخضع لرغائب سيده كلها . ويقول الرومان ان العبد لا وجدان له وان الواجب عليه ان يطيع مولاه طاعة عمياء فاذا قاوم او ابقى من يئته فالحكومة تعاون سيده على قمع

(١) نقام سوق الرقيق في كل مدينة ذات شأن كاقام سوق للبقر والخيول فيعرض العبد الذي يراد بيعه على دكة وقد نيطت في عنقه بطاقة كتبت فيها منه وصفاته وعيوبه

جماحه او القبض عليه وكل من يؤوي عبدًا آتياً تجري عليه احكام اللصوص كأنه سرق بقرة او حصاناً لغيره .

والعبيد في المملكة الرومانية اكثر من الاحرار ويملك اغنياء الوطنيين من عشرة الى عشرين الف عبد وعند بعضهم منهم من يكفون لتجنيد جيش كامل . وكان لسيلبيوس ايزدوروس احد قدماء العبيد زهاء اربعة آلاف عبد وكان عند هوراس سبعة اعبد فكان يشكو من فقره . ومن علام الفقر في رومية ان لا يملك المرء سوى ثلاثة اعبد .

واذ كان العبيد يعملون اشق الاعمال او يسترسلون في البطالة مكرهين وهم ابدًا عرضة للضرب بالسياط والتعذيب اصبحوا بحسب فطرتهم اما متوحشين اغبياء او انذالاً مستعبدين ومن كان منهم على شيء من الشهامة يتفخرون وغيرهم يمشون كالألة الصماء . وكان الشيخ كاتون كثيراً ما يقول : على العبد دائماً ان يعمل او يتام . ومعظم العبيد يفقدون الاحساس والشرف ولذلك كانوا يقولون هذا عمل عبيد يريدون به انه دنيء رذل

الحياة السياسية

الحكام — ينتخب الشعب كل سنة رجالاً يتولون امره وبفوض اليهم السلطة المطلقة ويطلق عليهم اسم الحكام « اي ولاية الامر » فيسير امامهم حملة القؤوس يحملون حزمة من القضبان وقاسماً . ومعنى هذا الرمز ان الحاكم ان يضرب ويقتل على ما يراه مناسباً ومن حق الحاكم ايضاً ان يرأس مجلسي الامة والشيوخ وان يكون له محل في المحكمة ويقود الجيوش وهو السيد المسود في كل مكان فيجمع المجلس ويفض بحسب ما يرى ويصدر الاحكام برأيه وحده .

وفي زمن الحرب يفعل ما يشاء بالجند ويقتلهم دون الرجوع الى رأي ضباطهم . وقد كان مافليوس القائد الروماني في احدى الحروب التي أعلنت على اللاتين حذر على الجنود الخروج من المعسكر فدعا احد المقاتلين من جيش العدو ابنه الى المبارزة فخرج لبرازه وقتله فلم يعم مافليوس ان قبض على ابنه واعدمه في الحال .

وللحاكم بحسب التعبير الروماني سلطة ملك ولكن هذه السلطة قصيرة موزعة وذلك لانه لا ينتخب الالسة واحدة وله رصفاء لم مثل سلطته في رومية فتصلان او حاكمان يتوليان امر الامة وقيادة الجيش وفيها عدة قضاة يتولون الحكم او القيادة بالنيابة ويصدرون الاحكام وهناك كثير من الحكام ومراقبان واربعة نظار للاتنية والملاعب للنظر في الطرق العامة والاسواق وعشرة محامين عن حقوق السوق وصيارفة يتولون النظر في خزائن المملكة الاحصاء — ارقى الحكام ها الوكيلان المسيطران وهما مكلفان كل خمس سنين

بمنظم احصاء للشعب الروماني فيمثل امام المكافين باحصاء جميع ابناء البلاد ليذكر والمها
 وهم يقسمون الايمانات — اسماءهم وعدد اولادهم وعبيدهم ومقدار ثروتهم يقيد كل ذلك في
 سجلات خاصة . والقائمان باحصاء الامة هما اللذان يكتبان قائمة باسماء اعضاء مجلس
 الشيوخ والفرسان والوطنيين ويحددان لكل واحد مقامه في المدينة ثم هما مكلفان ايضاً
 بان يحنفلا احتفال الثريا وهي حفلة عظيمة تقام للتركية كل خمس سنين فيجتمع ذاك اليوم
 عامة الوطنيين في ساحة المريخ اجتماعهم في حرب ويطوفون ثلاث مرات حول المجلس يحملون
 ثلاث صحايا لتكفر عن السيئات وهي عبارة عن ثور ونعجة وخنزير يخنقونها ويرشون المجلس
 بدمها وبذلك تصيح المدينة مزكاة مطهرة وسلماء مع الارباب .

وللقائمين بالاحصاء الحق ان يقيدا وان يحمل كل انسان في المنزل التي يربانها ولها
 ان يجردا احد الشيوخ باسقاطه من قائمة مجلس الشيوخ وان لا يحمل احد الفرسان في جملة
 اهل طبقته او يجرمان احد الوطنيين بان يحذف اسمه من سجلات القبائل . ويسهل عليهما
 عقاب من برنهم مجرمين ويتجاوزان عن السيئات التي لا تنقدح بمنطوق القانون . ولطالما
 رأوها يجردان والوطنيين لانهم لم يحسوا التوفر على حقوقهم ولصرفهم كثيراً على خدمتهم وتجنوا
 احد الشيوخ لانه كان يملك عشر ليرات من الاواني الفضية واخر لانه اهمل تعهد قبور
 اجداده . وغيره لانه طلق زوجته . هذه السلطة المفرطة هي ما يطلق الرومان عليه
 « حكومة الاخلاق » فوكيلا الاحصاء هما سيدا المدينة على الجملة .

جلسة مجلس الشيوخ — يتألف مجلس الشيوخ من نحو ثلثمائة رجل يعينهم وكيل الاحصاء
 الا ان هذا لا ينصم كيفما اتفق فلا ينتخب من ابناء البلاد الا الاغنياء اصحاب المكنة
 وسلالة الاسرات الكبرى ومعظمهم من قدماء الحكام ويختار على الاغلب دائماً اناساً كانوا
 في المجلس من قبل بحيث ان عضو مجلس الشيوخ يبق في هذا المنصب طول حياته . فمجلس
 الشيوخ هو محل اجتماع امم رجال رومية ولذلك كانت لهم سلطة وسطوة

فاذا حدث امر يجمع احد الحكام اعضاء الشيوخ في احد المعابد يمرض عليهم المسألة
 ثم يسألهم رأيهم فيها فيجيبه كل واحد بمفرده مراعين في ذلك مراتبهم في الشرف وهذا ما
 يدعى اخذ رأي مجلس الشيوخ ويسطر الحاكم بعد ذلك رأي الاكثرية وهذا ما يسمى
 مرسوم ديوان الاعيان او الشيوخ ويكون قرارهم عبارة عن رأي لان ليس من حق مجلس
 الشيوخ ان يقن القوانين . بيد ان رومية تعمل بهذا الرأي عملها بأمر مفروض . وللشعب
 ثقة بشيوخه لعلمه بانهم اكثر خبرة منه ولا يجرأ الحكم على مقاومة مجلس مؤلف من
 اكفاء يساوونهم في الشرف . ولذلك كان المجلس يفض جميع المسائل فيقرر الحرب ويعين

عدد الجيوش وقيل السفراء وبمقد السلم وبفرض الدخل والخرج فيصدق الشعب على قراراتهم والحكام ينفذونها . وفي سنة ٢٠٠ قرر مجلس الشيوخ اعلان الحرب على ملك مكدونية فاجس الشعب خيفة ولم يوافق على ذلك فصدر امر مجلس الشيوخ بجمع المجامع من جديد وان يلقي عليهم خطاب يكون ابلغ في اقناعهم من الخطاب الاول وعندها لم يسمع الشعب الا الموافقة . وبذلك رأيت ان الشعب في رومية كان يحكم كما يحكم الملك في انكلترا ولكن كان الحكم لمجلس الشيوخ .

المجالس والانتخابات — تسمى حكومة رومية « الجمهورية » اي متاع الشعب وجماعة الوطنيين المدعوين شعباً كأنهم سادة مستقلون في المملكة فتم الذين ينتخبون الحكام ويوافقون على الحرب والسلام ويسنون الشرائع ويقول الفقهاء ان القانون هو ما امر به الشعب والشعب في رومية كما في آثينة لا يعين نوابا وعليه ان يوافق على كل شيء بنفسه حتى ان حكومة رومية بعد ان قبلت في المدينة زهاء خمسمائة الف رجل كانوا مشغولين في اطراف ايطاليا كلها اضطر الوطنيون للحصول على حقوقهم ان يحضروا بالذات الى رومية .

ويجتمع الشعب في الساحة ويسمى المجلس « المجتمعات » يدعو الحاكم الى الانضمام برأسه وكثيراً ما يدعى الوطنيون الى الاجتماع بصوت البوق فيذهبون الى ميدان العمل (ساحة المريج) يصطفون فرقا تظلمهم اعلامهم وعندها يتألف منهم مجتمعات ذات فرق وكثيراً ما يجتمعون في ساحة السوق « الفوروم » منقسمين الى ٣٥ جماعة يسمونها القبائل فتدخل كل قبيلة في نوبتها الى مكان مسور بسور لتوافق على ما تقر به وتسمى المجتمعات بحسب القبائل . والحاكم الذي جمع المجلس بين له المسألة التي يجب عليه الموافقة عليها ومتى فعل بنفض . فمن ثم كان الشعب حاكماً ولكنه اعتاد الخضوع لزعيمائه .

والمجلس ايضاً هو الذي يختار كل سنة الحكام فينتخب بحسب الفرق جميع الحكام الذين كان اتخيم الشعب قديماً مثل القناصل والقضاة وكلاء الاحياء ونظار الابنية والملاعب . ومجلس القبائل ينتخب حكام اهل الطبقة المتوسطة ومحامي الشعب ونظار ابنية الشعب . وقد ضاقت ساحة الفوروم منذ القرن الثاني فاخذت تجتمع جميع مجالس الانتخابات في ساحة المريج لتقسم الرحبة بمواجز ذات مرائب صغيرة تلعب بمجذائق الغنم فتقطع كل قبيلة الى احدى تلك الرحاب وتلاحظ كل قبيلة اكثرية الوطنيين في التصويت اذ ليس لكل قبيلة غير صوت واحد .

ملك المناصب — ليس تولي الحكم او الشجعة عن الامة في رومية صناعة من الصناعات فان الحكام والشيوخ يصرفون وقتهم ومالم دون ان يتوالوا اجراً فنصب الحكم في رومية

بعد من دواعي الشرف فلا يتطالء اليه غير الاشراف او الفرسان على الاقل على شرط ان يكونوا اغنياء ثم لا يقطع امرؤ ان يبلغ ارق مناصب الحكم الا بعد ان يتقلب في المناصب الاخرى ومن اراد يوماً ان يحكم على رومية يجب عليه أولاً ان تكون له في الجيش عشر وقائع وحملات وبعد ما يسوغ له ان ينتخب صرافاً فيعهد اليه النظر في احدى خزائن المملكة . ثم يصير ناظراً للابنية والملاعب فينظر في امور الشرطة والبياعات وبعد ذلك ينتخب قاضياً ليجري احكام العدل وعقيب ذلك يصبح قنصلاً فيفقد جيشاً ويرأس المجالس وعندئذ تحدثه نفسه بان يكون وكيل احصاء وهذه هي الدرجة التي دونها في العلو كل درجة لا يبلغها المرء قبل ان يبلغ الخمسين من العمر . فترى بهذا ان رجلاً واحداً يكون مالياً وادارياً وقاضياً وقائداً وحاكماً قبل ان يتولى وظيفة وكيل الاحصاء الغريبة وهي عبارة عن تنظيم المجتمع وتسمى سلسلة هذه الوظائف سلك المناصب ولا تدوم كل وظيفة من هذه الوظائف الا سنة واحدة وللارتقاء للوظيفة التالية يقضي انتخاب جديد . ويجب على الموظف في خلال السنة التي تقدم انتخابه ان يظهر في الشوارع بلا انقطاع ويسير كما يقول الرومان او يطعم في امتياز المنصب وان يلمس اصوات الشعب والمادة في خلال هذه المدة ان يلبس حلة بيضاء وهذا معنى مرشح بالغات الافرنجية اي المكتسبي بالبياض .

ادارة الولايات

الشعوب الخاضعة — ما انقضى القرن الاول قبل المسيح الا وقد اخضعت رومية عامة الاقطار الواقعة حول البحر الرومي منذ اسبانيا الى آسيا الصغرى ولم تضاف هذه البلاد الى المملكة الرومانية ولم يصبح سكانها وطنيين رومانيين ولم تغد ارضهم ارضاً رومانية بل ظلوا غرباء وانضموا فقط الى هذه المملكة اي انهم اصبحوا تحت استيلاء الشعب الروماني كما ان الهنود اليوم ليسوا وطنيين انكليزاً بل هم رعايا انكلترا والهند جزء لا من انكلترا بل من المملكة الانكليزية فقط

فلا يصبح سكان البلاد المغلوبة وطنيين في رومية بل يبقون غرباء اجانب ولكنهم رعايا الشعب الروماني يؤدون اليهم الجزية وعشر غلاتهم واتاة من المال ورساً على كل رأس وعليهم ان يخضعوا لجماع ما يأمر ونهيه به واذ ليس في استطاعة الشعب ان يحكم بالذات ليعت بحكام ينسبهم لان يحكموا عندهم وكل بلد خاضع لوال كان يسمى ولاية ومعناها «العممة» كان في اواخر عهد الجمهورية (في سنة ٤٦) ١٧ ولاية منها عشر في ايربا وخمس في آسيا وشتان في افريقية ومعظمها منشائية الاطراف جداً فلم تكن بلاد النال كلها سوى اربع ولايات واسبانيا ولايتين . قال شيشرون ان الولايات املاك الشعب الروماني فاذا اخضع

هذه الشعوب بأسرها فذلك طمعاً في فائدتها لا لاجل منفعتها ولذلك لا يتوخى ان بدبر تلك الولايات بل يحرص على استئثارها .

الولاية — يتخذ الشعب حاكماً لإدارة كل ولاية وهو اما ان يكون قنصلاً او قاضياً خرج من الوظيفة فيطيل امد سلطته وليس هذا الموظف الكبير قنصلاً بل هو وال ينزب عن القنصل والوالي كما للقنصل سلطة مطلقة يسير فيها على هواه لانه وحيد في ولايته (١) وليس لديه حكام آخرون ينزعونه السلطة ولا محامون عن الطبقة الوسطى ليرصدوه عما يريد ولا مجلس شيوخ يسيطر على اعماله فهو وحده يقود الجيوش ويحملهم على القتال وينزل بهم حيثما يشاء فيتخذ له مقاماً في محكمته حاكماً بالقرامة والسجن والموت ويصدر اوامر تكون قانوناً متبعاً وله وحده السلطة المالية لان فيه يتجسد الشعب الروماني

وكان هذا الحاكم الذي لا يقاومه مقاوم مستبداً حقيقياً فيقبض على من يريد ويجس و يضرب بالعصي ويعدم من لا تروقه حالتهم واليك مثالا من ألوف الامثلة التي كانت الحكام يحرقون فيها مع الهوى كما رواه احد خطباء الرومان قال : « جاء القنصل مؤخراً الى تيانوم فخطر لامرأته ان تلذذ بالاستحمام في حمامات الرجال فاخرج من الحمام الرجال الذين كانوا يستحمون فيه فشكت المرأة من ابطائهم وقلة استعداد الحمام فنصب القنصل عموداً في الساحة العامة واحضر اشهر رجل في المدينة ليحمله عليه فجرد من ثيابه وضرب بالعصي والوالي يأخذ من ولايته ما يستطيع من المال وينظر اليها كأنها ملك له ولا تعوزه الوسائط لاستئثارها بل يمد يديه الى خزائن المدن وينزع التماثيل والحلي الموضوعة في المعابد ويحبي من السكان الاغنياء اتاوات من المال او البر . واذ كان له الحق ان ينزل جنوده حيث اراد فالمدن تقدم له المال لتعفى من قبول جنوده واذ كان في حل من ان يعدم كل من يترأى له فالافراد يعطونه المال ليأمنوا غائلته . واذا طلب شيئاً نفياً او مبلغاً من المال يجاب في الحال الى ما طلب ولا يجرا امرؤ ان يأبى عليه طلبه . واتباعه يسيرون على مثاله وينهبون باسمه بل بحمايته ويسرع الوالي في جمع المال اذ الواجب عليه ان يغني في سنة وبعدها يعود الى رومية ويحلفه آخر يعود بمثل ما بدأ فيه سلفه .

على ان هناك قانوناً يحظر على كل وال ان يقبل هدية ومحكمة مخصوصة (منذ سنة ١٦٩) ننظر في دعاوي الاختلاس . بيد ان هذه المحكمة تؤلف من طبقة الاشراف والفرمان الرومانيين فلا يرون ان يحكموا على ابن بلدهم والمافية المعمة في هذه الطريقة كما قال شيشرون

(١) كانت تبقى رومية في بلاد الشرق بعض اقبال اي ملوك صغار مثل الملك هيرود في بلاد اليهودية ولكنهم يؤدون الجزية ويخضعون للحاكم او الوالي الروماني .

ان يضطر الوالي الى بسط يده في السلب من ولايته ليتسنى له ان يرشي الخلفين في المحكمة ولا ينبغي العجب اذا رأينا اسم الوالي مرادفاً لاسم مستبد ومن أشهر هؤلاء اللصوص فيريس والي صقلية وقاضيا وقد خطب في بيان اعماله الخطيب شيشرون لاسباب سياسية خطباً اشتهر بها ومن المحتمل ان كثيرين مثله قد اتوا ما اتاه .

العشارون — كان للشعب الروماني في كل ولاية مواد مهمة من الجمارك والمنتجات والضرائب والحقول الدالحة لزراعة الحنطة والمراعي يؤجرونها من شركات متمهدين بسموهم العشارين فكان هؤلاء مثل المزارعين العموميين في فرنسا قديماً يتعاونون من الحكومة حق جباية الخراج ويجب على سكان الولايات أن يطيعوهم كأنهم وفود الشعب الروماني وكان في كل ولاية عدة شركات من العشارين ولكل شركة مستخدمون من الكتاب والجباة يظهرن في مظهر السادة ويتناولون أكثر مما يجب لهم اخذه ويسلبون نعمة الاهلين وكثيراً ما يبيعونهم كما يباع الرقيق وكانوا يأخذون في آسيا حتى السكان بدون سبب ولما طلب ماريوس من ملك بيشيا ان يقدم له جنداً أجابه الملك ان العشارين لم يبقوا عنده من الرعايا غير النساء والاطفال والشيوخ وقد عرف الرومان هذه المظالم حتى معرفتها وكتب الخطيب شيشرون الى اخيه وكان هذا حاكماً اذ ذاك : « اذا وفقت الى طريقة ترضي بها العشارين دون ان تهلك سكان الولايات فتكون قد رزقت مهارة رب » بيد ان العشارين كانوا قضاء في محاكمهم حتى ان الولاة اتهم خاضعون لهم . وقد اراد سكاروس والي آسيا المشهور بالاغراط في العفة ان يمنع العشارين من اطالة يدا لاذى في ولايته فلما عاد الى رومية رفعوا عليه شكوى وحكموا عليه

ولطالما اثار العشارون سخط سكان الشرق الخاضعين الساكنين فقد ذبحوا بامر ميتريدانس في ليلة واحدة مئة الف روماني وبعد ثمن اي على عهد المسيح كان اسم عشار مرادفاً لاسم لص .

الصارف — جمع الرومان في بلادهم ثروة الامم المغلوبة ولذلك كانت الدراهم كثيرة جداً في رومية ونادرة جداً في الولايات فكان في رومية يمكن الاقتراض بفائدة اربعة او خمسة في المئة اما في الولايات فلا يجحد المئتين مالاً يقترضه باقل من اثني عشر في المئة . وكان الصارفة الرومان يقترضون مالا من رومية وأيقرضونه للولايات ولا سيما باسم الملوك او المدن

واذا لم يستطع المستدين ان يوفي رأس المال ورباه يعمد الصارفة في تقاضي امواله الى الطرق التي يستعملها العشارون فقد اقتضت مدن آسيا سنة ٨٤ على نية ان تدفع مبلغاً

كبيراً لتستعين به على الحرب فبعد أربع عشرة سنة فقط أي في سنة ٧٠ صار المبلغ بفوائده ستة أضعاف ما كان فاضطر الصيارفة مدن آسيا أن تبيع حتى التحف والطرف وقد شوهد ابوان يبيعان ابناءهما وبناتهما . وبعد بضع سنين اقترض يرونوس من حكام الروافيين ومن أشهر رجال عصره من الرومان واعلاهم كنباً ومكانة لمدينة سلامينة في قبرص مبلغاً من المال بفائدة ٤٨ في المئة (أي ٤ في المئة كل شهر) فلما طالب وكيله سكاتيوس بالمال مع فائضه تعذر على المدينة أن تؤدّي اليه مطلوبه فقصد سكاتيوس الوالي ابيوس فاصعبه هذا بفرقة من الفرسان فجاء الى سلامينة وحاصر مجلس شيوخها وكان اعضاءه في قاعة الجلسات فمات خمسة منهم جوعاً

رعايا رومية — كان سكان الولايات لا حول لهم ولا طول مع هؤلاء الظالمين باهرهم وذلك لان الولاة كانوا ياتلون العشارين والصيارفة على رغائبهم ويأخذون بأيديهم في كل ما يطلبونه ووراء الوالي الجيش والشعب الروماني يعضدانه فكان يسمح للوطني الروماني ان يشتكي السلايين في الولايات ولكن لايس الوالي بأذى ولا تتأني شكايته الا مرة واحدة عند ما يخرج من الخدمة فيصبر عليه الرعايا يسلمهم ويمتدي كما يشاء ربثاً تنقضي مدته واذا انهم عند عودته المارومية فتكون محاكمته امام محكمة مؤلفة من الاشراف والعشارين من تكون مصلتهم في معاضدته لافي احقاق الحق ورفع ظلامه اهل الولاية التي كان فيها واذا صادف ان حكمت عليه المحكمة يستعيب عن الحكم بالنفي فيذهب الى احدى مدن ايطاليا يتمتع بما فيه ايام ولايته وهذا القصص لا يوازي ما اتاه البتة ولا بعد انتقاماً ولذلك كنت ترى سكان الولايات يؤثرون ان يعموا ولاتهم بخضوعهم لم يعمالونهم كما يعاملون الملوك ويتفقونهم ويهادونهم ويمعنون لم التماثيل وربما نصبوا للوالي في آسيا هياكل (١) وبنوا لهم المعابد وعبدوهم كما يعبد الرب

ولئن عامل الشعب الروماني رعاياه بقسوة فلم يكن يأبى عليهم الانتقام اليه كما كان شأن المدن اليونانية بل ان الغريب يصبح وطنياً رومانياً بإرادة الشعب الروماني والشعب ينج هذه العاطفة احياناً وكثيراً ما ينحها الى شعب برمنه فتح حق الوطنية الرومانية الى اللاتين اولاً في سنة ٨٩ ومنح هذا الحق للطلليان في سنة ٤٦ ومنحه لاهل غاليا فاصبح سكان ايطاليا والرومانيين سواء حتى ان العبد الذي يعتقه سيده يسوغ له ان يكون وطنياً في الحال . وكما عرضت للشعب الروماني عوارض الضعف ونقص في الانفس يزيد عدده

(١) ذكر شيشرون الخطيب الروماني المعابد التي اقامها له سكان سيبليا التي كانت والياً عليها .

برعايا جدد وعبيد جدد فكان عدد الوطنيين يزيد في كل احصاء ولا يتقص فبلغ عددهم في قرنين من ٢٥٠ ألفا الى ٧٠٠ الف . وهكذا ظلت رومية غاصة بالسكان ولم تحل منهم كما حلت اسبارطة بل كانت تمتلئ بالقادمين اليها من المغلوبين على التدريج .

قانون الاراضي

الا لالك العامة — متى طلب شعب ثابته رومية على امره ان يعقد معها الصغر يجب على نوابه ان يلفظوا بالجملة الآتية : « تخلى لكم عن الشعب والمدينة واحقول والمياه وقنايل الارباب الحامية للحدود والاثاث وجميع ما يملكه الارباب والناس قد جعلناه بيد الشعب الروماني » وبهذا التسجيل تصبح الامة الرومانية مالكة لما يملكه المغلوبون لهم باسره بل مالكة حتى لاشخاصهم . وكثيرا ما يبيعون السكان وقد اباع بولس اميل مئة وخمسين ألفا من اهل ابير على هذه الصورة كانوا استسلموا اليه . ومن العادة ان تمنح رومية لمن تغلب عليهم حريتهم وان تبقى املاكهم ملكا للشعب الروماني يحملونها ثلاث حصص متساوية . فيعطى للالهالي قسم من اراضيهم على ان يدفعوا شيئا معلوما من المال او الحبوب عنها وتحفظ رومية لنفسها الحق ان تأخذ منها كما تشاء . وتؤجر الحقول والمراعي الى اناس من الملتزمين وتترك الاراضي البائرة شاغرة يأخذها من يريد ويحق لكل وطني روماني ان يقيم فيها ويزرعها .

قوانين العقارات — شملت قوانين الاراضي التي اختل بها نظام رومية الاملاك العامة وما كان لاحد الرومان ان يخطر في باله نزع الاملاك من اربابها لان حدود تلك الاملاك نفسها كانت اربابا يدعونها آلهة التحوم والدين يمنع من نزعها . الا ان الشعب كان يشولي بموجب قانون الاراضي على اراض من الاملاك العامة فقط يوزعها بصفة ملك على مواطنيه وللشعب من حيث الشرع الحق في ذلك لان الاراضي كلها ملكه الا ان الرومانيين ناسحوا قروتا بان تركوا اناسا من رعاياهم او ابناء وطنهم يتمتعون بفلات تلك الاراضي وقد انتهت بهم الحال ان صاروا ينظرون الى تلك الاراضي كأنها ملكهم يحسبونها وبيعونها ويتاعونها ولو أخذت منهم اقضي على جمهور عظيم من الامة بالافلاس في الحال . وقد حدث في ايطاليا خاصة ان ينزع من اهل مدينة باسرها جميع ما يملكون . هكذا نزع اغسطس جميع اراضي ماتو من سكانها وكان الشاعر فرجيل في جملة المتكوبين فتوصل بفضل شعره الى ان تعاد اليه املاكه ولكن سائر الشعب الذي لم يكن شاعرا كفرجيل بقي مسلوبا من املاكه . وتوزع هذه الاراضي المأخوذة على تلك الصفة احيانا على اناس من فقراء الوطنيين في رومية وفي الاغلب على جماعة من قدماء الجند وقد وزع سيللا اراضي اهل ابير وارباعي ٢٠ ألفا من قدماء الاجناد .

الايوان الاشتراكيان - كان الشقيتان تيربوس وكابوس غراشوس من اشرف أسرات رومية ولكن حاول احدهما بعد الآخر قد تولى زعامة السوق ان ينزع الحكومة من يد الاشراف الذين يتألف منهم مجلس الشيوخ .

وكان في ذلك العهد في رومية بل في ايطاليا جمهور كبير من الوطنيين لا سبيل لم ولا ليد يطمحون الى احداث ثورة ومنهم الاغنياء ومعظمهم من طبقة الفرسان الذين يشكون من حرمانهم من الحكومة . فعرض تيربوس غراشوس نفسه على ان يتولى الدفاع عن العامة وسعى الى توطيد سلطته هذه وكان في قلق مما يراه في بلاد الاريايف في ايطاليا من اقامة الرعاة العبيد يخلفون قدماء اصحاب الاملاك الفلاحين ومن رؤية رومية غاصة اناس من الوطنيين لا يملكون فتيلاً ولا نقيراً

قال مرة في خطاب له يخاطب به العامة : « للوحوش البرية في ايطاليا مغاور تأوي اليها والرجال الذين يهريقون دماءهم في الدفاع عن بيضة ايطاليا ليس لهم الا الثور والموء الذي يستنشقونه يهيون على وجوههم مع ازواجهم وابنائهم لا بيوت تؤويهم ولا منازل يسكنونها . الا وان القواد الذين يحرضونهم على الدفاع عن مدافنهم ومعابدهم ليكذبون في اقوالهم . وليت شعري هل ملك واحد منهم حتى الآن مذبحاً مقدساً في بيته ومدفناً يضم رفات اجداده . يدعونهم سادة الارض وهم لا يملكون مدرة منها »

فاقترح على الشعب سن قانون للاراضي وذلك بان تأخذ الحكومة من الافراد جميع الاراضي التي هي من المنافع العامة فتضع يديها عليها ويترك لكل فرد منهم خمسةائة فدان . يوزع الباقي من الاراضي حصصاً صغيرة على فقراء الوطنيين فوافق المجلس على هذا القانون فحدث بذلك اضطراب عام في نظام الثروات لان معظم اراضي المملكة على التقريب كانت من الاملاك العامة ولكن وضع الواضعون ايديهم عليها واعتادوا ان يعتبروا انفسهم مالكيها . على انه كان كثيراً ما يصعب التمييز بين الملك الخاص والملك العام اذ لم يكن للرومانيين سجلات للاراضي .

فاقام تيربوس ثلاثة مفوضين عهد اليهم قسمة الاراضي كما ان الشعب أعطاهم سلطة مطلقة . وكان هؤلاء المفوضون هم تيربوس نفسه وأخوه وعمه . فقام خصوم تيربوس بتهمونه بانه سن قانون الاراضي ليتخذ من ذلك حجة لتكون له بها السلطة . ففست سنة وهو السيد التحكم في رومية ولكنه لما أراد ان ينتخب محامياً من العامة عن السنة التالية اقام أعداؤه الحجة (وهذا كان منافياً للعادات المتبعة) فنشأت من ذلك فتنة انتهت

باستيلاء تيربوس وأصحابه على معبد الكابول فنهض أنصار مجلس الشيوخ وعبيدهم مسلحين بالدبابيس وخشب المقاعد وطاردوا تيربوس واتباعه وضربوه (١٣٣) و بعد عشرين سنين انتخب كايوس أصغر الاخوين غراشوس محامياً عن الشعب (١٢٥) و جدد التصديق على قانون الاراضي وقرر توزيع حنطة على فقراء الوطنيين وقرران يجري انتخاب القضاة من طبقة الفرسان ليتوصل بذلك الى هدم سلطة الاشراف فكانت كلمته هي العليا مدة حولين كاملين ولكنه لما قصد قرطاجنة ليسكن فيها جماعة من الطواريه (المستعمرين) الوطنيين تخلى الشعب عنه مدة غيابه حتى اذا عاد لم يتيسر له ان يعاد انتخابه اذ كان اعداؤه اغتصموا تلك الفرصة للتخلص منه وعندها أمر الحاكم بتسليح أشباع مجلس الشيوخ وزحف على كايوس وأحبابه وكانوا اعتمموا في جبل انتبن فقتل كايوس بيد احد العبيد وذبح اشياعه أو اعدموا في السجون ونقضوا يوتهم من أسسها وصادروا املاكهم (١٢١)

ماريوس وسيللا

لم يكن النزاع بين الشقيقتين غراشوس ومجلس الشيوخ الا عبارة عن هرج في شوارع رومية ينتهي بفتنة نشأ بين العصابات المسلحة على عجل اما الفتن التي حدثت بعد فكانت حروباً حقيقية بين جيوش منظمة وكان رؤسها الاحزاب من القواد الحروب المدنية - ليس الشعب الروماني سوى مجموع فقراء لا يعمل لهم وما الجيش الا حفنة من المشتردين نزاع الآفاق فلا المجلس ولا الكتائب خاضعة لمجلس الشيوخ لان الاشراف الفاسدين فقدوا كل سلطة اذية فلم يبق ثمة سوى قوة حقيقية واحدة ونعني بها الجيش ولم يبق سطوة الا للقواد وقد أبى القواد ان يخضعوا فتعذر الحكم بواسطة مجلس الشيوخ حتى أصبح بيد القائد - وغدت الثورة لامناس منها ولكنها لم تنشأ دفعة واحدة بل تخمرت زهاء مئة سنة وكان مجلس الشيوخ يقاوم وقد امسى من الضعف بحيث لا يتيسر له ان يجري الاحكام بذاته على انه مازال على شيء من القوة تحول دون غيره من القبض على قياد الامة والقواد يتنازعون بينهم فتمن يكون السيد المتحكم وهكذا قضى الرومانيون قرناً يعططون في الفتن والحروب المدنية

ماريوس - كان اصل ماريوس القائد الاول الذي جعل جيشه تحت أمره في رومية من ارينوم وهي مدينة جبالية صغيرة ولم يكن من سلالة شريفة واشتهر بأنه ضابط وانتخب محامياً عن العامة ثم قاضياً بمساعدة الاشراف له . ثم انتاب عليهم وانتخب قنصلاً وعهدت اليه محاربة جو كورنا ملك التوميديين الذي بدد شمل عدة جيوش رومانية

وعندهما جند ماريوس جماعة من فقراء الوطنيين ممن أصبحت الخدمة العسكرية صناعتهم فتغلب ماريوس بجيشه على جوكورتا واهلك الشعوب البربرية كالسكيريين والتوتون ممن اغاروا على غاليا وابطاليا الشمالية . واذ لم يكن للشعب ثقة في غيره اقيادة الجيش انتخبه قنصلاً ست مرات متوالية خلافاً للقوانين المتبعة

عاد الى رومية بعد هذه الانتصارات فاصبح مطلق اليد في الحكومة وعندئذ تألف في تلك العاصمة حزبان دعيا انفسهما باسم حزب الشعب (وهو حزب ماريوس) وحزب الاشراف (وهو حزب مجلس الشيوخ)

الحرب الاجتماعية - ارتكب اشياح ماريوس من القذائع ما انتهى بتلوث شهرته بين الناس فانغم أحد الاشراف من أسرة كورنيوليوس الكبيرة واسمه سيللا هذه الفرصة لينازعه السلطة وكان هو أيضاً من حملة اقواد . وفي خلال ذلك استشاط الطليان غيظاً من قيامهم بتثل مايقوم به الرومانيون من التكاليف دون ان يكون لهم مثل امتيازاتهم ففزعوا الى مقاومته لينالوا حقوقهم المدنية وهذا مادعوه بالحرب الاجتماعية أي حرب مقاومة التحالفين فيشواجيوشاً كبيرة تقدم احداها على مقربة من رومية وكان سيللا هو الذي انقذ رومية بقتاله الطليان أشد قتال . وبعد حرب دامت سنتين (٩١ - ٨٩) خضع الطليان يد انهم نالوا ماطلبوه وغدوا وطنيين رومانيين

سيللا - طارت شهرة سيللا في هذه الحرب فنصب قنصلاً وعهد اليه ان يزحف على ملك بحر الخزر ميتريداتس الذي اغار على آسيا الصغرى وذبح فيها الرومانيين عن بكرة ابيهم (٨٨) فحمل الحسد ماريوس على ان يثير فتنة في رومية فخرج سيللا للاتحاق بجيشه الذي كان ينتظره في ايطاليا الجنوبية وعاد معه وكان الدين الروماني يحظر على الجنود الدخول الى المدينة وعليهم الاحتتم وعلى الحاكم نفسه قبل ان يجتاز الباب ان يخلع عنه رداء الحرب ويلبس الحلة الرومانية فكان سيللا القائد الاول الذي جسر على خرق سياج هذا المنع ودخل الى رومية فانهزم ماريوس امامه .

ولما وصل سيللا الى آسيا عاد ماريوس في جيش له من المشردين ودخل رومية بالقوة (٨٧) وعندئذ بدى بقتل المعتدين قبل محاكمتهم وجعل خاصة اشياح سيللا تحت الاحكام العرفية بل صدرت اوامر الحكومة ان يقتلوا حيثما وجدوا وصودرت اموالهم ومات ماريوس بعد بضعة اشهر وظل سينام انصاره يجري احكامه في رومية ويقتل كل من لا تروق حالته وكان سيللا في خلال هذه المدة قد تغلب على ميتريداتس ومن اخلاص جنده له بان اباح لهم نهب آسيا على ما يشاؤون . وقد عاد (٨٣) في جيشه الى ايطاليا

فبعت عليه خصومه بخمسة جيوش فانهزم بعضها وانحاز الآخر اليه ثم دخل سيللا الى رومية وذبح الاسرى وخنق انصار ماريوس .

الاحكام العرفية — بعد ان مضت بضعة ايام في المذابح شرع سيللا ينفذ الاحكام العسكرية على الاصول وعلق ثلاث قوائم باسماء من يريداهلا بهم قال : « اعلت اسماء جميع من ذكرتهم وقد نسيت كثير منهم وسأعلن اسماءهم كلها خطروا في بالي » وكل من علق اسمه في قائمة المحكوم عليهم كان معداً للقتل ومن اتى برأسه ينال مكافأة وتصادر اموال القاتيل وكان يقتل الواحد بدون محاكمة بل بمجرد هوى القائد وبدون ان ينذر بالقتل . وعلى هذا الوجه لم يكتف سيللا بذبح اعدائه فقط بل قتل الاغنياء الذين كان يطعم في ثروتهم ويروى ان احد الوطنيين البعيدين عن السياسة نظر وهو مار الى قائمة المحكوم عليهم بالقتل فرأى اسمه مسطوراً في اول القائمة فهتف قائلاً : « ما اثمه - بي فقد قلني يتي في آلب » ويقال ان سيللا قتل ألفاً وثمانمائة الف فارس .

قوانين سيللا — بعد ان تخلص سيللا من خصومه حاول ان ينظم حكومة تكون الكلمة فيها لمجلس الشيوخ . فعينه حاكماً مطلقاً (ديكتاتور) ويطلق هذا اللقب قديماً على القواد في ايام الشدة والخطر من تكون لهم السلطة المطلقة فاستخدم سيللا هذه السلطة ليس قوانين تغير النظام الدستوري القديم وذلك بان يتخبط القضاة بموجب هذا القانون من مجلس الشيوخ ولا تجري المناقشة في قانون قبل ان يوافق عليه مجلس الشيوخ ولا يحق لمحامي الشعب بته ان يقترحوا شيئاً . وبعد هذه الاصلاحات التي خولت مجلس الشيوخ سلطة مطلقة استقال سيللا من منصبه واخذ نفسه بالانقطاع الى داره والعيش في العزلة (٧٩) وكان يعرف بانه في مأمن اذ كان له مائة الف من جنوده في ايطاليا .

بومبي

بومبي — عاد مجلس الشيوخ قبض على السلطة لانه حسن في رأي سيللان يعيدها اليه ولكنه لم يكن له من القوة ما يستطيع معه المحافظة على تلك السلطة متى قام احد القواد بنازعه اباهاً . ودامت حكومة مجلس الشيوخ ايضاً في الظاهر اكثر من ثلاثين سنة وذلك لانه كان ثمة عدة قواد وكل منهم يحول دون خصمه ان يستأثر بالحول والطول . ولما هلك سيللا كان في البلاد اربعة جيوش على قدم الاستعداد اثنان منها خاضعان لقائدين من انصار مجلس الشيوخ وهما كراسوس وبومبي والاخران بقيادة قائدين خصمين لمجلس الشيوخ وهما لييدوس في ايطاليا وسرتوريوس في اسبانيا . ولما ثور انه لم يكن احد سيف تلك الجيوش على استعداد ونظام وان ليس في اولئك القواد حاكم له الحق بقيادة الجند .

وكان القواد الى ذلك العهد ابدأ من القناصل اما الآن فاصبحوا من الافراد ينضم اليهم الجند لا ليخدموا الجمهورية الرومانية بل ليفتنوا بسلب الاهلين .

ولقد انهزمت جيوش خصوم مجلس الشيوخ وبقي القائدان كراسوس وبومبي وحدهما وانفقا بينهما على الزعامة وجري انتخابهما قنصلين .

سبارتا كوس — تكرر حدوث عصيان العبيد مرات (حروب العبيد) وكان ذلك في الاغلب في جزيرة صقلية وجنوبي ايطاليا حيث كان العبيد يحملون السلاح لحراسة القطعان . وبعد ان ولي الولاية القائدان كراسوس وبومبي بدأت اشهر تلك الحروب وذلك ان عصابة مؤلفة من ٧٠ مصارعاً هربت من كابو ونهبت عربة تحمل اسلحة وانشأت تحمل على البلاد حملاتها تخف العبيد وانضموا اليها زرافات زرافات فلم تلبث تلك العصابة ان اصبحت جيشاً . وقد هزم هؤلاء العبيد على الولاء ثلاثة جيوش رومانية ارسلت لتأديبهم وكان سبارتا كوس زعيمهم أسرى في الحرب وهو من اقليم لراسياجي به الى ايطاليا ليستقدم في الصراع فحدثته نفسه ان يختار بلاد ايطاليا كلها للعود الى تراسيا بلده . بيد ان جيش كراسوس قاوم عصابات سبارتا كوس مؤخراً وكانت مختلة النظام فقتلها عن آخرها . وبعدها حظرت رومية على العبيد ان يحملوا سلاحاً . ويحكى انه أعدم راع من العبيد لانه قتل خنزيراً برياً بجمرة كانت معه .

حروب في الشرق — عهد مجلس الامة لبومبي ان يتولى قيادة الجيوش سيفه حربيين متعاقبتين في الشرق . الاول (٦٧) كانت مع قرصان البحر في شواطئ آسيا الصغرى وقد غزا شواطئ ايطاليا ونهبوها والثانية (٦٦) كانت مع ميتريدانس الذي لم يدرج على ما اصابه من الفشل يدافع عن حوزته في اطراف آسيا الصغرى

ولقد عاد بومبي من آسيا في جيش يتفاني في الاخلاص له وكان في بضع سنين السائد المسود في رومية واذا كان ينظر الى الشرف اكثر منه الى السلطة لم يدخل ادنى تعديل في الحكومة . وفي خلال ذلك نال الخطوة من الامة شاب من الاشراف اسمه قيصر فالتقى بومبي وكراسوس وقيصر على اقتسام السلطة (٦٠) فانتخب قيصر قنصلاً ثم والياً على غاليا وتولى كراسوس قيادة الجيش الذي ارسل الى آسيا للحملة على البارثيين ولقي حتفه سنة ٥٣ وبقي بومبي في رومية .

كانتالينا — بينما كان بومبي يحارب في الشرق حدثت في رومية ازمة كادت تؤدى الى ثورة وذلك ان احد الاشراف من قدماء انصار سيللا واسمه كانتالينا كان فقد ثروته لاسترساله في الشهوات فحاول ان يسترجع ماله بالقبض على ازمة الاحكام وكان رجلاً

قوي الشكينة جري، النفس مقدماً لا بتطرق الى قلبه وسواس وله اصدقاء كثيرون من اشراف الشبان المستهترين الفاسقين اخلصوا في حبه اذ كان يقضي معهم اوقات صفائه ويقرضهم مالا ويهديهم خيولاً وكلاب صيد . وله من الانصار قدماء اشياغ سيللا وقدماء الجنود الذين اسكنهم سيللا في ايطاليا ممن باعوا اراضيهم واخذوا يمشون عن مورد يعيشون منه .

فاتفق كاتالينا مع جمهور من هؤلاء الساخطين على ان يذبحوا في آن واحد القنصلين يوم يذهبان معاً الى معبد الكابيتول فلم يفلحوا فيما دبروه لان الخبر تراسى الى القنصلين الا ان كاتالينا احتفظ بانصاره وظل يدس الدسائس وكان اعداء مجلس الشيوخ وريثاً قيصر ايضاً يضدونه سراً فقدم نفسه لينتخب قنصلاً فكان خفصه في هذا الانتخاب شيشرون اشهرهم واعظم خطباء الرومان وكان هذا توصل الى ان ينتخب حاكماً لان الاسرات الشريفة غدت منذ عهد ماريوس لا تسمح الا بانتخاب اناس من الاشراف .

وماعد اشياغ مجلس الشيوخ الخطيب شيشرون فجري انتخابه وسقط كاتالينا الا ان القنصل الآخر رصيف شيشرون وهو الطونيوس كان مائلاً مراً للحاققين . فدبر كاتالينا مكيدة كبرى على ان يذبح اصحابه شيشرون واعضاء مجلس الشيوخ في رومية ويحرقوها بينما يكون قدماء اجناد سيللا المقيمين في اتروريا زاحفين على رومية . فبلغ الخبر شيشرون فلم يخرج الا في كوكبة من الفرسان محدقة به الا انه لم يكن عنده جيش لقتال قدماء الاجناد الذين شرعوا يجمعون ويتسلحون والعبيد الذين اخذوا يسلمونهم في كابو قفضي جزءاً من السنة التي تولى فيها القنصلية وهو في قلق مستمر .

واخيراً رجع واليان يقودان جنوداً فشرع شيشرون بقوة تمكنه من الدفاع فاستدعى مجلس الشيوخ ليوافق على قيام القناصل بما فيه سلامة الجمهورية الرومانية وان يعطي القناصل سلطة ليتخذوا عامة الاسباب التي يرونها مناسبة وادخل الجنود الى رومية يرايطون في الساحات ودعا مجلس الشيوخ الى الاجتماع ثانية وفي هذه الجلسة التي خطبته الاولى في مقاومة كاتالينا وسأله مشعراً اياه بما دبره من المكيدة التي افنح امرها وانذرته بالانصراف فغادر كاتالينا رومية وذهب للاتحاق بقدماء الاجناد المتقدمين في اتروريا وظل اشياغه في المدينة فاتفقوا سراً مع وفود الالوبيروج بان يقدموا لهم فرساناً ثم غيروا آراءهم وافشوا امر المتآمرين . فطلب شيشرون خمسة من رؤوس زعماء المؤامرة واضطرمهم الى الافرار . ثم استغنى مجلس الشيوخ فيما يجب ان يعاملوا به فاجاب بانه يجب اعدامهم ولكن كان احد المجرمين واسمه لانتولوس فاضيا ولا يحق لاحد ان يوقفه الا حاكماً له .

مقام ارق من مقامه فذهب شيشرون بذاته لتوقيف المجرمين الخمسة واخذهم الى ميمن
انكابتول وخنقهم وعاد يقول لمجلس الشيوخ : « لقد عاشوا »

فاعلى كاتالينا الحرب ولم يكن سوى جزء من رجاله يحمل سلاحاً ومعظمهم انقضوا
من حوله وزحف عليه جيش بقيادة القنصل انطونيوس آتياً من الجنوب وزحف آخر من
الشمال ولم يبق لكاتالينا سوى ثلاثة آلاف رجل حاول بهم الفرار نحو الشمال فرأى جبال
ابنين في وجهه مسدودة فانقض على جيش انطونيوس وهاجمه وقتل مع اصحابه جملة واحدة
(٦٣) فقال اذ ذاك شيشرون من مجلس الشيوخ لقب « ابولون » دلالة على انه انتقد
رومية من مخالب العدو ولكن لما انتهت سنة حكمه لم يعهد له بسلطة

فتح بلاد الغال

دحول قيصر الى ناليا - اتفق قيصر مع يومي وكراسوس ان يتولى كل منهم القيادة
في احدى الولايات اعظمى على ان يكون له الحلق في ان يجيش جيشاً فوضع كراسوس يده
على سورية ويومي على اسبانيا وقيصر على الثلاث ولايات المجاورة لغاليا وذلك لمدة خمس
سنين . وقد ذهب قيصر لما انتقضت سنة حكمه بصفته والياً الى مقر ولايته لينشي فيها
جيشاً يكون هو قائده ودخل في الحال في عدة حروب وقتل عشر سنين بعيداً عن رومية
(ولم يدم حكمه اكثر من خمس سنين الى سنة ٥٣ ولكنه جدد دفة ثانية الى سنة ٤٨)
وكانت رومية الى ذلك العهد لم تخضع غير جزء من البلاد التي تلتها الشعوب الغالية
بل لم يكن لها سوى ولايتين غاليتين : ناليا سيزالبين وهي مؤلفة من البلاد الواقعة بين
جبال ابنين - الالب (وهي اليوم ايطاليا الشمالية) - والبروفانسيا وهي عبارة عن شواطئ
البحر المتوسط وبلاد الرون من جبال الالب الى جبال البيرنيه . وكانت هذه البلاد مع
اقليم البليريا (الجبال الواقعة في شرقي الادرياتيك) هي الثلاث ولايات التي تولاهما قيصر .
اما باقي بلاد فرنسا الحالية التي دعاها الرومانيون غاليا فكانت مستقلة بعد بسكنها
ثلاثة عناصر من الناس . أحدها الغاليون وهم يشغلون القسم الاعظم من البلاد اي جميع
فرنسا الواقعة بين نهر الغارون ونهر السين ويصنفهم اليونان والرومان بان هؤلاء السكان
من الرجال العظام بيض البشرة شقر الشعر زرق العيون طوال السيلات يأكلون اللحوم
ويسكرون بنييد السرفواز (غرب من الجمعة) او بشراب الابدرومل وهم أشد شجاعة بالمجرمانيين
منهم بالفرنسيس اليوم . وكان السواد الاعظم من هذه الامة يعيش شتياً في الاكواخ
لاشأن لهم في ادارة شؤون بلادهم يخضعون لكبار ارباب الاملاك الذين يقاتلون راكبين
صهوات خيولهم ويدعوهم قيصر بالفرسان ويذكرهم كما يذكر تخار بين شعبان الغاية ولا يمد

ان يكون هؤلاء الفرسان الغاليون شبيهيين بالجرمانيين هم من الفاتحين نزولوا وسط شعب اصغر منهم أجساماً اشقر اصب يشبه الشعب النازل اليوم في البلاد الغربية أي فرنسا و ايرلندا و بلاد الغال

والقسم الثاني من تلك العناصر الثلاثة هم البلجيكيون نزولوا البلاد الواقعة في شمالي السين الى نهر الرين وهم يشبهون كما كان يقول الرومان الجرمانيين النازلين في الشاطيء الآخر من نهر الرين والظاهر انهم كانوا أقل اختلاطاً بالشعب القديم من الغاليين واحسن الفرسان فيهم كانوا يقاتلون راكبين

والقسم الثالث من تلك العناصر هم الآكينيون نزولوا في جنوبي نهر الغارون وهم ضئال الاجسام شجعان يشبهون الالبيين في اسبانيا ويتكلمون بلغة ايبيرية ويعتبرون سائر شعوب غاليا كأنهم غرباء وهؤلاء خضعوا لقيصر اول الامر . وبعد فلم يكن الغاليون والبلجيكيون والآكينيون أمماً معدودة بل لم يكن ثمة غير شعوب صغيرة يستولي أقدرها على نحو ثلاث أو اربع من مقاطعاتنا اليوم وكل مقاطعة تؤلف حكومة مستقلة ودعاها قيصر سيفيتا أي التي يحكمها كإيالة وتحارب غيرها . وكانت لبعض تلك الحكومات ملك ويحكم معظمها مجلس من الاشراف (الفرسان او كان للكهنة عند الغاليين سلطة كبرى

لم تخرج تلك الشعوب على حالة من التوحش بعد تعيش بما تنتجها لما ماشيتها وما مدنها الا اسوار صغيرة محصنة يجعلون فيها مواشيهم وعبائهم ابان الحرب ولئن كان معظم البلاد غابات وحراجاً فقد بدؤا يزرعون حنطة ليتيسر ان تطعم جيشاً رومانياً بأسره

جاء قيصر بنوي فتح غاليا في جيش اختاره من سكان الولاياتين الغاليتين الخاضعتين لرومية خاصة وكان مؤلفاً بحسب العادة الرومانية من مشاة منظمين ككتائب وعليهم اسلحتهم وهم مدربون أكثر من جيوش الشعب الغالي ولقد عني قيصر بذكر خبر الفتح في مفكراته فاوهم القاري بان الغاليين ساقوا عليه جيوشاً أكثر عدداً من جيشه ومن المحتمل بانه لم يقل الحقيقة اذ لم يكن في استطاعة غاليا ان تطعم غير عدد قليل من الناس ومعظم سكانها ليسوا بحاربين

غارة الهيلثيين والسويثيين - عند ما وصل قيصر الى بلاد الغال كان الايدوانيون النازلون في جبال مورفان اشد شعوب اواسط غاليا بأساً وعاصمتهم ييراكت بالقرب من أوتون وبلادهم واقعة بين نهر السون والوار . ومن أشداء البأس الارفربيون النازلون في البلاد الجبلية التي أطلق عليها اسمهم (اوفرنيا) وكانوا حاكمين على الامم النازلة في البلاد الصخرية الوسطى

فحارب الايدوانيون السكيانيين النازلين في جبال جورا لاختلاف طراً بينهم على الملاحة في نهرسون فاستدع السكيانيون من المانيا زعيماً سوفيئاً وهو الملك (اريوفيست) فألقى بعصاة من خيرة الحاربين مؤلفة من العامة خاصة وهم السوفييون . وبعد ان تغلب الايدوانيين طلب الملك اريوفيست الى السكيانيين جزءاً من ارضهم لينزل فيها جيشه . وكان السكيانيون صالحوا الايدوانيين لقتال اريوفيست الذين نزلوا عليهم وعندها استجد الايدوانيون برومية ولما قاد قيصر جيشه الى بلاد سون تقدم على انه حليف شعب غالي لمقاومة ثارة جرمانية وفي غضون ذلك اخذ اهلتيون وهم شعب غالي يسكن سويسرا بالهجرة من بلادهم فانقلبوا منها يحملون أسراتهم ومواشيهم وامتعهم محمولة على مركبات قائلين انهم يريدون مهاجمة بلاد الغال ليستوطنوا شواطئ المحيط . وربما كان ذلك حيلة منهم ليذهبوا لنصرة الايدوانيين على اريوفيست وتقدموا الى قيصر ان يسمح لهم باجتياز تلك الولاية الرومانية فأبى عليهم ذلك فلم يبق امام الهيلثيين الا ان يقطعوا وادي سون فدامهم قيصر بالقرب من نهرسون وحمل اولاً على ساقة جيشهم ثم هاجم مجموعهم فذبح منهم جزءاً عظيماً واضطر من افلتوا من القتل الى الرجوع الى بلادهم . ثم ارتد على اعقابهم لقتال اريوفيست واسرع حتى بلغ في جيشه الى فيرونوسيو (برانسون) وحاذر جنده من هول هذه الحرب وهم في بلاد جبلية مفضاة بالغابات يهاجمون برابرة اشداء على ابهة تامة فجمع قيصر قواد المئة من جنده (يوزباشية) وقال لهم على من يوجسون خيفة ان يسافروا مع الفرقة العاشرة فاجابه قواد المئة بانهم يتبعونه حيثما ذهب

وقطع الجيش الروماني مجاز جبال القويج ونزل الى سهل الازانس وجاء يسكر امام العدو . والى اريوفيست معسكره من مركباته وتحصن وراها وكان قيصر يمر بجيشه في السهل ويعيه للقتال ثم صحت عزيمة اريوفيست على الخروج من المعسكر فدام الجيش الروماني في فرسانه فجرح وفر جنده فطارده العدو حتى نهر الرين . وكان المهاجمون الجرمان يطردون الى خارج غاليا ولكن قيصر لم يأت مع جيشه الى ولايته بل رابط معه في وادي سون حيث قضى الشتاء وقد اخذ يعامل بلاد غاليا كالبلاد المغلوبة فاضطرت الشعوب الغالية ان تحالف رومية .

فتح شمال غاليا -- الى الجليكيون النازلون بين نهري السين والرين وهم اشجع شعوب غاليا كافة ان يدخلوا في محالفة رومية فتعاهدوا بينهم وتحالفوا وجمعوا جميع الحاربين من ابناءهم في بلاد لاون . فجاء قيصر في الربيع في ثمانين فرق من الجند وعقد محالفة مع احد هذه الشعوب وهم الريمسيون ونزل في معسكر حصين على راية يفصلها عن معسكر الجليكيين

وإذ ذوب بطائح وظل الجيشان زمناً أحدهما قبالة الآخر وإذا كان الجيش الروماني منتظماً كانت تأتية التجديدات من الطعام تباغاً أما الجليكيون فشق عليهم أن يتخذوا في تلك الأدغال والحراج فانفذ قيصر الأيدوانيين أحلافه يجر يوت بلاد البيلوفاكين أم تلك الشعوب المتخافة ولما بلغ الجليكيون ذلك انقضت جموعهم ليذهبوا للدفاع عن بلادهم فتخلص قيصر من جيش العدو بدون قتال وراح يطوف بلاد الجليكيين ويهاجم مدنها الواحدة بعد الأخرى مكرماً كل أمة أن تكون حليفة لرومية وإن تعطيها على سبيل الرهن رجلاً من الأسمرة النبيلة في بلادها .

وقد دام النيرفيون (أهل بلاد السامر) أحد هذه الشعوب الجيش الروماني في غابة على شاطئ نهر السامبريناً كان يبني معسكره وهزم الفرسان الغاليين أحلاف الرومان وعساكر الرجالة الخفيفة إلا أن الكتائب حمت المؤخرة وحالت دون الهزيمة فاخذ قيصر يحارب النيرفيين حرباً يريد بها إبادتهم عن آخرهم . ولما أخضع الجيش الروماني الشعوب الجليكية قضى الشتاء في وسط بلاد غاليا على شاطئ اللوار .

فتح الغرب — قبلت الشعوب النازلة على ضفاف أنهر المحيط أن تحالف رومية وتقدم لها رهائن وما جاء الشتاء حتى تحالفوا بينهم وأبوا أن يرسلوا حنطة لأطعام الجيش الروماني وأسرأ عندهم مندوبي الرومان الذين جاؤهم في طلب ذلك ليكرهوا قيصر على أن يعيد إليهم من استبقاهم عنده من رجالهم رهينة . وكان للفتنين (سكان فان) وهم من الشعوب الخطيرة في ذلك الحلف سفن حربية صنعوها من شجر البلوط وجعلت بحيث تسير على إرادة ربانها ولها مقدم مرتفع يقاوم فعل الأمواج وطبقات سفلى منبسطة تستطيع أن تبحر على قيعان الشاطئ وفي البحار الضيقة فانشأ قيصر سفناً ذات قلع في مصب نهر اللوارها جميعها أسطول الفتنين . وصعب عليه أن يحطمه لأن سفنه لم يكن لها من العلوما يكفي للوصول إلى مساماة تلك السفن الفينيقية وكانت مراكبه داخلية في الماء كثيراً بحيث لا يتسنى لها أن تطارد مراكب عدوه في وسط العنخور والقيعان وبعد اللتيا والتي صنع الرومان مناجل ذات مقابض وعصي طويلة قطعوا بها الخيال التي كانت تمسك قلع سفن الفتنين فلما سقطت القلع من هذه السفن ولم يكن عندها محاذيف تقذف بها وقت لا تبدي حراكاً فداهمها الجيش الروماني وأخذها عنوة فطلب الفتنيون الصلح إلا أن قيصر أمر بإشراقهم فصربت أعناقهم وباع سائر الشعب بيع العبيد . وفي تلك المدة أيضاً كان اقتطع قيصر فرقة صغيرة من جيشه لتخضع لسلطان رومية جميع الشعوب النازلة في الأقليم المعروف اليوم بأقليم نورمانديا وهناك فرقة أخرى له تحارب شعوب الأكستيين في جنوب نهر الغارون

وعلى هذا فقد اخضع قيصر في ثلاث حملات (٥٨ - ٥٦) عامة بلاد غاليا واغتنم فرصة الشتاء للعودة الى ولايته في ايطاليا المعروفة بسيزالبيين

وفي العام التالي (٥٦) ضرب موعداً للقائدين الآخرين اللذين كانوا يقاسمونه الحكم وهما يومى وكراسوس فاجتمع ثلاثتهم على تخوم ولايته سيفى ولاية لوكس وقرروا تجديد حكمهم لخمس سنين اخرى

حملات الى خارج غاليا - حارب قيصر خارج غاليا دلالة على سطوته واشغالا لجيشه وكان شعبان جرمانيان اجتازا نهر الرين وهاجما بلاد البلجيك فدار قيصر في جيشه وفرسان شعوب غاليا على نهر الرين بالقرب من ملتقى نهر الموز وهاجم الجرمان وذبهم مع نسائهم واولادهم ثم بنى على الرين جسرا من جذوع الاشجار وذهب لتخريب الشاطيء الايمن ولما عاد الى غاليا ركب البحر مع فرقتين (٥٥) واجتاز بحر المانش ونزل الى بريطانيا (انكلترا) ولما انشأ في السنة التالية سفنا مرسمة قليلا لنقل الاثقال واخيول عاد الى بريطانيا في جيش كبير واجتاز الغابات التي دافع عنها المحاربون البريطانيون حتى بلغ نهر التيمس (٥٤)

قيام الغاليين - كان الاشراف في معظم الشعوب الغالية من اشياخ رومية يقاتلون في الجيش الروماني على انهم رديء من الفرسان ويعاشرون الضباط الرومانيين وكان بعضهم من اصحاب قيصر الا ان السواد الاعظم من تلك الامم كانوا يتبرمون باوائك الجنود الغرباء الذين يسرون سير السادة فانشق بعض الزعماء عن حزب الاشراف وانفقوا بينهم سرا على تسييح الشعب . وكان قيصر قد وزع جيشه على شعوب كثيرة لقضاء فصل الشتاء وذلك لان التجمع كان نادرا في تلك السنة . فقرر زعماء الغاليين ان يفتنموا هذه الفرصة لمهاجمة الفرق المنعزلة وقطع مواصلاتهم فانظروا ريثما يتعد قيصر الى ولاية سيزالبيين حيث ذهب لقضاء الشتاء .

الا ان شعب الكارنوت (شارتر) ابدى نواجذ العصيان قبل ان يتم ما يروونه مستشيطا غضبا من ملكه الذي نصبه قيصر وحاكمه فحكم عليه بالاعدام وقتل . فبلغ قيصر هذا البأ فاستعد للحرب ولما ازمنت الفرقة الرابطة في بلاد السامبر الخروج من معسكرها داهمها الاربورون وذبجوها . ورأت فرقة رومانية اخرى ان تبق في معسكرها فاحاط بها الغاليون فاسرع قيصر وتمكن من انتقاذها وعند ذلك استراحت الجنود الرومانية الى آخر الشتاء . ولما طلع الربيع ابدى عدة شعوب غالية من الشمال ان يعثوا بوفودهم الى قيصر فجمع جيشه بزمته وسحقهم واحدا بعد واحد فانقم من الاربورين تخريب زروعهم وحرق قراهم وذبج

السكان وطارد المنهزمين الى غابات آردن وما جاء الخريف الا وقد خضعت غالبا الشمالية بأسرها .

الفارس فرسختوريكس — اجمع شعوب اواسط البلاد في خلال الشتاء امرهم بينهم على العصيان ثانية وبدأ الكارثيون اولاً فداموا مدينة سنايوم على نهر اللوار فقتلوا فيها تجار الطليان كافة . وفي هذه المرة تسلم عامة الشعوب النازلين بين نهر السين والغارون لقتال الرومان وبقي الاكتيون على الحياد . وبدأت الشعوب المخالفة لرومية تنزع السلطة من يد الاشراف اشياص قيصر واقاموا زعما جدداً ودخل هؤلاء في التحالف التالي

وكانت زعيم الثورة شاباً من اشراف ارفرنا اسمه فرسختوريكس وهو فارس يحسن الفروسية خدم في الجيش الروماني وكان صديق قيصر وحدث ثورة في بلاده اولاً وما هاج سكان القرى حتى نزع السلطة من ايدي الاشراف واصبح ملكاً على ارفرنا . ثم بعث يرسل الى الشعوب الاخرى وجمع جيشاً وجعل من نظامه ان يحرق الخائنين ويصلم آذان الا بقين ويسمل عيونهم . فدام الغاليون الرومانيين في آن واحد في الجنوب من ولاية بروفنسيا (من اقليم لانكدوك) وفي الشمال من البلاد الواقعة بين نهري السين والسون حيث كانت ترابط الفرق الرومانية واضطر قيصر ان يجتاز جبال سيفين وهي مكللة بالثلوج واكره فرسختوريكس من رجاله ان يعود للدفاع عن بلاده فانسع الوقت لقيصر ان يجمع جيشه بالقرب من سانس ويذهب فيه الى اقليم اللوار فحرب فرسختوريكس جميع البلاد وجعل المدن قاعاً صفصفاً لتكون قفراً لا يجد فيها العدو شيئاً يطعمه بيد ان البيتورييجين لم يقبلوا بغريب مدينتهم افاريكوم ودافعوا قيصر عنها زمناً

بعث قيصر في الربيع (٥٢) فيلقاً لمباغثة شعوب السين وذهب بنفسه في معظم جيشه للهجوم على جر كوفيا قلعة الارفرنيين فرد على اعقابهم وخرج موقفه اذ لم يكن لديه طعام (لخواب مخازن ذخائره في نرفر) وهو محصور بين شعوب الارفرنيين والابدوانييين الذين ذبحوا التجار الطليان ومع ذلك اصر على عدم اخلاء غاليا وتمكن من الوصول الى سانس . وفي خلال ذلك عين المجلس المؤلف من مندوبي جميع الشعوب الغالية الزعيم فرسختوريكس قائداً عاماً على الجيوش الغالية

فاستدعى قيصر من جرمانيا فرساناً اخذهم لحساب رومية وقاد جيشه من ناحية سون واعلمه فعل ذلك ليتمكن من مراسلة بروفنسيا فنبهه فرسختوريكس في جيشه وحاول ان يقطع عنه مواد الطعام ورمى الجيش الروماني وهو في مسيره بفرسانه الغاليين فهزهم فرسان الجيش الغالي ورجع فرسختوريكس على اعقابهم الى مدينة البزبا الحصينة في بلاد

الآكام بين نهر السون ومصب نهر السين فنبه قيصر وحامره فيها جاعلاً حول اليزيا سوراً تعلوه دائرة مجتعة ذات أبراج يجمعها بخندق .

وصل جيش من الغالين لرفع الحصار عن جيش فرسختوريكس ودام الرومانيون ولكن حال دون الوصول اليه ذلك السور الذي اقامه قيصر من ناحية الخلاء . وبعد اشتباك القتال بين الجيشين رُدَّ الجيش الغالي على اعقابهم وتفرق شذراً مذر فم يبق عند الجيش المحاصر في اليزيا ثم من الزاد فسلم فرسختوريكس (٥٢) فبعث به قيصر الى رومية حيث قضى ست سنين مجيئاً ثم شهد حفلة انتصار قيصر وضرب عنقه .

وهكذا انتهى المصيان العام . وقضى قيصر سنة اخرى في اخضاع الشعوب التي كانت تقاوم واحداً بعد الآخر فابادها . وكان بفاخراته ذبح في ثمانين سنين مليوناً من السكان وانه اسر منهم مليوناً آخر باعه بيع العبيد وقضى سنة اخرى لتنظيم شؤون حكومة غاليا وبعد ذلك صفا الجو لرومية بهلاك اعدائها . وقد وسد قيصر الحكم الى الاشراف اشياخ الرومان والف فرقة من الغالين لقبوها بالسنونو وكان جيشه المدرب يحبه فحدثته نفسه ان يستخدمه في الاستيلاء على المملكة الرومانية باسرها . فخضعت غاليا لرومية مباشرة وانقسمت ولايات ولكن لتظيمها لم يتم الا على عهد اغسطس .

عاقبة الجمهورية

كاتون الاوتيكي - ينال كان القواد يتنازعون بينهم فحين يستأثر بالسلطان على العالم الروماني اشتهر رجل بتعلقه بالدستور الجمهوري القديم الذي اخذ يمزق ولما رآه آخذاً في التداعي لم يلبث ان اتهم وكان كاتون هذا هو الملقب بعد بكاتون الاوتيكي باسم المدينة التي انتحر فيها .

كان هذا الرجل من أسرة شريفة من اخلاف كاتون وزير الاحصاء الشهير والمدافع عن الاخلاق الرومانية القديمة كتب له ان يكون صاحب ثروة طائلة وهو شاب بعد . وكان قد تعلم فلسفة الرواقيين وجرى عليها فانشأ يعيش عيش الزهاد يأكل قليلاً ويشرب قليلاً ولا بتطيب وعود نفسه احتال الحر والبرد الشديد يسافر ماشياً في كل فصل من فصول السنة حتى مع اصحابه الراكبين خيولهم ولا يلبس الا ثياباً بسيطة رثة وقد وقع له ان يخرج بدون حذاء .

ولما أرسل قائداً لاسد الجيوش الى احدي الحروب (بموجب امتياز فيان الاشراف) احبه جنده واحترموه اذ رأوه يعيش مثلهم عيشاً بسيطاً ولما وصلت اليه نظارة المالية عني بالنظر في الحسابات بنفسه على العكس فحين كان قبله من الاشراف يتولون هذه النظارة

فانهم كانوا يتركون الكتاب ينظرون في شؤون المالية وحدهم وبذلك اكتشف تروبرات
الكتبة وحاكم المرتكبين واشتهر بغيرته وكان لا يتأخر عن جلسة من جلسات مجلس الشيوخ
او مجلس الامة فصار يضرب المثل لشرفه واصبح القوم يقولون عن الامر المتعذر « لا يمكن
تصديق هذا ولو قاله كاتون »

وكان كاتون يقوم بما يعتد انه واجب عليه دون ان تأخذه رافة او ثالة رهبة .
وحاول ان يحكم على مورينا لانه ابتاع اصوات الامة حتى انتخبته قنصلاً فبرأه شيشرون
وكان اذ ذاك قنصلاً بخطاب سخر فيه من فلسفة الرواقيين فقال كاتون : « حقاً ان لنا
قنصلاً مضحكاً » واقترح قيصر في مسألة المشتريين في قتل كاتالينا ان يتأخر اعدائهم
لانهم رفعوا قضية فاشند كاتون على قيصر واثار الى مجلس الشيوخ ان يأمر باعدام الجناة
في الحال فلم يسع المجلس الا ان يقرر قتلهم .

ولما اقترح بومبي سن قانون يسمح له بادخال جيشه الى رومية خلافاً لما رسمه الدستور
استشاط كاتون غضباً في جلسة مجلس الشيوخ من المحامي متلوس الذي اقترح وضع
القانون وصرح بانه ما دام حياً لا يدخل بومبي الى المدينة مسلحاً ولما جاء متلوس الى الساحة
في جيش من العبيد المسلحين للموافقة على القانون اخترق كاتون صفوف الجماعة وقعد
بالقرب من متلوس ومنه من قراءة مشروعه فجاء العبيد اذ ذاك صارخين يرمون بالحجارة
و يضربون بالعصي فهرب الشعب وبقي كاتون فانقذه مورينا بان جره الى احد المابدوعاد
الشعب فصعد كاتون على المنبر وخطب في سيئات هذا القانون فابى متلوس ان يعرضه وذهب
الى آسيا ليحقق يومئذ

ولما اتفق قيصر وبومبي وكان قيصر قنصلاً اقترح سن قانون فلم يجرأ غير كاتون على
قناله فانزله قيصر من المنبر بواسطة رجال الشرطة وبعث به الى السجن وظل كاتون يتكلم
في الطريق وقد تبعه جمهور من اعضاء مجلس الشيوخ فعزم قيصر ان يحل سبيله وللخلاص
منه ارسلته الحكومة الى قبرص ليطرده منها الملك بطليموس دون ان يعطوه جيشاً واذ كان
هذا الملك اتجر لم يبق على كاتون الا ان ينظم فئمة بما خلفه الملك من الكنوز فاقى الى رومية
بيلغ كبير فاستقبله مجلس الشيوخ احسن استقبال وتقدم للانتخاب قاضياً وكانت القبيلة
الاولى وافقت على انتخابه واذ كان بومبي رئيس المجلس لم يربداً من ان يدعي ان السماء
ترعد واعلن بانقضاء الجلسة (والعدد طالع شؤم كما عرفت في بعض الفصول السابقة)
وعند ما اقترحوا ان يعطوا لقيصر جيشاً تقدم كاتون الى بومبي ولطالما شغل الاول بقتال
الثاني وحضه على الحذر من قيصر فبقي بومبي عدواً لهذا وهذا لم يمنع كاتون عند ما رأى

المنافسين في الحكومة يقتتلون في المدينة من معاهدة اقتراح المقترحين ان يعينوا بومي وحده قصصاً عند ما اقترب احدهما من صاحبه ولما زحف قيصر على رومية بجيشه نصح كاتون لمجلس الشيوخ ان ياتي الى بومي بقباليد الحكم باجمعه قائلاً على من عمل الشر ان يتلافاه . وتبع بومي الى خارج ايطاليا ومنذ ذاك العهد اطلق شعره ولحيته علامة على الحزن واثار باطالة زمن الحرب وكان يخاف من عاقبة قتال يقتل فيه الرومانيون بعضهم بعضاً ولما بانتهز بومي فارسال سافر الى مصر يريد الالتحاق ببومي ووقف في افرقية حيث كان لاحد اشياخ بومي جيش وتولى الدفاع عن مدينة اوتيكيما

واذ هزم قيصر جيش افرقية اقترح كاتون على الرومانيين التازلين في اوتيكيما ان يحاصروا فايوا فاطلق كاتون جميع اعضاء الشيوخ الذين لجؤا اليه ثم استحم وتعشى مع اصحابه واخذ يخوض في المباحث الفلسفية ولما حان وقت النوم طالع محاورة لافلاطون في خلود النفس والتمس سيفه الذي كان نزعته ابنه عنه مغاضباً فاحضره اليه فجعله على مقربة منه ونام فاستيقظ عند الفجر ثم طعن نفسه في صدره وكان عمره ٤٨ سنة .

فارسال - لم يبق في البلاد بعد وفاة كراسوس غير بومي وقيصر وكلاهما يودان استئثار بالسلطة وكان من تقدم بومي على صاحبه انه كان في رومية مسئولاً على ازمة مجلس الشيوخ وكان مع قيصر جيش غاليا المدرب على الحروب منذ ثلثي سنين قضاه في الحملات .

فاتخذ بومي خطة الهجوم واستعذر من مجلس الشيوخ امراً بان يترك قيصر جيشه ويحيى الى رومية فعقد قيصر اذ ذاك عزمه على اجتياز حدود ولايته (وكان الحد هو نهر رويكون) وزحف على رومية . ولم يكن عند بومي جيش في ايطاليا للدفاع فركن الى الفرار مع اكثر الشيوخ من الشاطيء الآخر من بحر الادرياتيک وكان له عدة جيوش في اسبانيا واليونان وافرقية شنت قيصر شملهم واحداً بعد الآخر فهزم جيش اسبانيا سنة ٤٨ ثم جيش اليونان في فارسال سنة ٤٨ فجيش افرقية سنة ٤٦ ولما غلب بومي في فارسال لجأ الى مصر فقتله ملكها .

حكم قيصر - ولما رجع قيصر الى رومية عهد اليه بالامر لمدة عشر سنين فصار الحاكم المطلق ثم حارب جيوش اشياخ بومي في افرقية وساد جميع البلاد الخاضعة للرومان واحتفل في رومية بظفروه باربعة اعداء الغالين والمصريين وملك بحر الخزر في آسيا الصغرى وملك التوميديين حليف البوميين في افرقية (لم يكن من اللياقة بان يفاخر لتغلبه على جيش روماني) .

فقام مجلس الشيوخ لقيصر بالتشريفات الدينية فاعطاه اولاً كرسيّاً اعلى من مقاعد

القنابل ولقبه بالاول ثم خوله الحق ان يحمل تاجاً من الفار (وكان ذلك من حق الارباب) ومنحه لقب «ابو الوطن» وابتدع احتفالات والعاباً اكراماً له واقام له مثلاً خطوا فيه الفاظ التعظيم وعهدوا الى الكهنة للاحتفال بعبادة رب يوليوس قيصر . ومن الممكن ان يكون قيصر طمع في لقب ملك ومع هذا دعا نفسه بالامبراطور وقبل بان يلبس ثوباً ارجوانياً وان يجلس على عرش من ذهب ويرمم خوذته على النمود .

واحتفظ قيصر بمجلس الشيوخ وجميع المناصب وهو الذي كان يعين المرشحين الذين يقضى على الشعب انتخابهم وهو الذي وضع قائمة لمجلس الشيوخ وكان هلك كثير من الشيوخ فابلق عدد الاعضاء الى تسعمائة ومعظمهم من انتخابه وكثيرون منهم من الغالين ولم يقض في رومية غير خمسة عشر شهراً من حيث المجموع فما اتسع له الوقت ان يقوم بالاصلاحيات التي كان ينويها (ما ندا تقويم السنين) ثم قتله ندماؤه الذين كانوا يرغبون في اعادة حكومة مجلس الشيوخ (٤٤)

احد المحاكم الثلاثة -- اضطر الشعب الروماني وكان يحب قيصر زعمي قتلته وهما بروتوس وكاسيوس ان يهربا ففتحيا الى الشرق حيث جيشا جيشاً عظيماً وظلّ الغرب تحت حكم انطونيوس الذي اعتمد على جيش قيصر فحكم رومية حكماً استبدادياً

وكان قيصر تبنى ابن اخته اوكتاف وعمره ثماني عشرة سنة بوصية اوصى بها فسعي بحسب العادة الرومانية باسم متبنيه ودعا نفسه يوليوس قيصر الاوكتافي . فضم الى حربه جند قيصر وعهد اليه مجلس الشيوخ ان يحارب انطونيوس وبعد ان تغلب عليه آثر الاشتراك معه لاقسام السلطة فاتحداً مع لييدوس ودخلا ثلاثتهم الى رومية واستولوا على الامر استيلاء مطلقاً مدة خمس سنين تحت اسم المحاكم الثلاثة المعهود اليهم تنظيم المسائل العامة . وشرعوا في نفي خصومهم واعدائهم الخاصة (فامر انطونيوس بضرب عنق شيشرون) (٤٣) ثم ذهبوا الى الشرق لتثبيت جيوش التحالفين وبعد ذلك انقسموا المملكة بينهم . ولم يدم الوفاق بينهم طويلاً بل قاتل بعضهم بعضاً في ايطاليا حتى توسط جندهم في الامر واضطروهم الى العودة لما كانوا عليه من الاتفاق ثم جرى تقسيم المملكة من جديد فاصبح انطونيوس ملك الشرق واوكتاف ملك الغرب (٢٩)

حرب الاكتيوم - دام السلم بضع سنين فاخذ انطونيوس بعيش عيش ملك شرقي مصاحباً لكلو بطرة ملكة مصر وشغل اوكتاف بقتال ابن بومبي الذي كان تحت امره اسطولاً يخرب به شواطئ ايطاليا . وانتهت الحال بهذين الملكين باقطاع علائقهما فنشبت آخر حرب بينهما وكانت حرباً بين الشرق والغرب تمت بحرب اكتيوم البحرية واسلم اسطول

كلو باطرة انطونيوس صاحبها فلجأ الى مصر وانتهروني اوكتاف وحده صاحب المملكة المطلق (٢١) وكان قد انتهى امر حكومة مجلس الشيوخ .

تقرير السلطة المطلقة - شك الناس كلهم من هذه الحروب وكان سكان الولايات يؤخذون فداءً ويسبي الجند معاملتهم ويقتلهم تقتيلاً يضطرون كل فريق من الحكام ان يخازوا اليه ويعاقبهم الغالب على انضمامهم الى المغلوب . وكان القواد يمدون الجند بان بكائهم باعطائهم اراضي يستغلونها فيطردون منها عامة سكان مدينة ليحل محلهم قدماء الاجناد . وكان اغنياء الرومان يخاطرون بثروتهم وحياتهم ومتي غلب حزبهم يصيرون العميلة في يد الغالب يتصرف فيهم بما يشاء . فقد وضع سيلا مثلاً من المذامح المدبرة (٨١) وبعد اربعين سنة (٤٣) جدد انطونيوس اوكتاف امر القتل بدون محاكمة

واقعد كان شعب رومية نفسه يشكو من سوء هذه الحالة فلا تصل الى رومية الحبوب التي هي مادة غذائه على طريقة مطردة بل كانت تقع في يد قرصان البحر او ينهاها اسطول العدو فبعد ان مضى قرن على طريقة هذا الحكم لم يعد للجميع من الروما وسكان الولايات والاغنياء والفقراء رغبة في غير السلام وعندها تقدم الى ذاك الشعب المنهوك بالقتل الاهلية وارث قيصر ابن اخته اوكتاف احد الحكام الثلاثة - تقدم اليهم بعد ان تغلب على رصيفيه قال المؤرخ ناسيت وقبض بيده على جميع سلطات الامة ومجلس الشيوخ والحكام . ولم تخض بضع سنين الا وقد اصبح سيداً على رومية وليس بعد هذا من لقب فلم يعد يفكر احد في مقاومته وقد اغلق معبد جانوس ونشر في العالم الوية السلام وهذا كان ما يطلبه العالم باجمعه وذلك لان حكومة الجمهورية بواسطة مجلس الشيوخ لم تكن تمثل غير النهب والحروب المدنية فكانت النفوس تطمع في رجل يكون من القوة بحيث يحول دون الحروب والثورات وعلى هذا الوجه أسست الامبراطورية الرومانية .

اغسطس

تنظيم الحكومة الملكية - يقضي نظام الحكم الجديد الذي وضعه وريث قيصر ان يكون الحكم المطلق بيد رجل واحد يدعى الامبراطور اي الرجل المدبر الامر وله الحق ان يتولى السلطات باسمها التي كانت موزعة بين الحكام القدماء فيرأس مجلس الشيوخ ويجمع الجيوش كلها ويقودها ويضع قائمة باسماء اعضاء الشيوخ والفرسان والوديين ويحيي القرائب وهو القاضي الاكبر والخبير الاعظم وله سلطة القضاء . وليان ان هذه السلطة قد جعلته رجلاً فوق الرجال من البشر لقيوه بلقب ديني وهو اغسطس او اغست ومعناه المحترم لم تنتظم شؤون المملكة بشورة انت على كل اصطلاح قديم ولم يلق اسم « جمهورية »

وانقضت ثلاثة قرون واعلام الجنود لا يزال يكتب عليها اربعة حروف من اول اربع
كلمات S. P. Q. R. ومعناها مجلس الشيوخ والشعب الروماني ولكن اجتمعت السلطة التي كان
ينقسمها اثنا عشر شخصاً كثيرين في يد واحد وبدلاً من ان يتولاها سنة فقط اصبح يتولاها طول
حياته فالامبراطور هو الحاكم الفرد مدى حياته في الجمهورية وفيه يتجسد الشعب
الروماني ولذلك كان مطلق التصرف .

مجلس الشيوخ والشعب — بقي مجلس الشيوخ الروماني على ما كان عليه قديماً مجلس
اعيان الاغنياء واكثر الوجوه حرمة في المملكة فكانت عضوية المجلس تعد من الشرف
المرغوب فيه فاذا ارادوا ان يقولوا الامرة الفلانية كبيرة يقولون هي اسرة شيوخ ولكن مجلس
الشيوخ على حرمة لم تعد له سلطة لانه لا يتأقن الامبراطور ان يستغني عنه ولم يبرح مع
هذا اول قوة حاكمة في الحكومة وان لم يكن المسيطر عليها وكان يتظاهر الامبراطور احياناً
بانه يريد اخذ رأيه ولكنه لا يعمل بمشوراته .

فقد الشعب كل سلطة اذ ألغيت مجالسه منذ عهد تiber . واصبح جمهور الامة المزدهم
في رومية لا يتألف الا من بضعة الوف من كبار السادة مع عبيدهم ومن خليط من الشحاذين
وكانت الحكومة قد تعهدت باطعامهم ودام الامبراطرة يوزعون عليهم الخنطة ويرضخون
لم بشيء من النقود فاعطى اغسطس سبعمائة فرنك عن كل رأس تسع مرات واعطى نيرون
٢٥٠ فرنكاً ثلاث مرات عن كل رأس .

ثم ان الحكومة كانت تقم مشاهد لتسلية هذا العوزاء . وكان عدد المشاهد النظامية
٦٦ يوماً في السنة على عهد الجمهورية فبلغت بعد قرن ونصف على عهد مارك اوريل ١٣٥
يوماً وفي القرن الخامس وصلت الى ١٧٥ يوماً دع عنك الايام الاضافية

وتدوم هذه المشاهد منذ شروق الشمس الى غروبها فيتناول المتفرجون طعامهم سيفي
الساحات . وهذا ما كان الامبراطرة يتخذون منه طريقة امينة لاشغال العامة . قال احد
المثابرين لاغسطس : لئلا تدرك يا قيصر يعني الشعب بنا . بل كانت هذه المشاهد واسطة
لاستئالة قلوب الامة للامبراطور فكثيراً ما كان اقيج الامبراطرة اكثرهم حظوة عند العامة
فكان نيرون الظالم بعيد لانه قام بالعباب لطيفة فلم يصدق العامة بانه مات . وكان
ينظر قدومه بعد ثلاثين سنة من موته .

وما كان العامة في رومية يبحثون عن تولي الامور بل غاية ما تطال اليهم تقوسهم ان
يتسلوا او يأكلوا كما قال جوفينال في عبارة له شديدة : « خبز والخبز الميدان »
التأليه — الامبراطور وحده سيد المملكة ما دام حياً لان الشعب الروماني يتقلى له

عن كل سلطنة ومتى مات يبحث مجلس الشيوخ فيما اتاه في حياته ويحاكمه باسم الشعب فاذا حكم عليه بتبطل جميع اعماله وتخطئة ثيلته ويحصى اسمه من المصانع والآثار (١) واذا اقر على اعماله (وهو ما يحدث غالباً) يقرر مجلس الشيوخ بان الامبراطور مات وقد ارتقى الى مصاف الارباب .

وقد غدا معظم الامبراطرة ارباباً بعد موتهم على هذه الصورة فكانت تقام لهم معابد وعيد الى كاهن ان يقيم لهم الشعائر الدينية وقد كان في جميع اجزاء المملكة معابد رسمت باسم الرب اغسطس والربة رومية واشتهر عن اشخاص انهم قاموا بوظائف كاهن للآلهي كلود وللآلهي فزبازين وهذه العادة في تأليه الامبراطور المتوفى كانت تسمى «التأليه» والسكسة يونانية وانقلت عاداتها من يونان الشرق على ما يظهر

ادارة الولايات — كان ثلثائة او اربعمائة امرة شريفة في رومية تحكم البلاد وتستمر باقي المعمور منذ الفتح الروماني فجاء الامبراطور بنزع منهم الحكومة ويخضعهم لسلطان ظله . حتى اصبح كتاب الرومان يشنون من فقد حريتهم المسلوبة ولم يكن لسكان الولايات ما يأمنون عليه بل ظلوا رعايا ولكن بدلاً من ان يرأسهم عدة مئات من الرؤساء يتناوبون الحكومة على الدوام ويحيثونهم بنهمين للغنى اصبح لهم رئيس واحد وهو الامبراطور يهتم بالنظر في امرهم . ولقد اوجز تiber السياسة الامبراطورية بما يأتي «الراعي الصالح يميز صوف غنمه ولا ينتهه» فخصى زهاء قرنين وقد اكتفى الامبراطرة بجز سكان مملكتهم بسلبيون منهم كثيراً من الاموال ولكنهم يجمعونهم من العدو الخارجي بل من عالمهم انفسهم . وعند ما كان سكان الولايات يشكون من القضاة ومن سرقات حكامهم كانوا يستعدون الامبراطور فيعديهم . وكان من المعروف عند القوم ان الامبراطور يقبل الشكوى على ضباطه وهذا كان يكفي لادخال الرعب على قلوب الولاة الفاسدين وادخال الطمأنينة على رعاياهم

الولايات كلها ملك للامبراطور (٢) لانه يمثل الشعب الروماني فهو قائد جميع الجنود وسيد الناس طراً ومالك الاراضي كافة (قال الفقيه كايوس ليس لنا في اراضي الولايات الا التمتع بها والامبراطور وحده مالك لها) واذا كان من المتعذر ان ينصب الامبراطور في كل ولاية عنه الوكلاء الذين يختارهم بنفسه يرسل الى كل ولاية بضابط (يسمونه مندوب اغسطس اتولي بوظيفة القضاء) وهذا المندوب يحكم البلاد ويقود الجيش ويطوف في

(١) عثر على كتابات محي منها اسم دوميتيين على هذه الصورة

(٢) ترك اغسطس لمجلس الشيوخ بعض ولايات من اقل ولاياته منزلة ولكن ظل فيها حاكماً فمحكماً مثل ولاياته الخاصة كأنه صاحبها

ولايته ليفض المصالح المهمة ويده الحياة والموت كالامبراطور . ويعتد الامبراطور ايضا بحفاظ لجبي الخراج وادخال المال في صندوق الامبراطور (ويسمونه نائب اغسطس)

فالقضاة والمحافظ يمثلان الامبراطور ويحكمان على رعاياه ويقودان جنده ويشتان ملكيته . ويختارهم الامبراطور ابدًا من الطبقتين الشريفتين في رومية يختار الضباط من مجلس الشيوخ والمحافظين من الفرسان ولهؤلاء العمال مراتب للتشريف على نحو ما كان الحكام في رومية القديمة يتدرجون من ولاية الى اخرى ذاهبين من طرف المملكة الى طرفها (١) فمن سورية الى اسبانيا ومن انكلترا الى افرقية . واذك لتقرأ في الكتابات المكتوبة على قبور رجال ذاك العهد جميع المناصب التي شغلوها مبينة احسن بيان . وكتابة قبورهم تكفي لبيان تراجعهم وما تولد من اعمالهم

الحياة البلدية - وكان تحت هؤلاء العمال انكبار الذين يمثلون الامبراطور وهم لا يسألون عما يفعلون اناس من العامة الخاضعين يديرون شؤون انفسهم بانفسهم وللامبراطور الحق في ان يتدخل في شؤونهم الداخلية الا انه لا يسيء في العادة استعمال هذا الحق . فيطلب اليهم فقط ان لا يحاربوا وان يدفعوا على وتيرة واحدة ما يفرض عليهم من الاموال وان يحاكموا امام محكمة الوالي . وكان في كل ولاية كثير من الحكام المحكومين ويسمون اهل المدينة او البلديون ومن هنا جاءت كلمة الحكم البلدي والمجلس البلدي تجري كل مدينة خاضعة للامبراطورية في ترتيباتها على مثال رومية نفسها فيكون لها مجلس الشعب وتنتخب حكماها لسنة ويقسمون الى فرق في كل فرقة عضوان ومجلس الشيوخ مؤلف من كبار ارباب الاملاك والاغنياء وارباب الاسر القديمة وفي الولايات كما في رومية لا يكون مجلس الامة الا صورة والحكم للمجلس الشيوخ اي للاشراف

من العادة ان يكون مقر الولاية مدينة اي مثل مدينة رومية مصفورة ولها معايبها وافواس نصرها وحماماتها العامة واحواضها ودور تمثيلها وميادين قتالها والعيشة فيها عيشة مصفورة من عيش رومية فتوزع الخنط والدرام على الفقراء وتولم الولاة العامة وتقام الحفلات الدينية الكبرى والالعب الدموية . الا ان رومية تقوم بما يجب لذلك من النفقات تأخذ من مال الولايات اما في الولايات فان الاشراف يقومون بالاتفاق على حكومتهم واعياذها . والخراج الذي يجبي لحساب الامبراطور يحمل كله اليه ولذلك

(١) قال الفيلسوف ابيكت لا يقدر كبار الرجال ان يتأصلوا في الارض كالنباتات بل عليهم ان يسبحوا كثيرا لاطاعة اوامر الامبراطور

يقضى على اغنياء كل مدينة ان يقوموا بما يقضي من النفقات للاحتفال بالالاعاب واحياء الحمامات وتبليط الشوارع وبناء الجسور والمجاري والساحات . قاموا بذلك مدة تزيد عن قرنين واتفقوا عن سعة شهدت بذلك المصانع النبتة في ارض المملكة وألوف من المكتوبات على الاسجار

المستعمرات — تقيم رومية في البلاد التي تشك في خضوعها لها جيشاً صغيراً تسكنه فيها فيني مدينة تكون حصناً حصيناً وتبوء اليه بأناس من الوطنيين الرومانيين يكونون جنداً وفلاحين في آن واحد ويميزي الجيش الاراضي المجاورة الى حصص متساوية توزعها عليهم وهذا ما يسمونه مستعمرة

ويبقى المستعمرون ووطنيين رومانيين ويخضعون للجميع ما تأمر به رومية . وتختلف المستعمرة الرومانية عن المستعمرة اليونانية — التي كانت كثيراً ما تشق عصا الطاعة حتى انها لتحارب آثنته نفسها — بان تكون ابداً ابنة خاضعة لامها فليست المستعمرة الاحامية رومانية مرابطة بين الاعداء . وكانت اكثر هذه المحطات العسكرية في ايطاليا ولكن كان منها في مكان آخر مثل مستعمرة فاربون وليون وآرل فانها كانت مستعمرات رومانية .

جيش التقوم — لم يكن في المدن الداخلية جيش روماني لان سكان المملكة لا يرون الانتفاضي على الحكومة فلم يكن للمملكة اعداء الا على الحدود وكان الاجانب ابداً على اعتماد من مهاجرتها فالجرمان وراء نهري الرين والطينة ورحالة الصحراء وراء رمال افريقية ووراء الفرات جيوش المملكة الفارسية

ولذا كان من اللازم للالازب اقامة جند يكون على قدم الاستعداد على تلك التقوم المعرضة ابداً للتهديد . ادرك اغسطس ذلك فانشأ جيشاً دائماً فلم يكن جنود الامبراطورية من اصحاب الاراضي يؤخذون من حقوقهم ليقدموا في الجندية بعض حملات بل كانوا اناساً من الفقراء جعلوا الحرب صناعة لم يداخلون الجندية ليقدموا فيها ست عشرة سنة او عشرين سنة وربما جددوا هذه المدة

وعلى هذا كان للامبراطورية في رومية ثلاثون فرقة من الوطنيين اي ١٨٠ الف اولهم بموجب العادة الرومانية مساعدون فيبلغ مجموعهم نحو ٤٠٠ الف رجل على التقريب وكان هذا الجيش قليلاً بالنسبة لعظم تلك المملكة

ولكل ولاية على الحدود جيش صغير بعيد في معسكر دائم يشبه قلعة يحمي الباعة ينزلون بقرى فلا يتم المعسكر ان يصبح مدينة وهكذا يعسكر الجند بازاء العدو فيحفظون

شجاعتهم ودر بهم - مضت ثلاثة قرون والجند الروماني يدخل في كل حرب زبون مع البرابرة المتوحشين ولا سيما على ضفاف الرين والطونة في بلاد ندية فاحلة مغطاة بالغابات والمستنقعات - وربما بذل الجند الروماني في هذه الحروب التي لا نتيجة لها من الشجاعة والشهامة أكثر مما بذل قدماء اليونان في فتح العالم

الآداب - لم يكن الرومان بالطبع أمة فنون وقد أصبحوا كذلك فيما بعد مقتفين فيها أثر اليونان - فمن يونان أخذوا نموذجاً من فاجعاتهم وقصصهم المزعزعة وملاحمهم وأناسيدهم وأشعارهم الفلسفية والعامية والتاريخية - واقتصر بعضهم على ترجمة الاصل اليوناني (كأفل هوراس في أناشيده) وكلهم اقتبسوا من اليونان افكارهم ومناحيهم ومزجوها عند ما احتذوا مثالها بما عرف فيهم من صفات الصبر والشهامة حتى صارت بعض آثارهم غريبة الغرائب في أسلوبها

واتفق الرومان على ان العهد الذي أزهت فيه الآداب اللاتينية حقيقة كانت الحسنين سنة التي قضاهما اغسطس في الحكومة فهو الوقت الذي نبغ فيه فرجيل وهوراس وأوفيد وتيبول وبروبرس وتيت ليف ولكن عصر اغسطس (كما يسمونه) قد سبقه ولحقه قرنان ربما عادلاء في اخراج النوايغ في الجيل الاول (القرن الاول قبل المسيح) اظهر الشاعر الغريب المدهش لوكريس وقيصرانير ناثر وشيشرون اخطب خطيب وفي الجيل اللاحق كتب سينيك ولوكين وتاسيت وبلين وجوفنال ما كتبوا

وبعض هؤلاء المؤلفين العظام فقط من أسرة رومانية ومعظمهم ايطاليون وكثيرون من الولايات مثل فرجيل من مانتو وتيت ليف من بادو (في غاليا) وسينيك اسباني وكان الفصاحة هي الفن الوطني حقاً في رومية فكان الرومان كالأطليان في ايامنا يحبون الكلام علناً - وكان الخطباء يأتون الى ساحات الاجتماع حيث تلتئم مجالس الامة في أواخر عهد الجمهورية بخطبون ويكثرون من الحركات وسط ذوي القوم وشيشرون اعظم أولئك الخطباء وهو الوحيد الذي بقيت بعض قطع من خطبه

ولما سقطت الجمهورية انقضت أيام المجالس فقدت الفصاحة لقلة المادة

اللغة اللاتينية - انتفعت آداب اللغة اللاتينية بفتوحات رومية فنقلها الرومان مع لنتهم الى رعاياهم المتوحشين في الغرب فتناسى جميع شعوب ايطاليا وغاليا واسبانيا وافريقية وضفاف الطونة لغاتهم الخاصة وتعلموا اللغة اللاتينية - ولما لم يكن لهم آداب وطنية خاصة اقتبسوا آداب حاكيمهم فتكلم اهل الامبراطورية اذ ذاك بلغتي الشعبين الكبيرين القديين فظل الشرق يتكلم باليونانية واخذ الغرب باجمعه يتكلم باللغة اللاتينية

فلم تكن اللاتينية اللغة الرسمية للوطنيين وكبار الرجال فقط كما هي الانكليزية لهندنا في الهند بل ان الامة نفسها تتكلم بها ما امكن من الصحة بحيث ان القوم في اوربا بعد انقضاء ثمانية عشر قرناً ما برحوا يشكون الى اليوم بخمس امانات مشتقة من اللاتينية وهي الايطالية والاسبانية والبرتغالية والفرنسوية والرومانية

وانتشرت الآداب اللاتينية مع اللغة اللاتينية في عامة انحاء الغرب فما كانت تدرس في القرن الرابع في مدارس بوردو واوتون وغير شعراء اللاتين وخطيباتهم وظل الاساقفة والقسيسون يهدمون البرابرة بكتبهم بالغة اللاتينية ونقلوا هذه العادة ايضاً الى شعوب انكلترا والمانيا الذين احتفظوا بلغتهم الجرمانية . فباللاتينية كتبت في القرون الوسطى السجلات والعقود والشرائع والتواريخ والكتب العلمية . وفي الادبار والمدارس لا تقرأ ولا تسمع ولا تعتبر غير الكتب اللاتينية وما عدا كتب العبادة لم يعرف غير مولتي اللاتين امثال فرجيل وهوراس وشيشرون وبلين لجون وما كانت النهضة العصرية الاوربية الا عبارة عن احياء ما فقد من آثار اقلام كتاب اللاتين واصبح التسبح على منوالهم اكثر من ذي قبل . فكما ان الرومان انشؤا لانفسهم آداباً خاصة لتقليدهم اليونان هكذا صار المحدثون من الاوربيين ينسجون على مثال كتاب اللاتين . وليت شعري هل عاد ذلك بخير ام بشر؟ ومن يجزم ان يفوه بذلك؟ فما لاجدال فيه اذا ان لغاتنا الرومانية الاصل هي بنات اللاتينية وان آدابنا طائفة بالافكار والمنازع الادبية الرومانية وان العالم الغربي بامره مصبوغ بصيغة الآداب اللاتينية .

الصناعات - عثر الباحثون بكثرة على تماثيل وصور بارزة رومانية ابقتها الايام من عهد تلك الحكومة منها ما نقل عن الآثار المصرية ويكاد يكون معظمها تقليداً لها ولكنها اقل من الاصل لطفاً وذوقاً . ومن اغرب الامنودجات الباقية النقوش البارزة والصور النصفية في النقوش البارزة كانت تزدان بها المصانع (كالمعابد والعمد واقواس النصر) والقبور والنواويس تمثل بها احسن تمثيل مشاهد حقيقية وحفلات ونذوراً وحر وباكوماتم وكل ما يحيطنا علماً بالحياة السالفة . وان النقوش البارزة التي جعلت حول اعمدة تراجان ومارك اوريل لتجباينا كأننا نشاهد مشاهد حر وبها العظيمة بتلك الرسوم تمثل لك الجنود لتقابل البرابرة ويحاصرون فلا عزم ويأتون بالاسرى كما تشاهد النذور العامة والامبراطور يخاطب شعبه والصور النصفية هي في الاكثر صور الامبراطرة ونسائهم واولادهم واذ كثرت تماثيلهم في اطراف المملكة بامرها عثر على كثير منها . حتى ان عند جميع الشاحف اليوم مجموعة من الصور النصفية الامبراطورية وهي صور حقيقية وربما كانت شبيهة باصحابها كل

الشبه اذ نرى فيها سماء كل امبراطور واضحة اي وضوح وكثيراً ما تكون بشعة مستكرهة بحيث لم يحاول النقاشون ان يزيتوها ويخفوها من سخات المصورين

فلم البناء هو الفن الروماني الحقيقي لانه يقوم بحاجة عملية وفيه ايضاً قلد الرومان اليونان باخذ الاروقة والعمد ولكن كانت لهم طريقة لا يستعملها اليونان وهي العقود (الاقبية) اي فن وضع الاحجار المنحوتة تدعم بعضها بعضاً على شكل قوس مربع . فبالعقود تنى لهم ان ينشئوا ابنية اوسع واكثر ثقلنا من ابنية اليونان

المصانع - اليك اهم انواع المصانع الرومانية منها «المعبد» وهو كثيراً ما يشبه المعبد اليوناني وله دهليز متسع ويكون احياناً اكثر سعة تعلوه قبة . ومن هذا النوع معبد البانثيون الذي بني في رومية على عهد اغسطس . ومنها «الكنيسة الكبرى» وهي بناء مستطيل طويل تعلوه سقف وتحيط بها اروقة وفيها ينصدر الحاكم يحيط به نوابه وفيها يجتمع التجار ليتجادلوا في ثمن البضائع فالكنيسة هي «بورصة» ومحكمة مما . وفي الكنائس الكبرى اقيمت بعد ذلك مجالس المسيحيين وظلت الكنائس النصرانية قرونًا محتفظة باسماء الكنائس الرومانية واشكالها

ومنها المرازح (المرايح) ذات الدرجات «انفلياتر» والملاعب وهي مؤلفة من عدة طبقات واروقة وضعت بعضها فوق بعض تحيط بالملاعب وكل طبقة من هذه الاروقة تعلوه عدة صفوف من الدريجات وذلك مثل الكوليزة في رومية وميادين ارل ونيم . ومنها قوس النصر وهو باب شرف له بعض سعة بحيث يكفي لمروور مركبة منه وهو مزين بعمد ومزخرف بنقوش كثيرة ومن هذا النوع قوس النصر في اورانج . ومنها الجسر وهو يبنى على صف من الحنايا وسط النهر . ومنها المجاري التي تجلب فيها المياه وكثيراً ما تكون على شكل جسر لتر فوق دار ومن هذا الضرب من المجاري القطعة من الجسر المسماة كارد

وقد كان الامبراطور اغسطس يفاخر بانه افتح في رومية زهاء ثمانين معبداً قال : « لقد وجدت مدينة من القرميد وهاء نذا اترك مدينة من الرخام » وعمل اخلافه كلهم على زخرفة رومية وقد ازدحمت المصانع حوالى القوروم (الميدان) خاصة واصبح الكتاتول مع معبده المعروف بمعبد المنتري اشبه شيء بالا كروبول في آثينة . وفي ذلك الحى ايضاً انشأ عدة ساحات ذات مصانع مثل ساحة قيصر وساحة اغسطس وساحة نرفنا وساحة تراجان وهي ازهاهن

استخدم الرومان (١) في ابنتهم الحجارة التي وقعت تحت ايديهم في البلاد يرصفونها بلاط

(١) لا ينبغي ان يغرب عن الالهام ان الصناعات الرومانية هي كآداب الرومانية

متين صنع بالكلس والرمل بحيث انت عليه الف وثمانائة سنة وهو لم تحت بنا اصابه من الرطوبة . ولا نقرأ في مصانع الرومان تلك الهجمة التي تُغلى على المصانع اليونانية بل انها متسعة متينة راسخة القواعد شأن انجح الروماني . وما زالت ارض البلاد الى يومنا هذا طافحة باقراض تلك المصانع ولم يبرح الباحثون يعثرون حتى في قفار افريقية والدهشة آخذة منهم على مصانع رومانية محفوظة سالمة . ولما أريد جلب الماء الى تونس لم يعملوا الا ان اصلمحوا بجري النهر الذي أنشئ في العهد الروماني .

التجارة — أصبحت رومية اعظم مدينة في العالم (ويذهبون الى انه جاء عليها زمن كان فيها مليون نسمة) فكانت بالطبع مركز تجارة المملكة . ولقد مضت العصور القديمة والمتاجر تنقل في الماء اي في البحار وفي الانهار اكثر من الطرق التي يقضيها عجلات ثقيلة لنقل تلك المتاجر . فكانت المتاجر تنقل الى رومية من طريق البحر خاصة فتقلها السفن الى مرفأ اوستي عند مصب نهر التيبر ومنها توسق في قوارب تصعد النهر حتى تصل الى سفح جبل افنتين وتنزل شحنها في مرفأ رومية . وكانت البضائع الخاصة ببقية ايطاليا تفرغ في مرفأ بوزول في خليج نابولي ومن هناك يرسلونها في الطرق واذا تيسر لم يرسلونها سبفا قوارب تسير على الشاطئ او تجري صعدا في الانهار تجرها الخيول

وكانت رومية وايطاليا تصرفان اكثر مما نتجان لتجارتهما خاصة تجارة واردات وكان تجار من الطليان ينزلون في اهم مرفأء العالم يجمعون فيها حاصلات كل بلد ليعتوا بها الى رومية . وكنت تجد في كل بلد مركزا للتجارة مثل بلزمة في صقلية وقرطاجنة في افريقية والاسكندرية في مصر ومن هذه البلاد كانت تجلب الى رومية الحبوب والزيت والفاكهة والبقول الناشفة ومن المراكز التجارية افيز في آسيا الصغرى وانطاكية في سورية ومنها كانوا يرسلون الاصواف والاقشة والحنطة التي تخرجها البلاد الداخلية . ومن هذه المراكز اوليا على شاطئ البحر الاسود واليه كانت تأتي حنطة روسيا . ومنها قادش في اسبانيا كانت ترسل الى رومية فضة المناجم واوبار بتنكيا (في الاندلس) ومن هذه المراكز نار يون وارل في غاليا كان يجلب اليهما في غير الرون جلود بلاد الغال واخشابها (اما مارسيليا فكانت سقطت منزلتها القديمة ومرسى فريجيوس اصبح ميناء حرة) .

وكان الرومانيون يجلبون ايضا بضائع من خارج فبيعت اليهم الشرق بادوات الزينة والرفاهية كالعطور والابازير (الفلفل وجوز الطيب والزنجبيل) والنيلة والعاج والاحجار

لم نشأ بيد صناعات من الرومان بل بيد اناس من سكان الولايات ربما كانوا من العيد ولم يكن ثمت روماني الا الرجل الذي يعملون له اعمالهم

الكريمة واقشة الصوف والحريز والعبيد السود والحيوانات النادرة (ولاسيما القروء) فكانت تجلب الى الاسكندرية من طريق البحر الاحمر او في النيل وتأتي الى انطاكية من طريق الخليج الفارسي وبادية الشام (مع القوافل) والى اولبيا من طريق بلاد فارس وبحر الخزر وكان الرومان يستخرجون من بلاد الشمال المواد التي لم تهذبها يد الصناعة مثل عتبر البلطيق وقصدير انكثرا وكان يأتي من طريق غاليا الجلود والاديب والشمع وشعور النساء والعبيد أغسطس — مات أغسطس ولم يخاف وورثايرته مباشرة خلفه ابن زوجته نير وهو الذي تبناه ومضى نصف قرن والامبراطور ابدأ رجل من أسرة أغسطس وادرك الرومان منذ ذاك فساد هذه الطريقة

فكان للامبراطور مدة حياته سلطة متناهية لاحد لها فهو الحاكم على هواه في الاشخاص والاموال يحكم بالقتل و يسادر الاموال ويهلك مزيير يدها لا كبدون رقيب لا يقف امام ارادته حاجز من نظام ولا قانون . حتى قال المشرعون الرومان : ان لامر الامبراطور قوة القانون . وبذلك عرفت رومية الاستبداد الذي لانهاية له على نحو الاستبداد الذي كان يجري في المدن اليونانية استبداد لم يخصص في سور ضيق من مدينة بل كان عظيماً كالمملكة . فكما كان في يونان ظالمون اهل حشمة وقار كان في رومية امبراطرة حكماء محتشمون ولكن قل في هؤلاء من لم يستهيم دوار السلطة عند ما يرون انهم يلقوا ارق رتبة يصل اليها انسان . ومن امبراطرة رومية من لم يستخدموا سلطتهم التي لم يسمع بتثلها الا لترسل اسماؤهم كالامثال فضرب المثل بنبيرون وظلمه بكلود خايفة تيبروس سخافته وكاليجولا وجنونه المطبق وتقليده حصانه رتبة قصص وتطاوله الى ان يعبد كالارباب . فكان الامبراطرة يضطهدون الاشرف خاصة ليحولهم عن كيد المكاييد ويضفطون على الاغنياء ليصادروا اموالهم

وكانت هذه السلطة المتناهية سيئة النظام وهي تتمثل كلها في شخص الامبراطور ومتى هلك يبحث فيما اتاه من الاعمال . كان القوم عارفين بان العالم لا يستغني عن سيد ولكن ليس في شريعة ولا عادة ما يستدل به على ماهية ذاك السيد . فكان من حق مجلس الشيوخ وحده ان يعين الامبراطور ولكنه يختار ابدأ بالقوة من اختاره الامبراطور السالف أو رضي عنه الجند . ولقد عثر حراس القصر الامبراطوري بينا كانوا يبحثون فيه عقيب وفاة الامبراطور كاليجولا على رجل اختبأ وراء الفرش وهو ترتد فرائضه فأروا انه من انساب كاليجولا فعينه الحرس امبراطوراً وكان هو الامبراطور كلود

الحرس الامبراطوري — كان يحظر زمن الجمهوريات على القائد ان يأتي في جيشه الى المدينة فاصبح الامبراطور رئيس الجيوش كلها وله في رومية حرس عسكري مؤلف من نحو

عشرة آلاف رجل أقاموا منذ عهد تiber في ثكنة حصينة بالقرب من المدينة . ويتنخب هذا الحرس من قدماء الاجناد وتدر عليه الرواتب الكثيرة وتوالى عليه الاحسانات و بهؤلاء الجنود يعتز الامبراطور فلا يخاف باثقة تصيبه من الناقبين عليه من أهل رومية . بيد ان الخطر كان يأتي من الحرس نفسه واذ كانت القوة معهم اعتقدوا بانه يحل لهم ان يأثوا كل شيء وكان زعيمهم أوسع سلطة من الامبراطور

الثورات والحروب — امتشاط أشرف الرومان غضباً مما أثاره نيرون من الفظائع وضروب الجنون فحدا سخطهم ببعض الولاة الى الانتفاض وخلق الطاعة فشمع اذ ذاك مجلس الشيوخ بقوة يستند اليها فأعلن بان نيرون عدو عام فلم يسمه الا الهرب ثم الانتحار .

وبعد موته (٦٨) وقع اختيار مجلس الشيوخ على والي اسبانيا المدعو غالباً فيمينوه امبراطوراً ولكن الحرس الامبراطوري لم يره كريماً جواداً فذبحه ونصب مكانه أحد ندماء نيرون واسمه أتوت . ثم ان الجنود المراقبة في تخوم جرمانيا ارادت ان تنصب بنفسها امبراطوراً فدخلت فرق نهر الرين الى ايطاليا فصادفوا الحرس الامبراطوري بالقرب من كويمون فقتلوا منهم مقتلة عظيمة في وقعة شعواء أخذت بطرفي الليل ثم نصبوا الامبراطور الذي اختاره مجلس الشيوخ وهذا القائد فينليوس

وفي ذاك الحين انتخب جيش سورية زعيمه فسباسين الذي قاتل فينليوس وعين مكانه (٦٩) وهكذا نصبت رومية ثلاثة امبراطرة في سنتين وأُنزل الجند ثلاثة امبراطرة عن عروشهم . وفي خلال هذه الحروب نهب جنود جرمانيا مدينة وحرقت معبد الكابيتول . الفلافيون — نصب فسباسين امبراطوراً فوطد أركان السلم وكان ايطالياً وهو حفيد أحد الفلاحين حافظ على عادات له في الاقتصاد والسذاجة في عيشه . فرأى القسم الاعظم من مجلس الشيوخ قد تمزق شملهم والأسرات القديمة قد بادت أو هلكت فاستعاض عنها بأسرات ايطالية أو من اهل الولايات وبما تجدد مجلس الشيوخ على هذه الصورة كف عن ابداء العداء للامبراطور فخلف فسباسين أولاً (٧٩) ابنه تينوس الذي مات للعال ثم ابنه دومنين (٨١) الذي كان قاسياً غداراً مثل ظلمة اليونان

الانطونيون — اشتهر الخمسة الامبراطرة الآتون وهم زرافوترا جان وادريان وانطونين ومارل أوربل (٩٦ — ١٨٠) بالحكمة والحكمة ويدعونهم الانطونيين (وهذا الاسم لا يوافق في الحقيقة الا الآخرين منهم) ولم يكونوا من نسل البيوت القديمة في رومية بل كان تراجان وادرين اسبانيين وولد انطونين في نيم ولم يكونوا أمراء من أسرات امبراطورية خلقت لتولي رقاب الناس منذ ولادتها . وقد تولى الحكم اربعة امبراطرة وهم عقيمون فلم

ينسب نقل الحكم بالوراثة . وكان الامبراطور يختار كل مرة من قواده وولاته أقدر رجل يخلفه ويبنيه ويعينه باختيار مجلس الشيوخ له وهكذا لم يبلغ عرش الامبراطورية الا اناس محنكون يخلفون آباءهم في مركزهم بدون قال وقيل .

ولقد كان عصر الانطونيين اهدأ العصور التي عرفها العالم القديم والحروب تنشب بعيدة عن تخوم المملكة ولم يحدث في الداخلية شغب عسكري بتاتا ولا مظلة ولا أحكام جائرة . فكبح الانطونيون جماح الجند بتدريبتهم على النظام ونظموها المحاكم ومجلس الامبراطورية وهو مؤلف من الفقهاء والمشرعين واستعاضوا عمن حرروهم من العبيد الذين ظالما سخط الرومانيون عليهم على عهد الاثنى عشر قيصراً باناس من الموظفين النظاميين اختاروهم من أشراف الطبقة الثانية (يعني الفرسان) وما عاد الامبراطور ظالماً يخدمه جند بل كان حقاً الحاكم الاول في الجمهورية لا يستعمل سلطته الا لما فيه نفع شعبه

حارب الانطونيون حروباً كثيرة ليدفعوا الشعوب الحاربة التي كانت تحاول مهاجمة الامبراطور من ناحيتين . غاربوا في أسفل نهر الطونة الداسيين وهم شعب بربري سكن البلاد الجبلية ذات الغابات التي نسميها الآن ترانسلفانيا كما حاربوا على القرات حكومة البارثيين العسكرية الكبرى التي كانت جعلت المدائن عاصمتها قرب بابل وكانت مملكتهم تمتد على طول بلاد فارس .

ولقد حمل تراجان على الداسيين عدة حملات واجتاز الطونة ورجح في ثلاثة مواقع واستولى على عاصمة ملك الداسيين (١٠١ - ١٠٢) وتفضل عليهم بالصلح ولما عاود الداسيون الحرب عمد تراجان ان يأتى عليهم فائتاً على نهر الطونة جسراً من حجر وهاجم ولايتهم فضمها الى المملكة الرومانية (١٠٦) وأنزل فيها طواري، ومستعمرين أنشأ فيها مدناً وأصبحت ولاية داسيا بلداً رومانية تكلم اهلها باللاتينية وتخلقوا بالاخلاق الرومانية .

ولما انجلت الجيوش الرومانية في اواخر القرن الثالث كانت قد استحكمت اللغة اللاتينية من الداسيين وظلت شائعة في بلادهم خلال القرون الوسطى على الرغم من غارات برابرة الصقالية . وقد اطلق على الشعب الذي يسكن اليوم السهول في شمالي الدانوب اسم رومية فيدعى الروماني ويتكلم بلغة مشتقة من اللاتينية كالفرنسية والاسبانية

حارب تراجان البارثيين ايضاً فجاز القرات واستولى على « المدائن » وهي عاصمتهم وتوغل في احشاء البلاد الى فارس ودخل الى سوس واخذ منها عرش ملوك فارس المحمول من الذهب الاصم . وانشأ اسطولا على دجلة ونزل في النهر حتى مصبه واجر في خليج فارس

واستخلص من البارثينين البلاد الواقعة بين بلاد القرات ودجلة وجماعها ولايتين رومانيتين
 بيد ان هاتين الولايتين انتقضتا بعد سفر الجيش الروماني .

اما الانطونيان الاخيران وهما انطونين ومارك اوريل فقد شرفا الامبراطورية بنضالهما
 وكان كلاهما يعيش ببساطة كما يعيش الافراد على غناها دون ان يكون لهما ما يشبه قصرًا
 أو سرايا وان يشعرا بأنه كانت لهما سلطة وسيادة

ولقد اقب مارك اوريل على العرش بالحكيم وكان يحكم البلاد مدفوعاً بعامل الواجب
 على غير ارادته ومع انه كان يؤثر العزلة قضى حياته في الحكم وقيادة الجيوش .
 وانك تترى فيما خطه في تذكرته البيئية من افكاره صورة الفيلسوف الرواقي الصالح الزاهد
 العازف عن العالم وهو على جانب من اللطف والحلم قال : « أحسن الاساليب في الانتقام
 من الاشقياء هو ان لا يعمل المرء عملهم والارباب انفسهم يعطفون على الاشقياء فلك ان
 نقسدي بالارباب »

ولقد كان مارك اوريل يأخذ برأي مجلس الشيوخ في عامة المسائل ويحضر جلساته
 بدون انقطاع . ولقد وقف في وجه كثير من الشعوب البربرية الجرمانية يرد غاراتها
 ويدفع عادياتها تلك القبائل التي اجتازت الطونة على الجليد ودخل الى شمالي ايطاليا واقتضى
 له ان يؤلف جيشاً فجد عبيدًا وبرابرة (١٧٢) فانسحب الجرمانيون ولكن بينما كان مارك
 اوريل مشغولاً في سورية بقتال أحد القواد المتحدين عادوا على اعقابهم وهاجموا الامبراطورية
 ومات مارك اوريل على ضفاف الطونة (١٨٠)

ولما وقفت الفتوح (بعد تراجان) كانت الامبراطورية تمتد على طول جنوبي اوربا
 كلها وعلى طول الشمال من افريقية والغرب من آسيا ولا يقف في سبيلها الا الحدود الطبيعية
 فمن الغرب البحر المحيط ومن الشمال جبال ايكوسيا ونهر الرين والطونة وقافقاسيا ومن الشرق
 بوادي القرات وبلاد العرب ومن الجنوب شلالات النيل والصحراء الكبيرة . فكانت
 الامبراطورية الرومانية عبارة عن البلاد التي تتألف منها اليوم كل من انكلترا واسبانيا
 وايطاليا وفرنسا والجليك وسويسرا وبافيرا والنمسا والمجر والبلاد العثمانية في اوربا ومراكش
 والجزائر وتونس ومصر وسورية وفلسطين والاناطول أي انها ضعفا مملكة الاسكندر .

السلام الروماني - ابطال الرومان الحروب في داخلية بلادهم باخضاع جميع الشعوب
 لسلطانهم . فتوطد السلم الروماني الذي وصفه احد كتاب اليونان بما يأتي : « لكل فرد ان
 يذهب حيث شاء فالرواقي خاصة بالسفن والجبال أمينة على سالكيها أمن المدن لسكنيها

ولم يبق دافع للقوف وقد طرحت الارض سلاحها الحديدي القديم ونجحت في ثياب الاعياد .
وها انتم أولاء قد حققتم قول هوميروس بان الارض ملك للجميع»

فاصبح الناس في الغرب للمرة الاولى في حل من انشاء بيوتهم وزرع حقولهم والاستمتاع
باموالهم واوقاتهم دون ان يكونوا كل ساعة عرضة لمهدد يتهددهم باستلابها منهم او ان
يذبحوا او يقادوا كالاشرى والعبيد . وهذا امان فلما نقدره قدره اذ قد تمتعنا به كلنا منذ
الصغر ولكن الظاهر انه كان بعد من حسنات الامور النادرة عند القدماء

سهلت الرحلة في تلك الامبراطورية المسالمة وأنشأ الرومان طرقا في كل مكان مع
محطات ومواقف وصنعوا مصورات (خراائط) لطرق المملكة وكان كثير من ارباب
الصناعات والتجار يرحلون من طرف الى طرف آخر من المملكة . ويرحل علماء البيان
والفلسفة في بلاد الامبراطورية ذاهبين من مملكة الى أخرى وهم يلقون المحاضرات .
وكان ينزل في كل ولاية أناس من اهل الولايات القاصية فقد دلت الكتابات على
الاحجار انه كان في اسبانيا اساتذة ومصورون ونقاشون من اليونان وفي غاليا صياغ وصناع
آسيايون

وجميع هؤلاء كانوا ينقلون عاداتهم وصناعاتهم واديانهم ويمزجونها بما يرونه عند الامم
التي ينزلون عليها ثم يعتادون بالتدريج على التكلم باللغة الرومانية وما انبلج فجر القرن
الثالث عشر حتى غدت اللاتينية لغة بلاد الغرب المشتركة كما صحبت اليونانية لغة الشرق منذ
قام خلفاء الاسكندر . فنشأت في رومية كما نشأت في الاسكندرية حضارة مشتركة
سموها الحضارة الرومانية ولم تكن كذلك الا باسمها ولغتها واجتمعت حضارة العالم القديم في
قبضة الامبراطور

الامبراطورية الرومانية في القرن الثالث

السيغيريون — بدأت الفتن الاهلية بعد عهد الامبراطرة الانطونيون فذبح الحرس
الامبراطوري سنة ١٩٣ : الامبراطور برتيناكس ورأوا ان يضعوا المملكة في المزاد فتقدم
طالبان يريدان ابتياعها احدهما سوليسين تقدم على ان يعطي كل جندي خمسة آلاف فرنك
والثاني ديدبوس رفع ما يدفعه لكل جندي الى ستة آلاف فرنك فحمله الحرس الى مجلس
الشيخ وعينوه امبراطورا ثم لم يستطع القيام بما تعهد به فذبحوه

وفي خلال ذلك بوبع بالملك ثلاثة قواد ثلاثة جيوش كبيرة وهما قائد برتانيا وقائد
إيليريا وقائد سورية وسار هؤلاء الثلاثة المتنافسون الى رومية فوصلت فرق إيليريا قبل
غيرها فعين مجلس الشيخ القائد سبتيم سيفير امبراطورا على رومية فتشبث عندئذ به بان

سالت فيهما الدماء انهياراً احدهما للدفاعه جيش سورية والاخرى للدفاعه جيش برتانيا وظلت لسيفير الكفة النافذة مدة سنتين وهو الذي اوجز سياسته في كلمتين فقال : « ايها الابناء ارضوا الجند واهزؤا بمن بقي »

الفوضى والغارة — مضى قرن ولم يكن قاعدة في الحكومة غير ارادة الجند وكان سيفير الامبراطورية ماخللا جيش الحرس الصغير في رومية عدة جيوش كبيرة على نهر الرين والطونة والشرق وانكثروا . وكل جيش يود ان يجعل قائده امبراطوراً والمتنافسون يتقاتلون حتى كتبت القبة لواحد حكم بضع سنين ثم قتل (١) واذا اسعده الحظ بنقل السلطة الى ابنه من بعده فالجيش يتفرد على ابنه ذاته وتعود نار الحرب تستعر .

وفي ذاك الحين نشأ امبرطرة غرائب في احوارهم فكان ايلاجابال كاهناً سورياً ليس ثياب امرأة وترك امه تؤولف مجلس شيوخ من النساء (مجلس شيخات وعجائز) ومنهم الامبراطور ماكسيان وهو جندي بالعرض وجبار قاس وسفك كان يأكل على مايقال ٣٠ ليرة من اللحم ويشرب عشرين ليرة من الخمر . وجاء زمن على هذه المملكة والذين يدعون الامبراطورية ثلاثون امبراطوراً انقطع كل منهم الى ناحية من المملكة (٢٧٨-٣٦٠) وسمى نفسه امبرطوراً فدعي هؤلاء الثلاثون بالثلاثين ظالماً .

وبينا جند البلاد مشغولون بقتال بعضهم بعضاً كان يرى البرابرة ان تقوم خالية من الحامية فيجتازون ارض الامبراطورية ويخربونها . وكان اقليم غالباً خصوصاً هو الذي يقاسي الامرين من هذه الغارات في القرن الثالث فتجتازها عصابات من الحاربين الجرمان كالالان والفرنك واذ لم يجدوا فيها مدناً حصينة ولا جيوشاً نهبوا المدن وحرقوها واخذوا ماشاءوا من اهلها امري معهم وذبحوا الباقين . وقرصان السكسون يخربون شواطئ بحر المانش كان هذا القرن الذي انقضى في حروب قرن خرافات فكنت تجد في كل مكان اناساً يعبدون ارباب المشرق مثل الرب ايزيس واوزيريس والربة الكبرى ولكن مبتدأ وهو رب فارسي رب عام اكثر من الارباب قاطبة في الامبراطورية . وميترا الشمس وهي مصورة سيف المصانع التي انشئت اكراماً لها وهي نصراع ثوراً وقد كتب عليه ما يأتي : « للشمس التي تغلب الرب ميترا » وقد عثر على مثل هذه الرسوم في جميع اجزاء الامبراطورية . وعبادة الشمس ملتبسة مبهمه فهي احياناً اشبه بالشعائر النصرانية فيكون فيها عماد وولائم مقدسة ومسحة وتوبة وشموع ولاجل ان يقبل المرء في جملة اهل هذه العبادة يجب القيام باعمال من صوم ومنح مخوفة

(١) قدروا ان عدد الامبراطورة من القرن الاول الى الثالث ٤٥ مات منهم ٢٩ قتلاً

وقد كان دين ميترا في اواخر القرن الثالث الدين الرسمي في المملكة . ودان الامبراطرة والجيش بهذا الرب القهار ولهذا الرب في كل مكان معابد على شكل مغاور ذات مذابح وتقوش بارزة وكان في رومية ايضاً معبد نعيم انشاء الامبراطور اورليان . وكان من اشد الحاجات الماسة في ذلك العهد البقاء مع الارباب على صلح ووثام فاخترعوا حفلات لتزكية النفس فيلبس المؤمن ثوباً ابيض مزينا بالذهب ويقعد في اسفل حوة فيطبقونها على رأسه بلوح من الخشب مثقوب وبأتون بثور يقفونه على هذا اللوح فيخفه الكاهن فيجري دمه من الثقب على اثواب المؤمن ووجهه وشعره . وكانوا يعتقدون ان هذا التعمد بالدم يطهر المرء من السيئات كافة ومن يجري له يكون كيوم ولدته أمه في حياة جديدة ويخرج من الحفرة شع الصورة ولكنه سعيداً مقبوطاً .

اختلاط الاديان — اخذت الاديان كلها في هذا القرن الذي تقدم فيه فوز النصرانية على غيرها بالاختلاط فعبد الشمس تحت اسماء متنوعة وهي الترية وهلبوس وبل وابل كالبال وميترا) وجميع هذه العبادات منسوخة بعضها عن بعض وكثيراً ما تجري على مثال العبادات النصرانية ومن اعظم الامثلة في هذا الاختلاط الديني ما كان يتوفر عليه اسكندر سيفير الامبراطور المحتشم الطيب ذو الذمة فقد كان في قصره معلى يعبد فيه المحسنين للانسانية وهم ابراهيم واورفيه ويسوع وابولونيوس دي تيان .

ديوكسين — بعد مرور زمن في الحروب الاهلية قام امبراطرة تمكنوا من وضع حد للشغب وكانوا قساة عاملين رجنداً ترقوا في درجات الجندية حتى اصبحوا زعماء وقواداً ثم صاروا امبراطرة . ويكاد يكون منشأ معظم اولئك الامبراطرة من ولايات نصف متوحشة كولايات الطونة وابلريا وبعضهم كانوا في طفولتهم رعاة او مزارعين . وكانوا في سداجة اخلاقهم على مثال قدماء قواد الرومان ولما طلبت وفود ملك فارس ان يروا الامبراطور بروبوس رأوه شيخاً اصلع يلبس عباءة صوف ويضطجع على الارض ويتناول حصاً وشحم خنزير وكانت هذه سيرة كوربوس داند تومس قبل خمسة قرون

ولقد كان هؤلاء الامبراطرة اشداء على الجند فاحدثوا في الجيش نظاماً وفي البلاد اماناً ولكنه نشأت بحكم الضرورة ثورة اضرم نيرانها الامبراطور ديوكسين الذي تدرج من الجندية الى تولي مقام الامبراطورية (٢٨٥) وتنازل عن الملك بعد ان نظم شؤون الامبراطورية .

ولم بعد يكتفي رجل واحد لتولي الحكم في تلك البلاد المتسعة والدفاع عنها فاتخذ كل امبراطور له كما اتخذ ديوكسين من انسيائه واصحابه اثنين او ثلاثة يواظرونه

وعهد الى كل واحد النظر في جزد من مملكته . وفي العادة ان يدعوا باسم " قيصر " ويحدث احياناً ان يتولى امبراطوران متكافئان يدعى كلاهما باسم اغسطس ومعنى هلك احدهما يخلفه احد القياصرة اما الجيوش فلا تستطيع ان تنصب امبراطورة .
واتسعت الولايات اي اتساع حتى ادى ذلك بديوكسين الى تقسيمها فكان عددها ٤٨ ولاية في القرن الثاني فاصبحت زهاء ٩٠ ولاية (ونعت غالباً سبع عشرة ولاية بعدان كانت سبعمائة) وامسى الحرس الامبراطوري سيف رومية خطراً على البلاد فاستعاض الامبراطور ديوكلسين عنه بفرقتين سماها فرقتي القصر .

المدينة الرومانية على عهد الامبراطورية

مدينة بومبي — ذكر بلين القتي في كتاب له قصة ثوران بركان فزوف (سنة ٧٩) الذي هلك فيه خاله بلين القديم . وكان المعلوم ان هذا البركان اخرب مدينتين صغيرتين زهنتين وهما هر كولانوم وبومبي ولكن لم يعرف احد موقعهما . واكتشفت في القرن الثامن عشر بالعرض مدينة هر كولانوم مشاة بطبقة من اللحم ثم كشفت مدينة بومبي مدفونة تحت طبقة من الرماد وحجر الكذبان . وبديء بالبحث في هر كولانوم فثر فيها على تماثيل صغيرة جميلة ومدارج تخطوطة محروقة توصل العلماء الى حل بعضها ولكن حالت صعوبة العمل في اللحم فوقف الباحثون عن التوفر على ما كانوا بدؤوا به . وآثروا ان يهتوا في بومبي حيث يسهل نزع الرماد وقد مضى القرن التاسع عشر باجمعه والمهم متوفرة على نزع الرماد عن المدينة حتى كادت تظهر بأسرها الآن كما كانت .

ظهرت بومبي الانظار على ما كانت عليه قديماً وقد سقطت السقوف من ثقل الرماد وفرّ السكان من كثير من البيوت عند وقوع هذا البلاء ثم عادوا يفشون عن ام الاعلاق وانفس النفاس . وما برحت الحيطان قنمة ولم تح منها الاعلانات المكتوبة بالجرمة بل ما زلت ترى فيها المخطوط التي خطها اماراة بالغم وسلمت النوارع وبلاطها المحفور بسير المركبات والعجلات . وقد وجدوا ايضا على الرماد ما تركته جثث الذين هلكوا اختناقاً من الرسوم وقد توصلوا بان جعلوا جباً مائتاً في تلك الرسوم واخرجوها فكانت قوالب لتلك الاجساد الميتة .

العيشة الرومانية — تصور بومبي للفكر كيف كانت العيشة في مدينة رومانية صغيرة فتد كانت هذه المدينة حديثة البناء ذات شوارع مصفوفة مقطوعة الى زوايا قائمة ومبلطة بيلاط محكم الاجزاء ولها ارضفة الا ان الشارع الاعظم كان معوجاً وبلغ من ضيقه ان كان يشندر على مركبتين . ان تلقيا في وسطه .

ولم يكن للسكن غير نوافذ صغيرة وقليلة تطل على الشارع بل كانت للغرفة كلها نوافذ من وسط الدور يدخل اليها النور . وبهذا عرفت ان الشوارع كانت محاطة بمحيطان ما عدا الشوارع الرئيسة وعلى طولها صفوف من الحوانيت يستأجرها السوق والباعة . وساحة المدينة متوسطة الحجم تحيط بها المباني والمصانع مثل ديوان مجلس شيوخ المدينة ومعابد صغيرة ومما كم وسوق مسقوف ورواق ذو عمد وفيه كان يجتمع اهل البطالة وفيها داران للتثيل خفر القسم الاعظم من الكبير منهما في أكمة وهو يسع خمسة آلاف منفرج والصغير يسع ألفاً وخمسمائة وفيها مشهد ذو درجات على شكل نصف دائرة « انقيثيتر » تقام فيه الالعاب ويتصارع فيه المصارعون . وفيها ثلاثة حمامات عامة (على الاقل) لاصغرها وهو الذي حفظ اكثر من غيره مقصورة للاستحمام واخرى للحمام السجين وثالثة للبارد وصوان (محل الثياب) وليس في الدور غير اخونة ومقاعد وصناديق وسرر وشمعدانات وكثير من المصاييح اذ لم يكن القدماء بكثرون من الاثاث . اما الغرف فصغيرة ويجعلون الزينة كلها في قاعة الاستقبال الكبرى الا ان مصاييف اغنياء السكان مبلطة بالفسيفساء والجدران معشاة بصور جميلة فيها مشاهد اساطير وتزيينات من الكاليل وازهار اما الحوانيت فخالها تشمر بضعف التجارة والحوانيت باعة المشروبات اشارات مصورة وقد صوّرت في احداها صورة باخوس (رب الكرمة) يعصر عنقوداً . وكتب على حانوت آخر : « هنا فندق بؤجر غرفة ذات ثلاثة سرر » وقد عثروا في تلك المدينة على مخبز فيه رحيان تداران باليد وعلى معمل لقصر الثياب ودكان حلاق وبيت جراح وادواته من القل (الخماس الاصفر) ومعمل نقش ودباغة .

المنشاهد — كان للمشاهد في حياة هذا الشعب المعطل من الاعمال في رومية شأن يصعب علينا تصويره فكانت المشاهد كما في يونان عبارة عن العاب اي حفلات دينية وتعاقب المشاهد طول النهار وتعود من الايام التالية مدة اسبوع على الاقل . والمشاهد عبارة عن موعد لتواعد اليه الامة الحرة بأسرها وهناك كانت تقام المظاهرات في خلال الحروب المدنية سنة ١٩٦ اخذ المتفرجون بلسان واحد يهتفون : السلم . والمشاهد (الفرجة) كان يحسب ما تميل اليه النفوس في ذلك الزمن فقد مثل فيه ثلاثة امبراطرة قتل كاليجولا في هيئة حوذي ونبرون ممثلاً وكومود مصارعاً . وللمشاهد ثلاثة اضرب وهي المرح او المسرح (المرمح) والملمب وشكل نصف الدائرة (انقيثيتر) وكلن المرح على الاسلوب اليوناني والممثلون يتنارون وقد جعلوا اوجها مستعارة على وجوههم يشخصون قصصاً اخذوها من اللغة اليونانية . وقلما كان الرومان يقدرون مثل

هذه الروايات قدرها لانها تعلق عن عقولهم وكانوا يؤثرون الروايات المضحكة الجافة المعروفة بالميم ولا سيما «البانتوميم» التي يشخصها الشخص دون ان يتكلم ويظهر عواطف الاشخاص الذين يمثلهم بحركاته وسكناته . تمتد بين اكتوبر من جيل افانينين وبالانين ساحة للباق تحيط بها اروقة علقها مراق وادراج . وهذا المكان هو الملعب الاعظم اصبح يسع منذ وسعه نيرون ٢٥٠ الف متفرج . ثم وسع في القرن الرابع حتى صار صالحاً لاجلاس ٣٨٥ الف شخص وهناك كانوا يمثلون الفرجة التي يحبها الشعب الروماني وهي سباق المركبات ذات الاربعة الخيول فالركبة الواحدة تطوف الملعب من اقصى الى اقصى ثلاث مرات وعليها ان تقطع ٢٥ شوطاً في اليوم الواحد . وسائقو المركبات تبع لشركات تزام كل منها الاخرى ويلبسون لوناً من الالبسة خاصاً بشركم فكانت الشركات اربعا باديء بدء ثم استحالت ثنتين وهما الزرقاء والخضراء ولكل منهما شهرة في تاريخ التمرد . ولقد اولع القوم في رومية بسباق المركبات كما يولع الناس اليوم بسباق الخيل حتى كان موضوع حديث النساء والاولاد ايضاً وكثيراً ما يتعصب الامبراطور لفريق دون آخر في السباق وتكون من النزاع بين الزرق والخضر مسألة سياسية

انشأ الامبراطور فسبازين على ابواب رومية بناء الكوليزة وهي عمارة ضخمة ذات طبقتين تسع سبعين الف متفرج كانت عبارة عن ملعب مستدير حول ميدان يصطادون فيه ويتقاتلون فاذا ارادوا الصيد يجعلون الميدان غابة يطلقون فيها الوحوش الكاسرة فيجري رجال مسلحون بحراب يصيدونها . وكانوا ينوعون المشهد يجعل الحيوانات الكثيرة في هذا المكان ولا سيما النادر منها كالاسود والفهود والقبيلة والديبة والجواميس والكركدن والزرافة والتمور والتاسيح . وظهر في الالعاب التي احتفل بها الامبراطور يومي ١٧ فيلاً و ٥٠٠ اسد في الميدان وكانت لبعض الامبراطرة دار لفرايب الوحوش . ثم رأى القوم بدلاً من ان يجعلوا الرجال المسلحين امام الحيوانات ان يطلقوا الحيوانات على الرجال وهم عراة مقيدون . وشاعت العادة في جميع مدن الامبراطورية باستخدام المحكوم عليهم بالاعدام في هذه التسلية فاقرست الحيوانات ألقاً من الناس من كل جنس ومن ومنهم كثير من شهداء المسيحيين على مرأى من الحضور .

المصارعون — كان قتال المصارعين (رجال بايديهم السيوف) من اجل المشاهدة الوطنية عند الرومانيين فينزل رجال مسلحون الى الميدان يتبارزون حتى يقتل بعضهم بعضاً وبلغ الحال بالرومانيين على عهد قيصر ان صاروا يقتلون ٣٢٠ زوجاً من المصارعين في آن

واحد وقد قتل اغسطس في حياته كلها عشرة آلاف رجل وقتل تراجان مثل ذلك في اربعة اشهر . وكان المغلوب يذبح في الحال الا اذا عفا الشعب عنه

وكثيراً ما يلقون باناس من المحكوم عليهم في ميدان الصراع ولكن المتصارعين يكونون في الغالب من العبيد وامرى الحرب . وكل انتصار يجلب الى ميدان الصراع عصابات من البرابرة يقتل بعضهم بعضاً ليتلذذ المتفرجون (١) وكان في رومية مصارعون من كل بلد فمنهم الغاليون والجرمان والتراسيون وربما كان منهم الزوج فيقتلون باسلحة مختلفة عن اسلحتهم الوطنية عادة . وكان يحب الرومان ان يروا هذه المقاتلات في صور مضرة .

وكنت ترى بين هؤلاء المقتلين في الملعب اناساً من المتطوعة الاحرار حدا بهم حبهم للخطر ان يقدموا انفسهم للصراع وقواعده القاسية وان يقسموا زعمائهم بانهم يقدمون ليضربوا بالعصي ويحرقوا بالحديد المحي ويقتلوا ثقتيلاً . وقد تجند غير واحد من اعضاء مجلس الشيوخ من هذه العصابات من العبيد والمنشردين بل تجند في زمرتهم الامبراطور كومود ونزل الى الميدان بذاته . ولا نقام هذه الالعاب الخطرة في رومية فقط بل في جميع مدن ايطاليا وغاليا وافريقية (اما اليونان فقد استنكفوا من قبول هذه الالعاب) واليك صورة كتبت على تمثال اقيم لاحد اعيان بلدة منتورن : « قد اظهر في اربعة ايام احد عشر زوجاً من المصارعين ما برحوا يقتلون حتى بعد ان سقط نصفهم في الميدان وصاد عشرة دية هائلة ولا شك انكم تذكرونه ايها الوطنيون الاشرف »

وكان الشعب يهوى اوراق الدماء على نحو ما يجري اليوم باسبانيا في سباق الثيران . وينبغي للامبراطور كما ينبغي للملك اسبانيا ان يحضر هذه المجازر . ولقد فقد الامبراطور مارك اوريل ثقة العامة في رومية لانه اظهر مللاً من مشاهدة تلك الالعاب فكان يقرأ ويتكلم ويقابل الناس بدلاً من ان يفرج . ولما صحب معه المصارعين لستخدمهم في قتال البرابرة الذين هاجوا ايطاليا اوشكت الغوغاء ان تنفرد وصرخوا قائلين : « انه يريد ان يسلبنا تسليحتنا ليضطرنا الى التفلسف »

المدارس = لم يخطر للقدماء قط ان يعلموا الاولاد كلهم فليس العبيد وحدهم بل السواد الاعظم من سكان الامبراطورية لم يتعلموا القراءة . على انه لم يكن في المملكة

(١) شكر احد الخطباء الامبراطور قسطنطين في خطاب رسمي القاه لانه قدم جيشاً برمته من البرابرة الامرى ليتصارع امام الجمهور ولانه استعمل قتل الناس لتسليمة الناس . قال وليت شعري اي ظفر اجمل من هذا ؟

غير مدارس الاغنياء والوطنيين الرومانيين . وقلما نعرف المدارس التي يتعلم فيها ابناؤه الوطنيين والاجناد القراءة والكتابة . وقد كانت راتب معلم المدرسة قليلاً جداً وآباء الاولاد هم الذين يؤدون اليه راتبه . وطريقة التعليم عبارة عن ضرب الاولاد بقربة او بالعصي . وقد مثلوا في صورة وجدت في مدينة بومبي ولداً يحسكه اترابه بينما كان المعلم يضربه بالسوط .

وتعلم الأسرات الفنية اولادها على مؤدب عبد يكون رومياً في الغالب فيعلمهم النحو واللغة اليونانية . والمدارس العامة تقبل الشبان الاغنياء خاصة يرسلهم آباؤهم اليها ليتعلموا فيها الخطابة . والغناء المتأخر لم ينزع من الناس ذوقهم في الخطابة ومارثهم عليها . وعلى ذاك العهد بدأ المفهومون او الخطباء يكترون ويعلمون الناس كيفية الاداء فافتحوا منذ القرن الاول في رومية مدارس يقبلون فيها الفتيان الاغنياء . وكان بعضهم يبرهن تلاميذه على انشاء المرافعات في موضوعات خيالية في الخطابة وقد حفظ لنا الخطيب سينيك عدة من هذه الدروس الخطابية وموضوعها اولاد مخطوفون ولصوص ومتشردون على اساليب مختلفة أسست على الولاء مدارس من هذا الطراز في جميع اقطار المملكة فكان في غالبا مدرسة قديمة في مدينة مارسيليا اليونانية يقصدها الطلاب من ايطاليا . واصبحت مدرسة اوتون منذ زمن اغسطس عامرة أكثر من غيرها بالطلاب وهي التي بقيت عامرة الى آخر ايام الامبراطورية .

ثم أنشئت مدارس من هذا النوع في الشمال منها مدرسة في ريمس واخرى في تريف . وكانت في الجنوب لعدة مدن مدارس من مثل هذه واشهرها هي التي اصبحت مدرسة بوردو بعد ذلك .

ننق المدن على هذه المدارس فتعين لها الاساتذة وتدفع لهم اجورهم والمقصد الاول منها تعليم ابناء الأسرات الفنية التكلم باللاتينية واليونانية وان يكتبوا فيهما ليتكثروا من ان يكونوا موظفين . ويعلم فيها النحو والبيان خاصة . وكان اشهر استاذ في مدرسة اوتون في القرن الرابع الخطيب اومين ارسله الامبراطور قسطنطين وكان مدحه . واعظم رجل في مدرسة بوردو هو اوزون مربي ابن الامبراطور (٢٦٩) ومؤلف عدة مقاطيع شعرية لاتينية متكلفة .

الاشراف — دثرت الأسرات القديمة الفنية في رومية الا قليلاً ولكن قام غيرهم من الأسر الحديثة التي اغنتت بالصيرفة والتجارة والتزام الجباية واستثمار الاراضي المفتوحة . وكلما تمكن غني من ارباب الاملاك من ان يعينه الامبراطور حاكماً تشرف أسرته وبذلك شرفت

جميع الأسرات الغنية في إيطاليا والولايات (حتى لم يبق في أواخر القرن الثالث أناس من الفرسان الماديين) وكان كل عظيم من كبراء هؤلاء الملوك يعيش بين عبيده ملكاً صغيراً لا عمل له إلا اتباع الشهوات وداره في رومية أشبه بقصر تنص غرفة التشرفات (الأتريوم) كل صباح باناس من الزين (الزيونات) وهم أناس من الوطنيين يختلفون إليه لا مورطفية صباح كل يوم يملكون عليه بالسيادة ويسارون موكبه في الشارع . لأن الاصطلاح يطلب أن لا يظهر الغني أبداً أمام الجمهور إلا ويحيط به جماعة . وقد ضحك هوراس من أحد القضاة لمروءه بشوارع تيبور في خمسة من العبيد فقط . ولكبراء خارج رومية مصائب هجة على شواطئ البحر أو في الجبال ينتقلون فيها لا عمل لهم والصغير آخذ منهم

ولم تكن واجهات لبيوت هؤلاء الاغنياء من الرومانيين على العكس من بيوتنا الحديثة بل كانت كلها دائرة من داخل أما من الخارج فلم تكن سوى حيطان عارية لا شيء فيها والغرف صغيرة وفرشها قليل وهي مظلمة لا يدخلها الضوء إلا من قاعة التشرفات وهي في وسط البيت وفيها نصبت تماثيل الاجداد وفيها يستقبل الزوار ويدخل إليها النور من شق في السقف ووراءها البر يستبد وهي حديقة محاطة بصوف من العمد وعليها تطل غرف الطعام مزينة انخريزينة وفيها سرر لجلوس الضيوف ويتناولون فيها الطعام لأن ذلك كان من عادة اغنياء الرومان كما كان من عادة اليونان في آسيا . وكثيراً ما يكون بلاط الدار ممولاً بالفسيفساء .

الاخلاق — وصف سينيك في رسائله وجوفنال في اهاجيه الرجال والنساء في عهدهما وصفاً مزعجاً حتى اصبح فساد رومية القياصرة مثلاً سائراً في الغايرين . على أن هذا ناشئ من دوام اضطرابات القرون الاخيرة للجمهورية مثل بذخ الاغنياء الفليظ وقسوة السادة مع عبيدهم وطيش النساء المزوج بمننون . فلم يأت الشر من طريقة الحكم الامبراطورية بل من الافراط في جمع ثروات العالم اجمع يد بضمه الوف من الاشراف او اديعاء الشرف وتحتهم بضع مئات من الاحرار يعيشون عيشاً سافلاً وملايين من العبيد يظلمون ظلماً هائلاً وكانت الامرة الكبرى تندثر بسرعة حتى هال الامبراطور اغسطس ما رأى من نقص عدد الرجال الاحرار فسن قوانين لحمل الناس على الزواج والعقاب على العزوبة واذ كان تأثير هذه القوانين يحتاج الى زمن لم ننجح اصلاً . ولقد كثير عبد الاعزاب من الاغنياء حتى غدت مدامهتهم من الصناعات الراجحة وذلك ليومي لم من يدعون لم بشيء من المال يأخذونه بعدهم . ومن حسن التدبير ان لا يرزق الغني ولداً فيكون محاطاً بالمرائين والمترين . قال أحد القصصيين الروحانيين : « ينقسم الناس في هذه المدينة الى طبقتين

منع من بصطاد ومنع من يصاد « وقال سينيك : « ان في حرمان الاولاد زيادة نفوذ المرء » .

الطبقات النازلة — فقد اتميز بين الوطنيين الرومانيين والغرباء موقعه ومكانته اذ لم يعد في رومية انتخابات وشمل حق التملك على التدرج سكان الولايات . وجاء زمن على عهد كاراكالا (سنة ٢١٢) صدر فيه امر بمنح حق الوطنية لجميع سكان الامبراطورية ولم يشعر بهذا الامر كثيراً لان العمل كان جارياً عليه من قبل بالفعل

ويمتاز الرجل امتيازاً خاصاً بثروته التي يملكها ويقسم الناس الى طبقتين : الاغنياء ويدعون اشرف الشرفاء . وهم اعضاء مجلس الشيوخ والفرسان واطباء مجالس الشيوخ في المدن وتأتلف منهم طبقة قواد العشرة اما بقية الشعب وهم العامة فيتألف منهم الفقراء المدفونون والسوقة الفقيرون .

فاشرف الاشرف وحدهم يحبون في المجتمع وهم يقومون بعامة الوظائف المدنية وجميع موظفي الامبراطور من طبقة اعضاء الشيوخ او طبقة الفرسان وجميع حكام المدن من قواد العشرة . ولم تكن امتيازات رسمية ومحال خاصة بهم في دور التمثيل وحضور الحفلات واذا حكم عليهم بالاعدام لا يصحبون ولا يلقى بهم للوحوش في الملأ لان هذه العقوبات الخيرية كانت خاصة بالفقراء والعامة

ولقد عاش الفقراء في هذا المجتمع الارستوكراسي عيشة ضنكاً فيعيش فقراء رومية من الصدقات العامة او بالاختلاف الى الاغنياء ومداهنتهم وهذه العيشة كانت خيراً مستوراً من الشجادة . ويصبح الفقراء في القرى مستعمرين في اراضي كبار ارباب الاملاك الذين ياملونهم معاملة تقرب من معاملة العبيد وترى الفقراء في المدن صناعات او مرتزقة ومنزلهم منزلة المعتق من العبيد . واذا حسنت حال المدينة يكون لهم نصيب في بوزعه الحكام من الصدقات ويدخلون بدور اجرة الى مشاهد التمثيل والالعب والحمامات العمومية وكنت ترى في جميع المدن حمامات حارة مؤلفة من مقاصير للاستحمام ذات احواض تأتنيها الحرارة من موقد جعل تحت الارض . والحمامات في مدينة رومانية كحال الرياضة في المدينة اليونانية هي مكان اجتماع من لا عمل لهم . بل كانت الحمامات في مدن الرومان اعظم من محال الرياضة عند جيرانهم اليونان مثلاً من المقاصير على اختلاف اجناسها فمن مقصورة باردة الى فاترة الى حارة الى صوان للثياب ومقصورة لذلك البدن بالزيت ومحال للحادثة ومقاصير للرياضة وحدائق يحيط بكل ذلك سور عظيم . وقد شغلت خرائب حمامات كاراكالا بالقرب من رومية مساحة عظيمة من الارض .

العبيد - وتأتي تحت طبقة الأحرار الفقراء الطبقة الأخيرة وهي طبقة العبيد الذين هم في بعض البلاد معظم السكان . والسادة من الرومانيين كالأشرقيين لهدنا كانوا يجبرون ان يحيط بهم جمهور من العبيد . ففي البيت الكبير الروماني يعيش مئات من العبيد ينقسمون بحسب الخدم التي يتولونها فثمة الموكلون بالقرش وتمهد الاواني الفضية والاعلاق والتحف ومنهم حفظة للثياب ومنهم وصائف ووصفات ومنهم القيمين على المطبخ والحمام ومنهم رئيس المتكلم ومعاونوه ومنهم عبيد الموكب الذي يرافق سيد البيت وسيدته في الشوارع ومنهم حملة المحفة (المحارة) ومنهم الخوذين والسواس ومنهم أمناء السر والقراء والنساخ والاطباء والمربون والممثلون والموسيقيون وارباب الصناعات من كل صنف لانهم في كل بيت كبير يطحنون الدقيق ويحكيون الصوف وينسجون الثياب . ومن هؤلاء العبيد من حبسوا انفسهم في المعامل يصنعون اشياء يبيعها سادتهم ويكون ربحها لهم ومنهم من يؤجرهم اصحابهم الى الخارج على انهم يثأرون او بحارة فقد كان لكراسوس خمسمائة عبد من المهندسين . وكل هؤلاء يدعون عبيد المدن .

عبيد الريف - كل ملك (نفتيش) كبير يتوفر على زراعته عصابة من العبيد فهم الحراثون والرعاة والكرامون والبساتينون والصيدون يعملون شرادم تؤلف كل شريحة من عشرة اشخاص . ويلاحظهم وكيل منهم يهين عليهم . ويرى صاحب الملك ان من دواعي اعجابه ان تخرج ارضه كل شيء فهو لا يتنازع شيئاً وكل حاجياته تنبت في ارضه وهذا مما يعملونه من جملة البناء على الاغنياء فصاحب الارض يؤوي اليه عدداً عظيماً من عبيد الريف كما يسمونهم والملك الروماني اشبه بقرية ويسمى مصيفاً (فيللا) وقد بقي اسمها فاطلق عليه اسم مدينة (فيل) منذ القرون الوسطى وهو الملك الروماني القديم مكبراً

معاملة العبيد - يعامل العبيد بحسب اخلاق سيدهم فمن السادة انثوين الذين اشتهروا بالانسانية شيشرون وسينيك وبلين فقد كانوا يطعمون عبيدهم طعاماً جيداً ويحادثونهم وربما اجلسهم معهم على موائدهم ويسمحون ان يكون لهم امرة وثروة صغيرة . وهناك سادة على العكس من هؤلاء عاملوا عبيدهم معاملة الحيوانات وعاقبهم اشد العقوبات بل ربما قتلهم لهوى في النفس . والامثلة على ذلك كثيرة . فقد كان فوبوس بوليوب عتيق اغسطس يطعم الساور البحري (سمك مريضة) في بركته فكسره احد عبيده آتية على غير قصد فما هو الا ان القاء في البركة ليكون طعاماً لسمكه

وصف الفيلسوف سينيكا فظائع السادات بهذه العبارة : « اذا سئل أحد العبيد أوغسطس خلال المأدبة أو طرد الذباب منهاوناً أو رمى مفتاحاً وسمع له صوت نكلب في

الاقتصاص منه وأي كلب فاذا اجاب رافعاً صوته قليلاً ودلت تلايح وجهه على سوء خلق
أيقن لنا ان نصره بالسياط ؟ وكثيراً ما نبالغ في الضرب ونقطع له عضواً ونقطع سناً «
وهكذا رأينا الفيلسوف ابيكتيت وكان عبداً كسر مولاه ساقه . اما الذئب فلم يكن أيضاً
على شيء من الشفقة واليك كيف امتدح ادفيد احدى العقائل قال : « مشطوا رأسها امامي
مرات وماقط غرزت الابر في ذراع العبد الذي يمشطها »

وما كان الرأي العام ليحول دون هذه الفظائع فقد مثل جوفدال عقيلة غضبي على أحد
عبيدها وهي تقول أصلوه - وأي جريمة أناها العبد حتى استحق هذا العذاب ؟ ما انحصه
ونل العبد من البشر ؟ وموانة أتى مرأداً ام لم يأت فاني أريد عقابه وأمر به وارادني هي
الحجة في هذا الباب

اما الشريعة فلم تكن اللطف من الاخلاق فكانت في القرب الاول قبل المسيح
توجب بان صاحب البيت اذا ذبحان يقتل عبيده كلهم به . ولما أريد الغاء هذا القانون
خطب ترازبا أحد معتبري الفلاسفة في مجلس الشيوخ مطالباً ببقاء هذا القانون .

والعبيد مطبق تحت الارض يدخله النور من نوافذ ضيقة بعيدة بحيث لا يتيسر الوصول
اليها فاذا اتوا ما يغضب ساداتهم يسجنونهم فيه بالليل وفي النهار يعشون بهم ليشتغلوا بقيد ين
بسلاسل من حديد ثقيلة . وكثير منهم من وسمت وجوههم بحديدة محماة

لم يعرف القدماء المطاحن الميكانيكية بل كانوا يطحنون الخنطة بمطاحن باليد يديرها
العبيد وكان ذلك من اشق الاعمال يُندبون اليها عقوبة لهم في العادة . وكانت المطحنة
قديمًا مثل محبس (لومان) وقال بلوت « كان يكي أشقيا . العبيد الذين يطعمون البولانتا
(صوبق من دقيق الذرة) وهناك يرن دوي الاسواط وقعقة السلاسل والاعلال » وبعد
ثلاثة قرون أي في القرن الثاني بعد المسيح وصف اقصي ابوليه داخل مطحنة بقوله : « ايها
الارباب ما اتعس هؤلاء المساكين من البشر فقد اسودت جلودهم وتبرقت من ضرب
السياط ولا تستر ابدانهم غير خرق من فيض مدمرعة جباههم مخلوقة رؤوسهم مقيدة ارجلهم
مشوّهة ابدانهم من الديران مقروضة جفونهم من الدخان وقد غلام غبار الدقيق »

ولم يكن العبيد يكتبون ولذلك لانعرف ما هو رأيهم انفسهم في معاملة ساداتهم لهم .
الا ان الموالي أنفسهم كانوا يشعرون بمقد عبيدهم عليهم . ولما انتهى الى بلين لجون ما اصاب
احد ارباب الاملاك من ذبحه في حمام يد عبيده قال ملاحظا : « هو ذا الخطر الذي
يتهددنا كلنا » . وقال كاتب آخر : « اصبح كثير من الرومان عرضة لحقد عبيدهم أكثر من
حقد الظالمين »

الشركات - كان في جميع بلاد الامبراطورية في الشرق اليوناني أكثر من الغرب اللاتيني عدد كبير من الشركات مختلفة الذروب والاشكال . ففنها شركات لارباب الصناعة الواحدة وشركات للمثليين والمصارعين وشركات اديية وشركات لاجتماع السكيرين على الشراب ولبعض هذه الشركات أعضاء من الرجال الاغنياء . مثل جمعيات الجبابة وكان اعضاؤها يلتزمون الاموال الاميرية . ومثل جمعيات التجار الذين يجيرون بين ايطاليا وغاليا ولكن معظم تلك الجمعيات كان مؤلفا من صمالك القوم .

واقعد طال منع الحكومة الرومانية لهذه الجمعيات والشركات ثم تسامحت بها حتى اذا كان القرن الثالث اخذت تمد اليها يد مساعدتها ولكن الحكومة لم تمنع قط الجمعيات لدفن الموتى وكانت هذه الجمعيات تتألف من اناس مساكين لا يستطيعون ان يقتنوا ارضا لتكون لهم قبرا فكانوا يشتركون ويدفعون اقساطا للحصول على سرب يكون مشتركا بينهم ليدفنوا فيه امواتهم . فالمغارة او السرب الممدد لدفن الموتى هو عبارة عن بناء مقبب وفيه صفوف كثيرة من المقاصير يجعل في كل واحدة منها رفات ميت ويسمون بها برج الحمام بسبب شكلها .

وعلى هذا كان اعضاء جمعية الموتى على ثقة من الحصول على مدفن لائق بعد موتهم وقبر دائم لهم على الدهر وهو ما كانت القدماء يحرصون عليه كل الحرص ويسمون هذه الشركات لا بأساء حزن لئلا تكون شؤما بل يسمنونها باسماء ارباب ويسمنونها شركات الصغار وكان يدخل فيها كثير من العبيد . وتجعل جميع الشركات الا قليلا تحت حماية احد الارباب ليجمها (مثل جمعيات الاطباء التي اطلقوا عليها اسم اسكولاب) وما كان لكثير من هذه الشركات من غاية الا ان يتعبدوا كلهم جماعة . والحكومة لاندر الارزاق الا على المعابد والكنهة وبعض الشعار الرسمية . وجميع الاديان الاخرى كانت منظمة على هيئة جمعيات . ولاهلها صندوقهم وكاهنهم ومصلاتهم ومذبحهم وحفلاتهم . وكانت الكنائس النصرانية اولاً شركات من هذا النوع .

وام الشركات شركات ارباب الصناعات فكان منها في عامة المدن حتى ان العواصم كان فيها عدة شركات من نوعها واعضاؤها في المادة من ارباب الصناعة الواحدة وتسمى كل شركة باسماء صناعات اعضائها فقد كان في افيز شركة حلاجي الصوف وفي جنيف شركة الملاحين وفي ليون شركة عملة البناء . وتقبل كل شركة في اعضائها اناسا من اهل صناعة اخرى . ومن المادة ان يكون لكل شركة عبادة فتعبد رباً وتقيم عيد الاحتفال به يحملون فيه علمه (ودامت هذه العادة في القرون الوسطى في شركات الصناع المسيحيين) وهذه

الشركة تقوم بدفن أعضائها متى ماتوا في مدافن لائقة . ولكل شركة مديران يختاران من المعلمين ويكونان في العادة وكيلًا وأمين صندوق ينتخبهما الاعضاء كلهم الا انه لم يكن لها ادى سلطة على ارباب الصناعة وما كان يكره احد على الدخول معهم

الحقوق الرومانية

دين البيوت — يعبد اعضاء كل اسرة باجمعهم اجدادهم ويحتمعون حول مزار واحد نار بايهم واحدة ولم وحدهم ان ينظروا اليها ولا يحق لاحد ان يعبد اجداد أسرة الا اذا كان من فرع اولئك الجدود . ويقام المزار الذي يجعل فيه ارباب البيت في مكان منفرد من الدار لا يقترب منه غريب . والاسرة الرومانية اشبه بكنيسة صغيرة لها دينها وعبادتها لا يقبل فيها احد غير اعضائها ولذلك تختلف كثيراً عن الاسرة الحديثة لان نظامها ديني . الزواج — اخذ الزواج الروماني يصير احتفالاً دينياً فيسلم الاب ابنته المخطوبة الى خارج الدار فتعمل في موكب الى دار زوجها والناس يرددون كلمة مقدسة وهي : « العرس ابنتا العروس » حتى اذا جاؤا بها الى دار زوجها يقدمون لها الماء والنار وهناك يقسم الزوجان بحضور ارباب الاسرة قطعة من الحلواء معمولة من الحواري وكانت تسمى الزواج اذ ذاك شركة الحلواء .

وتد اخترع الرومان منذ الزمن الاطول ضرباً من الزواج يسوغ للطبقة الوسطى فقط وهو اما ان يبيع المخطوبة احد اوليائها واقربائها بحضور شهود من قبل زوجها ويصرح هذا بانه ابتاعها على ان تكون زوجته وهذا زواج البيع واما ان تنجى الزوج فتساكن زوجها ومتى قضيا سنة معاً يعتبران متزوجين وهذا الزواج بالعادة

الرومان كاليونان يرون الزواج فرضاً دينياً والدين يأمر بان لا تندثر الاسرة . وعند ما يتزوج الروماني يصرح بانه اتخذ زوجته ليكون له منها اولاد . وقد طلق احد اشراف الاغنياء زوجته وكان يحبها حباً جماً لانه لم يرزق منها اولاداً .

المرأة — ليست المرأة الرومانية حرة اصلاً فهي في شببتها ملك ايها يختار لها زواً . واذا تزوجت يصير امرها بيد بعلها ويقول الفقهاء انها في يده وانها مثل ابنته . وبالجملة فللمرأة سيد على الدوام بيده موتها وحياتها .

ومع هذا لم يعاملوا المرأة قط معاملة الرقيق بل هي مساوية في المكانة لزوجها ويدعونها أم الاسرة كما يدعون الرجل أبا الاسرة فهي سيدة في البيت كزوجها تسيطر على النساء . الرقيقات فتكلفن بجميع الاعمال الشاقة كطحن الحب وخبز الخبز وعجنه . وتجلس في قاعة التشريفات من الدار تنسج وتحبك وتوزع الاعمال بين الاماء وتلاحظ الاولاد وتدير

شؤون البيت . وليست المرأة الرومانية كالمرأة اليونانية بعيدة عن الرجال بل لتناول الطعام على المائدة مع زوجها وتستقبل الزائرين وتذهب لتناول الطعام في المدينة وتظهر امام الناس في الحفلات وفي دور التمثيل وامام المحكمة . الا انها في العادة تكون جاهلة امية وذلك لان الرومانيين لا يهتمون بتعليم بناتهم . واهم صفة يعتبرونها في المرأة ان تكون زاهدة فاذا ماتت يكتبون على قبرها اشارة الى مدحها : « انها التزمت بيتها ولم تخرج منه وغزت الصوف » الاولاد — الولد الروماني لاييه بمثابة ملك له وللوالد الحق في ان يعرضه في الشارع فاذا اخذه يريه في بيته اولاً والبنات يبقين في البيت ريثا يتزوجن وهن يغزلن ويحكن تحت ملاحظة امهاتهن والبنون يعملون في الحقول مع آبائهم ويتبرنون على استعمال السلاح ليس الرومان شعباً مفتناً في الصناعات وغاية امانيتهم ان يعرفوا بنائهم القراءة والكتابة والحساب وهم لا يطلبون على ذلك مزيداً فلا يعلمونهم الموسيقى ولا الشعر وبلقنوتهم القناعة والصحى والحشمة في ما نيتهم والطاعة في منازعهم .

ابو العائلة — ان من يطلق عليه اسم سيد البيت يدعو الرومان ابا الاسرة . فابو الاسرة مالك للاملاك وكاهن في عبادة الاجداد وسلطان الاسرة فهو الحاكم التحكيم في بيته يحق له ان يطلق زوجته ويطرد ابنائه وان يبيعهم ويزوجهم بدون ان يأخذ رأيهم . ويحق له ان يستأثر بما يملكونه لنفسه بل وكل ما تحمله اليه زوجته وكل ما يكسبه اولاده . اذ لا يدع للمرأة ولا لاولادها ان يملكوا شيئاً وبالجملة فيبده حياتهم ومماتهم اي انه قاضيه الوحيد . ان ارتكبوا جريمة قرب الاسرة يحكم عليهم لا الحاكم .

اصدر مجلس الشيوخ (١٨٦) الروماني امره ذات يوم باعدام جميع من اشتركوا في الاحتفال بعبادة باخوس فنفذ الحكم على الرجال . اما النساء اللاتي اشتركن في الحفلة مع المجرمين فعمد المجلس الى آباء الاسرات في امرهن وهم الذين اعدوا نساءهم وبناتهم . كان الشيخ كاتون يقول « ان الزوج قاضي امرأته له ان يعمل بها ما يشاء فاذا ارتكبت غلطاً يعاقبها واذا تناولت خمرًا يحكم عليها بالاعدام واذا خانت يقتلها » ولما كان كاتالينا يكيده المكاييد لمجلس الشيوخ لاحظ احدهم ان ابنه اشترك في المكيدة فاوقفه وحاكمه فحكم عليه بالموت . وتندوم سلطة ابي الاسرة بدوام حياته والابن لا يتخلص من عبوديته له حتى انه اذا اصبح قنصلاً يظل خاضعاً لسلطة ابيه . ومتى مات الاب يصبح الاولاد اصحاب بيوت اما امرأته فلا تكون حرة اصلاً بل تكون تحت سيطرة وريث زوجها بل تخضع لابنها نفسه التملك = كانت الثروة في القرون الاولى لرومية عبارة عن ماشية وعبيد خصوصاً واللفظ الذي دلّ بعد على الدرام معناه قطع . ويسمى المالك رب الاسرة . ومن المحتمل

ان الارض لم تكن تنتقل بالارث لان لفظة ارث عندهم تدل على ارض مساحتها فدانان وهو المكان الذي يكفي لانشاء بيت وحديقة . ولم يلبث الرومانيون ان قبلوا عادة اعتبار المالك لحقل صاحباً له وعندئذ وضع حق التملك للساشية والبيد والاراضي والبيوت وكانوا يعرفونه بانه حق الانتفاع والتخريب (الاستعمال وسوء الاستعمال)

ثم صار لهذا الحق ان يتناول كل شيء من الحاجات والاثاث والدرهم والعقود والديون وحقوق الاستمتاع . ويجب على من اراد ان يملك شيئاً ان يملكه على الصورة التي عينتها العادة . واليك مثلاً كيف تجري صفقة البيع : يضع البائع امام خمسة من الوطنيين ينوبون عن مجمع ومعهم سادس يسلك الميزان بيديه قطعة من النحاس في هذا الميزان تعادل ثمن البيع . فاذا كان هذا حيواناً او عبداً يسكه البائع بيده ويقول : هذا لي بموجب القانون الروماني ابتعته بهذا النحاس الموزون وزناً حسناً .

ثم ابتدعوا طريقاً اسهل لنقل الملك من يد الى يد فصاروا يكتبون بدفع البيع الى المتباع . وهذه الطرق لا تملك تمليكاً رسمياً بل يكون المقتني للملك متمتعاً به واكن هذا التمتع يحوله نفس الحقوق كما لو كان ملكاً رسمياً له .

ولصاحب الملك الحق في ان يعطي املاكه بعده لمن يشاء واذا لم يوص بشيء من هذا القليل يقسم اولاده ثروته واذا اراد ان يغير نظام الوراثة يكتب وصيته . وكان يجري ذلك بمجلس امام مجلس الامة زمناً طويلاً ثم اصطلحوا على صورة متكيفة في البيع كأن يبيع المالك ماله لمن يريد ان يجعله وريثاً له وانتهت الحال بان اصبحوا يكتبون بوصية مسطورة وكان يحق لصاحب الملك خلال القرون الاولى ان يوصي لمن يشاء وان لا يترك شيئاً لاولاده ثم اكراه القضاة آباء الاسر بالتدريج على ان يوصوا لكل واحد من اولادهم بقسم من ثروتهم فاخذ ينال كل ولد قسماً من الارث .

الواح الوصايا الاثنتا عشرة . لم يكن عند الرومان في مبدأ امرهم كسائر الشعوب القديمة شرائع مكتوبة بل كانوا يمجرون على عادات الاجداد اي ان كل جيل يجري في كل شأن من شؤونه كما جرى الجيل السالف . وقد سنّ حوالي سنة ٤٥٠ عشرة احكام منتخبين شرائع كتبوها في اثني عشرة لوحة من الحجر . وكانت هذه شريعة الاثني عشرة لوحة أنشئت احكاماً موجزة شديدة قطعية وما هي الا ثنتين جاف قاس مثل الشعب النصف البربري الذي وضع له . فموجب هذه الشريعة يعاقب الساحر اذا تلا كلمات سحرية ومزعج حقله بغلة جاره . واليك حكم هذا القانون في المدين الذي لم يؤد ما عليه من دين : " اذا لم يدفع يرفع امره الى القضاء واذا عاقه المرض او السن عن الحضور يركب حصاناً او

محفة ويمهل ثلاثين يوماً فإذا لم يوف ما عليه يربطه الدائن بسور أو سلاسل وزنها ١٥
ليرة وبعد ستين يوماً يبيعه فيما وراء نهر التيبر وللدائنين إذا تعددوا أن يقطعوا المدين أرباباً
أرباباً ولا غبن إذا قطعوا منه قليلاً أو كثيراً قال شيشرون كانت شريعة الاثني عشرة
لوحة منبع التقنين الروماني بأسره وكان الأولاد في المدارس يستظهرونها بعد أربعة قرون
من وضعها .

الاشارات في المناوي — لا يكفي بموجب هذا القانون الروماني القديم اتفاق الاشخاص
في مسائل البيع والشراء والارث فلا يكفي لاجل اخذ حكم المحكمة الرومانية ان يعرض
الانسان قضية بل يجب عليه ان يلفظ عدة كلمات ويقوم ببعض اشارات نفقي بها العادة
وكل قضية تقام امام المحكمة يجري تشيلها بالاشارات . فللمطالبة بشيء يسكه المدعي يده
وللاحتجاج على جار رفع حائطه على جاره يرمون بحجر على هذا الحائط . وهالك ما يجري اذا
اختلف اثنان في ملكية حقل . يأخذ الخصمان بايديهما كأنهما يريدان ان يتضاربا ثم
يفترقان ويقول كل منهما : « اصرح بان هذا الحقل لي بموجب حقوق الرومانيين فانا
ادعوك باسم محكمة القاضي الى مكان الحقل ليفصل فيه بيننا » فيأمرهما القاضي ان يذهبا
الى الحقل قائلاً لهما : اذهبا فهذا طريقكما امام الشهود الحاضرين . فيخطو الخصمان بضع
خطوات كأنهما ذهبا وفي ذلك رمز الى ذهابهما . فيقول لهما احد الشهود : ارجعا .
وبذلك اشارة الى انهما ذهبا الى الحقل فيقدم كل من الخصمين مدرة من التراب وهي
اشارة للحقل . وهكذا تبدأ الدعوى وعندئذ يستمع القاضي للخصامين . والرومانيون
كسائر الشعوب القديمة لا يحسنون فهم غير ما يقع تحت انظارهم فبالمداديات يتمثلون الحق
الذي لا يرى .

ولقد كان الرومان يحترمون هذه الاشكال القديمة من الاحكام من وراء الغاية فكانوا
في القضاء كما هم في الدين يطيعون نص القانون دون ان يهتموا بالبحث عن معناه
وعندهم ان كل دستور مقدس يجب المبالغة في تنفيذه ومن الحكم الجارية في قضاياهم ان
كل ما يفوه به اللسان يكون حقاً . فاذا غلط صاحب الدعوى في ايراد مدعاه يخسر قضيته
واذا اقام رجل قضيته على جاره لانه قطع له كرمه يجب ان تكون الصورة التي يوردها
امام المحكمة حاوية لشجرة « شجرة » فاذا استعاض عنها بكلمة « كرم » لا يحكم له .

واحترام هذه المراسم على اطلاقها فتح للرومانيين سبيل الوفاق الغريب في أمور كثيرة
فالشريعة تقول ان الاب اذا اباع ابنه ثلاث مرات يحرر الولد من سلطة ابيه ومتى اراد
روماني تحرير ابنه يبيعه ثلاث مرات متوالية وهذا العمل المضحك في بيعه يكفي لتحريره .

وكانت الشريعة تقضي قبل البداء بحرب ان يرسل مناد ينادي بها على تخوم العدو . ولما أرادت رومية اعلان الحرب على بيروس ملك ابير الذي كانت تملكته في عبرالادرياتيک رأّت الحكومة الرومانية للقيام بهذه المصطلحات ان يتناح احد رعايا بيروس وربما كان من الآبقين من الجنديّة حقلاً من رومية فاوهموا بان هذا الحقل اصبح ارضاً من بلاد ابير وراح المنادي يلقي فيها حربة ويدعو فيها للحرب علناً . وكان الرومانيون مثل جميع الامم الفتية يعتقدون باطلاً ان للراسيم المقدسة فضيلة سحرية

الفقه — كانت شريعة الاثنتي عشرة لوحة والشرائع التي وضعت بعد موجزة ناقصة فكانت تعرض مسائل كثيرة لاحل لها في قانون من القوانين الموضوعة . ففي مثل هذه الاحوال الصعبة كانت العادة متبعة ان يعمد الى الاخذ برأي بعض اشخاص اشتهروا بمعرفتهم في مسائل الحقوق . وكانوا من اهل الاعتبار ومنهم قاض قداما او احبار فيكتبون آراءهم كتابة وتسمى فتاويهم اجوبة العقلاء . ومن العادة ان يكون لهذه الاجوبة شأن ونفحة لان اصحابها الحكماء على جانب من الاعتبار والحرمة . وقد زاد الامبراطور اغسطس بان عين بعض هؤلاء الحكماء وقرر ان تكون اجوبتهم قانوناً يعمل به . وعلى هذا صار الحقوق علماً وعلاء الحقوق او النقاء المشرعون يضعون القواعد الجديدة التي أصبحت سارية فنشأ بذلك علم الفقه

أمر القاضي — دعت الحال في رومية الى نصب حاكم اعلى لينفذ قواعد الحقوق المقدسة وللفصل أو القاضي فقط ان يدبر اشؤون محكمة او يحقق الحقوق . واذا كان التناصل يعنون بقيادة الجيوش فهم يعدون في العادة بالنظر في الحقوق الى القضاة . وكان في رومية قاضيان حاكم على الاقل يفصل احدهما في المسائل التي تحدث بين الوطنيين ويسمى قاضي المدينة وينظر الآخر في الدعاوي التي تنشأ بين الوطنيين والاجانب ويسمى قاضي الاجانب وهناك محكمتان لان الغريب لا يحاكم امام محكمة الوطنيين .

وهذان القاضيان بالنظر لما لهما من السلطة المطلقة يفصلان القضايا على ما يترأى لهما . بل ان قاضي الاجانب لم يكن مقيداً بقانون لان الشرائع الرومانية لم توضع الا للوطنيين الرومانيين . ولما كان كل قاض يتولى منصبه في القضاء سنة واحدة فهو يكتب عند دخوله أمراً يبين فيه القواعد التي ينوي اتباعها في الاحكام ويسمون هذا الامر امر القاضي . وبعد سنة عند ما تنتهي مدة القاضي يسقط قانونه فيبقى خلفه ان يسن قانوناً مخالفاً لقانون سلفه جملة واحدة ولكن جرت العادة ان يحتفظ كل قاض بما صدر عن اسلافه من الاوامر فيدخل فيها بعض التبديلات ويضيف اليها بعض زيادات . وهكذا تجمعت أوامر القاضي

قرونا . ثم انشأ الامبراطور هاردن في القرن الثاني « براءة القاضي » وجعلها قانونا مرعي الاجراء .

واذ كان هناك محكمتان منفصلتان احدهما عن الاخرى وضعت قاعدتان متباينتان . وقانونان مختلفان فتتألف من القواعد المتبعة التي يجري عليها قاضي المدينة في مسائل الوطنيين الحقوق المدنية أي حقوق المدينة ومن القواعد التي يجري عليها قاضي الاجانب تتألف حقوق الناس اي الشعوب (الغريبة عن رومية) فادرك القوم اذ ذاك ان عدل هذه القواعد في الحقوق وإسقاطها وإعقلها وبالأجمال افضلها الحقوق الاجنبية وان حقوق الوطنيين المأخوذة ضمن قواعد معصورة عن قدماء الرومان كان فيها خشونة وقواعد بربرية . اما حقوق الناس (الاجانب) فكان اساسها على العكس عادات التجار وعادات أناس من بلاد مختلفة نزلا رومية وهي عادات سالمة من كل شائبة وهم وطني أخذت بكمور الايام واقراها الاختبار قرونا كثيرة . ورأى القوم كيف كانت الحقوق القديمة تغالطة للعقل . فقد جاء في بعض الامثال الرومانية « ان الحق الناصح هو الذي ننفضه ساططة عليا ظالمة » وعلى هذا أنشأ قضاة الوطنيين يصححون القانون القديم ويحكمون باحكام العدل حتى بلغوا بالتدريج ان ينفذوا في الوطنيين نفس القواعد التي كان قاضي الاجانب يجري عليها في محكمته .

مثال ذلك ان القانون الروماني يقضي ان يرث الاقارب من الذكور فقط . الا ان القاضي دعا الاقارب من النساء ان يشتركن في الارث . ويقضي القانون القديم بان لا يكون المرء صاحب ملك الا اذا قام بالاحتفال في المبيع فاعترف القاضي بانه يكفي المبتاع ان يتقد البائع ثمن ما يبتاعه وان يضع يده على الملك حتى يعد ملكا . وانت ترى ان حقوق الاجانب تغلبت على الحقوق المدنية وأبطالتها

القانون المسطر — أنشئت الحقوق الرومانية على عهد الامبراطورة خاصة فاصدر الامبراطورة الانطونيون كثير من الاوامر والوانح وكانت هذه رسائل تصدر عن الامبراطور جوابا عن الموظفين الذين يستظعون طلع آرائهم فيساعدهم على القيام بهذا الاصلاح القضائي اناس من المشرعين عندهم وظل بعض المشرعين في أوائل القرن الثالث زمن من حسنت سيرتهم او ساءت من الامبراطورة يضعون القوانين الجديدة في الحقوق ويصلحون ما وجدوه منها قديما . ومن أشهرهم باينين واولبين ومودسين وبولس فان تأليفهم هي التي كانت أساسا للحقوق الرومانية بعد

وهذه الحقوق التي نظمت في القرن الثالث لاشبه بينها وبين الحقوق الرومانية القديمة بحال من الاحوال اذ القديمة لم تكن ترحم الضعفاء فاقبض المشرعون افكار فلاسفة اليونان

ولا سيما الرواقين منهم وذهبوا الى ان الحرية حق طبيعي لكل من يولد حراً أي ان العبودية مخالفة للطبيعة ولذلك رأوا انه يحق للعبد ان يطالب انصافه حتى من سيده وان هذا اذا قتل عبده يجب ان يعاقب عقاب القاتل وكذلك حموا الولد من ظلم ابيه وهذا القانون الجديد هو الذي سموه بعد بالقانون المسطور وهو في الحقيقة قانون جروافيه مع الفلسفة على نحو ما يأمر به العقل الناس كافة ولذا لم يبق فيه اثر للقانون الجائر المعروف بقانون الاثنتي عشرة لوحة . فليس القانون الروماني الذي حكمت به بلاد الامبراطورية باسرها زماناً طويلاً ذلك القانون الذي لم يبرح بعضه داخلياً في قوانيننا بل هو قانون قدماء الرومان وضع بحسب عادات جميع الشعوب القديمة ونسخ فيه على مثال الحكم الماثورة عن حكماء اليونان ثم مزج كل ذلك مزيجاً واحداً وكتبه اناس من الحكماء والفقهاء الرومانيين قروناً طويلة

النصرانية

تعليم المسيح (عليه السلام) = كان الامرائيليون ينتظرون المسيح من نسل داود ملكاً لهم ومخلصاً فظهر عيسى في الناصرة في ولاية صفري، من الشمال اسمها الجليل لانكاد تعرف بانها يهودية . ولد من اميرة وضيفة تحترف بالتجارة . فسماه اتباعه من الروم المسيح اي الممسوح يعنون الملك الممسوح بالزيت المقدس كما دعي السيد والرب والمخلص . كلنا نعرف الديانة المسيحية . فيكني اذا ان نبين ماهي التعاليم الجديدة التي نشرتها في العالم . فقد اوصى المسيح اولاً بالحبية فقال « انك تحب الرب الهك من كل جوارحك وفكرك وسميتك قريبك كما تحب نفسك فنجح الشريعة وتعاليم الانبياء داخلية في هاتين الوصيتين » فمن الواجب محبة الغير واسماهم ومتى قضى الله بين عباده يحمل على يمينه من اطعموا الجياع وسقوا العطاش وكسو العراة . ويقول المسيح لمن يريد اتباعه اولاً : « اذهب فبع مالك واوقفه للفقراء ولقد كان القدماء يعتبرون الشريف والفني والشجاع هو الرجل الصالح الا ان هذا الاسم تغير معناه منذ جاء المسيح فاصبح الرجل الصالح هو الذي يحب غيره . فعمل الخير هو محبة الغير والسمي في نفعم . والاحسان (وهو باللاتينية مرادف للحب) اساس التقوى . وغدت لفظة محب مرادفة للفظه محسن . وضع المسيح تعليمه في الاحسان بدلاً من التعليم الامرائيلي القديم في الانتقام فقال « عرفتم بانه قيل العين بالعين والسن بالسن اما الان فاقول لكم اذا ضربكم احد على خدكم الايمن فقدموا له الايسر وقبلوا احبوا قريبكم وابغضوا عدوك اما انا فاقول لكم احبوا اعداءكم واقبلوا الخير مع من يفضونكم وباركوا لمن يضطهدونكم لتكونوا ابناء الذي في السماء الذي ينزل المطر على العادلين والظالمين

حتى ان المسيح وهو على الصليب استغفر لجلاديه فقال : اعف عنهم يا رب فانهم لا يعرفون ما هم فاعلون » .

احب المسيح الناس قاطبة . ومات لا من اجل شعب واحد بل من اجل الانسانية كلها . وما قط ميز بين الاشخاص فكاهم سواء امام الله . واقد كانت الاديان القديمة حتى دين اسرائيل دين شعب يحتفظ به ويكتمه بعناية احتفاظه بكهنز ثمين دون ان تحده نفسه في تبليغه شعباً آخر فقال المسيح لتلاميذه اذهبوا اذاً وعلما جميع الامم .

وبعد ذلك قام يولس احد الحواريين وقرر تعليم المساواة النصرانية بقوله : « لم يبق اولون ولا آخرون كما لم يبق روم ولا يهود ولا مطهرون ولا قُلف ولا برابرة ولا عبيد ولا احرار فقد اصبح المسيح هو الكل في الكل » .

كان القدماء يذهبون الى ان الثروة تعلي شأن الانسان وينظرون الى ان الكبر عاطفة شريفة فقال المسيح : « طوبى للفقراء فان لهم ملكوت السموات » « من لم يتنازل عما يملكه لا يكون تلميذاً لي » حتى انه هو ايضاً كان ينتقل من مدينة الى مدينة ولا سبيل له ولا ليد وعند ما كان تلاميذه يهتمون للمستقبل كان يقول لهم : « لا تعلقوا لما تأكلون ولا لما تلبسون والقوا بانظاركم الى الطيور في السماء فهي لا تزرع ولا تحصد ومع هذا فان اباكم السماوي متكفل برزقها »

فعلى المسيحي ان يحتقر الثروة وان يشتد في الازدراء بالعظمة . كان تلاميذه يتنازعون ذات يوم فيمن يكون له المقام الاول في السماء فقال : « ان اعظمكم هو الذي يخدم غيره لان من يرتفع يسقط ومن يسقط يرتفع » وما زال البابا الى اليوم وهو خليفة القديس يولس يدعي بخادم بخدمة المولى . كان المسيح يؤثر ان يجتذب اليه المساكين والمرضى والنساء والاولاد بل والضعاف والمحرمين واختار حواريه من عامة الناس وكان يكرر على مسامعهم « ناطقوا واينوا قلوبكم »

ملكوت الله — كان المسيح يقول انه جاء الى الارض ليؤسس ملكوت الله . فظن اعداؤه انه طامع في ملك وعند ما صلب كتبت على صليبه هذه العبارة : « يسوع الناصرة ملك اليهود » وهذا كان خلاف ما يقصده . فقد صرح المسيح نفسه بان ملكوتي ليس في هذا الارض . فلم يحى ليقاب الحكومات ولا ليصلح المجتمع واجاب من سألته فيما اذا كان يجب ادائه الجزية للرومانيين بقوله : « ادفع ما لقيصر لقيصر وأد ما لله لله . ولذا رضي المسيح بما رآه موجوداً وعمل على تهذيب نفسه وتكميلها لا على اصلاح المجتمع ولاجل ان يفوز المسيحي بترضاة الله ويكون اهلاً لبلوغ ملكوته لا يقتضي له ان يقدم

التذور ويقف عند حد ما رسمته الشريعة كما فعل الفريسيون اليهود او عبدة الارباب القديمة « فان المتعبدين الحقيقيين يعبدون اباهم بالفكر والحقيقة » وكلمة المسيح هي جماع آدابهم وهي : « كونوا كاملين مثل ابيكم الذي في السموات فانه كامل »

الحواريون — عهد الى الاثني عشر حوارياً الذين كانوا ملتفتين حول المسيح ان يبشروا بتعاليمه في الامم باسرها . فدعوا بالحواريين (الموسلين) سكن معظمهم القدس ودعوا الى دينهم في ارض اليهودية . وكان المنتصرة الاول من الامرائيليين .

وكان شاول اول من دان بالنصرانية وخف يحمل تعاليم هذا الدين الي امم الشرق فقضى بولس (هو الاسم الذي اتخذ) حياته يطوف المدن اليونانية في آسيا الصغرى وبلاد اليونان ومكدونية داعياً الى الدين الجديد لا الامرائيليين فقط بل ابناء الامم الاخرى قائلاً كنتم فيما سبق يدون المسيح بعيدين عن المحالفات والوعود وها قد النأتم شحاكم بدم المسيح لانه هو لا يميز بين الشعبين وينظر اليهما كأنيهما شعب واحد . ولم يعد من حاجة ان يكون المرء اسرائيلياً حتى يتحمل النصرانية فان الامم الاخرى التي نبذتها شريعة موسى قد تقاربت فيما بينها بفضل شريعة المسيح . وهذا الامتزاج هو بصنع القديس بولس ولذا سمي رسول الامم .

كان المنحولون للنصرانية باديء بدء من يونان آسيا الصغرى ثم انصرف كثيرون في جميع المدن الكبرى واتى زمن طويل والطائفة المسيحية في رومية ايضاً مؤلفة من ابناء يونان . فانتشر دين المسيح اولا ببطء على نحو ما بشر بذلك المسيح بقوله : « يشبه ملكوت الله حبة من الخردل فهي اصغر الحبوب ومع هذا ينبت منها نبات اطول من جميع البقول فتتووي طيور السماء الى ظلالها » .

الكنيسة الاصلية — كان المسيحيون في جميع البلاد التي تزورها يجتمعون للصلاة جماعة وانشاد امداح المولى والاحتفال بالشاء السري وهي اكلة يتناولونها بالاشراك نذكركم الآخر اكلة للمسيح وتسمى اجتماعاتهم الكنيسة (المجلس)

ومن العادة ان يعامل المسيحيون في كنيسة واحدة بعضهم بعضاً معاملة الاخوة ويأتون بالعطايا لينفقوها على الارامل واليتامى والمرضى . واكثر رجالهم احتراماً بينهم الرهبان ومعنى ذلك القدماء يدبرون شؤون الطائفة ويقومون بالفروض الدينية . ويتولى آخرون النظر في املاك الطائفة وكانوا يدعون الشماسة (الملاحظون) ثم كثرت اعمال الكنيسة حتى انقسم سواد المسيحيين الى فرقتين احدهما جماعة المكلفين بالنظر في وظائف الطائفة وسموهم رجال الكهنوت (اي خدمة الرب) والياقونهم جمهور المؤمنين وسموهم العامة (العلمانيين)

كان لكل مدينة كنيسة مستقلة يولون كنيسة انطاكية وكنيسة كورنت وكنيسة رومية وكلها في الحقيقة كنيسة واحدة وهي كنيسة المسيح حيث كان يربط الجميع الاعتقاد بايمان واحد . فالاعتقاد العام او الكاثوليكي كان هو المعمول عليه دون سواء اما الاراء الخاصة (المرطقات والاختلافات) فكان يحكم عليها بانها اوهاام وانغلاق .

وبقي الكتاب المقدس عند اليهود اي العهد القديم مقدساً عند المسيحيين وصار لهؤلاء كتب اخرى جمعتها الكنيسة في مصحف واحد وسمتها العهد الجديد . فالانجيل الاربعة تنص حياة المسيح والبشارة بما حمله من السلام . واعمال المرسل تذكر كيف انتشرت هذه البشارة في العالم . ورسائل الرسل هي رسائل ارسلها الخواريون الى مسيحيي العهد الاول والابوكاليسيس (رؤيا القديس يوحنا الانجيلي او الجليان) هو ما اوحاه القديس يوحنا الى السبع كنائس في آسيا . كتبت جميع كتابات العهد الجديد باليونانية وهي اللغة التي كانت لغة المسيحيين الى اواخر القرن الثاني وقد انتشر بين المسيحيين كثير من الكتب زعموا انها مقدسة فرفضتها الكنيسة كلها وسموها المزورة

الاضطهادات - اضطهدت الديانة المسيحية منذ ظهورها فكان اليهود اعداءها الاول اضطروا الحاكم الروماني في بلادهم الى صلب المسيح ورجعوا القديس اتين (الشهيد الاول) واشتدوا في طلب القديس بولس وكانوا يقتلونه ثم وقع الاضطهاد على النصرانية من الرومان فان هؤلاء كانوا ينساقون مع جميع اديان الشرق لان عبدة اوزيريس وميترا والربة الصالحة كانوا يعترفون بالاديان الرومانية مع اربابهم الا ان المسيحيين عبدة الله الحي كانوا يزددرون بالمعبودات الصغيرة القديمة بل ان الجريمة الكبرى التي نعد على المسيحيين في نظر الرومانيين انهم كانوا يابون عبادة الامبراطور كما يعبد رب وان يحرقوا بالجور على مذبح ربة رومية

وقد اصدر كثير من الامبراطرة أوامر الى ولايتهم بأمر ونهيم بالقبض على المسيحيين واعدائهم . وقد كتب بلين وكان والياً في آسيا الى الامبراطور نرجان كتاباً يدل على الطريقة التي كان يعامل بها المسيحيون قال : «جريت الآن مع من اتهموا بانهم نصارى على الطريقة الآتية وهو اني أسألهم عما اذا كانوا مسيحيين فاذا اقرروا أعيد عليهم السؤال ثانية وثالثة مهدداً اياهم بالقتل فان اصرروا أنفذ عقوبة الاعداء عليهم مقتنعاً بان غلظتهم الذي يعترفون به مما كانت فظاعته وان عنادهم الشديد وعدم طاعتهم بتحقيق العقوبة . وقد وجهت الشكوى الى كثيرين بكتب لم تذيل باسماء اصحابها فانكروا بانهم نصاري وكرروا الصلاة على الارباب الذين ذكرت اسماءها امامهم وقدموا الخمر والجور لتمثال

اتيت به عمدًا مع تمثيل الارباب بل انهم شتموا المسيح . ويقال ان من الصعب اكراه
النصارى الحقيقيين . ومنهم من اعترفوا بانهم نصارى ولكنهم كانوا يشبثون بان جرميتهم
وخطأهم محصوران في انهم اجتمعوا بعض ايام قبل طلوع الشمس على عبادة المسيح على انه
رب وعلى انشاد الاناشيد اكرامًا له وتعاهدوا بينهم . قسمين الايمانات لاعلى ارتكاب جريمة
بل على ان لا يسرقوا ولا يقتلوا ولا يزناوا ويرفوا بعبادتهم . ورأيت من الضرورة للوقوف على
الحقيقة ان أعذب امرأتين أمتين دعوهما خادمتي الكنياسة بيد اني لم اقف على شيء اللهم
الاما كان من خرافة سخيفة مبالغ فيها «

وعلى هذا فقد كانت الحكومة هي المضطهدة (١) الا ان العامة في المدن الكبرى كانوا
اكثر اضطهادًا للمسيحيين فلم يكونوا يذبحون مع هؤلاء الذين يعبدون الهًا آخر غير ابايهم
ويحتقر هذه الارباب ويرون ان انكار المسيحيين لما يعبد الرومان يجلب على العالم غضب
هذه الارباب . وكنت تسمع القوم اذا وقع فحط وجماعة ووباء يهتفون هتافهم الذي اشتهر
امره «النصارى للاسود» والشعب يكره الحكام على البحث عن المسيحيين ومطاردتهم .

الشهداء — هلك الوف من المسيحيين في خلال قرنين ونصف ناله في الاضطهاد في
طول المملكة الرومانية وعرضها وكان المالكون من كل سن وجنس وطبقة . فالرومانيون
الرومانيون تضرب اغناقهم كما جرى للقدس بولس والباقيون بصلبيون وبمقرقون وكثيرًا ما
يلقون للوحوش الكاسرة لنهشهم . واذا ابقوا عليهم يعمنون بهم الى الاعمال الشاقة في المناجم
وكثيرًا ما كانوا يبالذون في عقاب النصارى بايجاد وسائل لاهلاكهم من كل نوع . ففي
المقتلة العظمى التي وقعت في ليون سنة ١٧٧ اخذ المسيحيون بعد ان ذبحوا وسجنوا في مطبق
ضيق الى المنكب فاخذت الحيوانات الكاسرة تمزق اوصالهم ولا تقتلهم ثم اجلسوهم على كراسي
من حديد مغطاة بالنار . واذا قاومت فتاة من الامماء اسمها بلاندين انت تعذب على هذه
الصورة جعلوها في شبكة ووضعوها امام ثور غضبان .

وكان المسيحيون يتلقون بسرور هذا التعذيب الذي يقع لهم ابواب السموات ويرون
فيه وسيلة الى الاستشهاد علنًا في حب المسيح ولذلك كانوا يسمون انفسهم بالشهداء (اي
الشهود) لا بالمتكربين وعقوبتهم شهادة . بل انهم كانوا ينظرون الى تعذيبهم نظرهم الى
قتال الالعب الاوليبيي ويرون انهم كالمصارع الظاهر يذلون الخغار والتاج . وما برحوا حتى
اليوم يحتفلون بعيد الشهداء واعيادهم موافقة للايام التي قتلوا فيها وكثيرًا ما كان احد من

(١) تقول الكنيسة ان المسيحيين اضطهدوا مرات الاولى على عهد نيرون (٦٤) والثانية

على عهد ديوكلسين (٣٠٣)

يحضرون تعذيب احد الشهداء يكتب قصته وكيفية توقيفه واستنطاقه وتعذيبه وعقوبته وهذه الكتابات على اختصارها طائفة بالعبارة وكانت تسمى اعمال الشهداء وتنتشر حتى بين الطوائف البعيدة من اقصى المملكة الى اقصاها وما هي الا مرددة للمجد الذي احرزه المعترفون بالايمان الصحيح وداعية الى الترغيب في الجري على مثالهم

ولقد حدا حب الشهادة بالوف من المسيحيين ان يعلنوا امرهم بانفسهم ويطالبوا بالحكم عليهم وامر احد حكام آسيا ذات يوم بالقضاء القبض على بعض المسيحيين فجاء جميع منتصرة المدينة يتقدمون للمحاكمة طالبين اليها محاكمتهم . فاستشاط الوالي غضباً فقتل بعضهم وطرد الآخرين قتلًا : « ارجعوا اليها الاسافل ان كنتم تحرصون كثيراً على الموت فهل عندكم قبور تسعكم وحبال نقيدكم » وكان بعض المسيحيين يدخلون المعابد ويقبلون فيها اصنام الارباب ليكونوا على ثقة من انهم يشنقون حتى قضت الحال ان تمنع الكنيسة مرات تعرض النصارى لنيل الشهادة

الدياميس — كان المسيحيون ينكرون العادة القديمة في احراق الموتى فاخذوا يدفنون موتاهم كاليهود في نوايس بعد ان يكفونهم في اكفان فاحتاجوا الى قبور . واذ كانت الارض نالية الثمن جدا نزل المسيحيون الى تحت الارض وحفروا في الارض الرخوة التي كانت رومية قائمة عليها دهاليز طويلة وغرفاً ارضية وهناك كان المسيحيون في مقاصير احقر وهاعلى طول الحواجز يدفنون موتاهم واذ اخذ كل جيل يحفر لنفسه دهاليز جديدة صارت تحت الارض مع الزمن مدينة ارضية سموها الدياميس . ومثل هذه الدياميس كان في نابولي وميلان والاسكندرية الا ان اشهرها دياميس رومية . وقد فُتحت في ايامنا فأروا فيها الوفا من القبور والكتابات النصرانية و باكتشاف هذا العالم المدفون تحت الارض نشأ فرع جديد من فروع العلوم التاريخية وهو علم الكتابات والآثار النصرانية . وقد شوهد ان قاعات المدافن في الدياميس منقوشة برسوم بسيطة وصور ولكنها تمثل مشاهد واحدة الا قليلاً وهي اما ان تصور المؤمنين من المسيحيين في الصلاة او الراعي الصالح وهو رمز للمسيح . وكانت بعض هذه القاعات اشبه بالمعابد وفيها دفنوا جثث القديسين الشهداء والمؤمنين الذين رغبوا في ان يدفنوا في جوارهم وكانوا يأتون كل سنة لتناول الاسرار . وكثيراً ما التقى المسيحيون في رومية خلال اضطهادات القرن الثالث الى هذه الكنائس الارضية للقيام بصلواتهم او للقرار من الطلب عليهم .

قسطنطين

تغلب النصرانية — مضي القرنان الاولان للميلاد والمسيحيون ضعاف الناف في

الامبراطورية الرومانية وجمهورهم من السوقة والمملة والمبيد المعنفين والمبيد من يضيئون في غمار الناس بالمدن الكبرى وقد مضى زمن والطبقة العالية شكر وجودهم حتى ان سويتون في القرن الثاني لما تكلم في تاريخ القياصرة على المسيح قال انه رجل اسمه كريسستوس يلقي الاضطراب بين سكان رومية . ولما اخذ الاغنياء والادباء يننون بامر الدين الجديد لم يكن ذلك منهم الا ليهزوا به ولا بد كرونه الا انه دبر فقراء وجهلة . واذ جاءت النصرانية لمساكين هذا العالم بان وعدتهم الجزاء عن هذه الحياة في الآخرة كثر اشياؤها والقائلون بالندين بها ولم تحمل الاضطهادات دون انتشارها بل قوتها وبعثت كتبها فقد كان المسيحيون يقولون ان دم الشهداء بذر للمسيحيين وقد ظل الاهداء الى النصرانية ينتشر خلال القرن الثالث كله بين رجال الاسرات الكبرى لا بين الفقراء فقط وما جاءت اوائل القرن الرابع الا وقد اصبح الشرق كله اى البلاد التي تكلم باللغة اليونانية مسيحياً بامره وكانت هيلانة ام الامبراطور قسطنطين مسيحية فحلتها الكنيسة في مضاف القديسات ولما زحف هذا الامبراطور على مزاحمه ملك رومية وضع على علمه شارة الصليب وشعار المسيح وكانت الغلبة التي كتبت له غلبة للنصرانية فسمح للنصارى ان يقوموا بشعار دينهم دون ان يعارضهم احد (بامره الصادر سنة ٣١٣ م اخذ يعطف عليهم جهازاً . ومع هذا لم يتخل عن الدين القديم (الوثنية) . فبينما كنت تراه يرأس مجلس اساقفة المسيحيين الاعلى كان يلعب بلقب الخبر الاعظم ويحمل على خوذته مسجراً من الصليب الحقيقي ونقوده منقوش عليها صورة رب الشمس . وقد انشأ في مدينة القسطنطينية كنيسة نصرانية كما انشأ مبدأ تذكر هذه الغلبة . ومضى نصف قرن كان فيه من الصعب معرفة دين المملكة الرسمي في الامبراطورية .

تنظيم الكنيسة — لم يخطر في بال المسيحيين حتى في الازمان التي نالهم فيها الاضطهاد ان يقبلوا كيان الامبراطورية ومنذ بطل اضطهادهم اصبح اساقفتهم حلفاء الامبراطور وعندها انتظمت حالة الكنيسة المسيحية بصورة قطعية على الصورة التي بقيت عليها الى يومنا هذا . فصار لكل مدينة اسقف يقيم في الحاضرة ويحكم على المسيحيين التابعين لها وتسمى الارض الخاضعة لاسقف ابرشية . وكان في اقطار الامبراطورية الرومانية ابرشيات واساقفة على قدر ما فيها من مدن وهذا هو السبب الذي من اجله كان الاساقفة كثيرين والابرشيات صغيرة في الشرق وفي ايطاليا حيث كثر عدد المدن . وعلى العكس في مدن غالبا فانه لم يكن بين الرين والبيرنيه سوى ١٢٠ ابرشية ومعظمها ما عدا ابرشيات الجنوب في الجسامة كولاية .

اصبحت كل ولاية مقاطعة كنائسية وسمي اسقف العاصمة اسقف المركز بعد رئيس الاساقفة . وكثيراً ما ينظر الى اسقف اعظم مدينة في بقعة بأنه ارق الاساقفة في تلك الارزاء وكان اساقفة المدن الرئيسة بالشرق في القدس وانطاكية والاسكندرية والاستانة يدعون بالبطاركة وفوقهم كلهم البابا اسقف رومية وهو الرئيس الاعظم في الكنيسة . وفي هذا القرن انشئت المجامع المدينية الكبرى فكان في آسيا الصغرى اولاً مجامع خاصة يجتمع فيها اساقفة ناحية من النواحي وكنيتها . وفي سنة ٣٢٤ دعا قسطنطين للمرة الاولى مجمعاً دينياً عاماً من اهل الارض الى مدينة نيقية في آسيا الصغرى فحضره ٣١٨ رجلاً من رجال الكنيسة فتناقشوا في المسائل اللاهوتية وانشؤا الاعتراف بايمان الكاثوليك الذي سموه قانون نيقية وما زال المسيحيون يتشدقون به الى اليوم في قداس كل احد . ثم كتب الامبراطور الى عامة الكنائس ان تمثل ارادة المولى التي تجلّت فيما اجمع عليه المجمع العام وكان هذا هو المجمع المسكوني الاول . واصبحت القرارات التي تقرها المجامع شريعة يجب على المسيحيين قاطبة ان يعملوا بها وسموها القوانين او القواعد . ويتألف من مجموع هذه القواعد القوانين الكنائسية .

الملاحدة (المرافقة) - نشأ منذ القرن الثاني بين المسيحيين ملاحدة يخالفون في آرائهم السواد الاعظم من ابناء الكنيسة . وكثيراً ما اجتمع الاساقفة في بلد ليعلنوا للتؤمنين بان المذهب الجديد باطل ويكرهوا مبتدعه على الرجوع عنه واذا ابي يخرجونه من الوحدة المسيحية . وقد يستعير صاحب البدعة اعواناً يقتنعون بعجته دعوته فلا يروون الرجوع عما وافقوه عليه ويظنون يدينون بما حكم المجمع برده من الآراء . ومن هنا نشأت العداوات والفتن الشديدة بينهم وبين المسيحيين المتعلقين برأي الكنيسة (الارثوذكس) واذ كان المسيحيون ضعافاً ومضطهدين لم يتنازعوا بينهم الا بالكلام والكتابة ولكن لما اصبحت البلاد مسيحية كلها استحال النزاع بين المسيحيين والمخالفين منهم في بعض الآراء الى اضطهاد الملاحدة وكثيراً ما انتشب منه حروب اهلية .

وتكاد تنشأ جميع البدع في ذاك العهد بين يونان آسيا ومصر على يد اناس من الازكياء والسفسطانيين والنجاديين وقد نشأت تلك البدع في العادة من محاولة فهم امرار التثليث واتحسد . وكانت بدعة آريوس اقوى جميع البدع فمن مذهبه ان الله الآب خلق المسيح وليس هو مثله فحكم المجمع النيقية بتبديعه ولكن مذهبه انتشر في بلاد الشرق عامة . ومذ ذاك العهد ظل الكاثوليك والارثوذكسيون يتنازعون بينهم ايهم يستأثر بالسلطة في الكنيسة والحزب الاقوى يعزل وينفي ويحبس واحياناً يذبح زعماء الحزب المخالف . ومضى زمن

والقوة للآريوسيين وقد تحزب لقولهم عدة من الامبراطرة ثم ان الآريوسية كانت تقوى
بكثرة دخول البرابرة في الامبراطورية وقذهبهم بهذا المذهب وبماضدتهم لاساقفته .
فقضى الكاثوليك زهاء مائتي سنة حتى قضوا على هذا المذهب المبتدع .

اواخر ايام الامبراطورية

لما دبح الجنود اخوة قسطنطين وابناء اخته سنة ٣٣٨ اقلت منهم طفل في السادسة
من عمره اسمه جولين فجعله الامبراطور نسيب في اقاصي آسيا الصغرى ورباه على يد
قسيسين مسيحيين فبعث به هؤلاء الى قبر الشهداء ينشد الزمائم ويتلو الكتاب المقدس
امام الشعب ولما شب رخص له بالقدوم الى الاسكندرية فالتحق بالكتاب المقدس
وفلاسفتهم واولع باحد الفلاسفة الافلاطونيين فانصرفت نفسه عن النصرانية . واتم دروسه
في آثينا وتعلم فيها امرار معبد الوزير ثم جاهر بانه من اشباع الدين القديم علناً واخذ
يحفل بعبادة الارباب فلقبه المسيحيون بالمرتد .

كان جولين آخر من بقي حياً من الاسرة الامبراطورية واذ لم يكن للامبراطور قسطنطين
وارث يرثه غير هذا اجمع امره على ان يلقبه باسم قيصر وبعث به قائداً على جيش غاليا
(٣٥٥) وكانت البرابرة قد هاجمت هذه البلاد وجاءت عصابتها من الالمانيين على مقربة من
مدينة اوتون . واذ لم يكن لجولين خبرة بالحرب انصرفت همه الى درس الفلسفة فصرف
شتاء بطوله في تعلم صناعة الكر والفروا نشأ يريض نفسه ويتمرن ويتلو سيرة مشاهيرة الغزاة
فلما تم له ذلك حمل على الالمان في جيش صغير من المشاة الرومانيين والفروسان البرابرة
فكتب له الظفر في الحملة الثانية في سهل بالقرب من مدينة ستراسبورغ وركب اكتشاف
الالمان ورجعوا يجتازون نهر الرين (٣٥٧) وقضى جولين في غاليا ثلاث سنين اخرى وجعل
مشتاه في بلدة لوتيس حاضرة الشعب الباريزي وهي مبنية في جزيرة من جزر السين وكان
يدعوها «لوتيس النجوبة» وهو اول من وصفها .

وفي هذه المدينة اتاه امر الامبراطور ان يبعث اليه بقسم من جيشه الى الشرق ليقا تل
البارثيين الذين داهموا بلاد الامبراطورية فلم ير الجند ان يتعدوا عن بلادهم الى مثل تلك
القاصية وابوا ان يقا تلوا ثم اخذوا جولين ورفعوه على ترس او كان هذا الاسلوب هو الذي يجري
عليه المحاربون الجرمانيون في مبايعة ملوكهم وحملوه وهم ينادون «جولين اغسطس» (٣٦٠)
فكتب جولين الى الامبراطور يريد ان يرضيه رديفاً له فابى قسطنطين عليه
ذلك فزحف جولين في جيشه على القسطنطينية وكان قسطنطين قفى نجبه قبل وصوله (٣٦١)
ولما خلا الجو لجولين واصبح امبراطوراً وحده اقام في الشرق وحاول ان يعيد الدين

القديم (الوثنية) فارجع الى الكهنة املاكهم ومناصبهم واعاد تقديم التذوق الارباب بل اصدر امره الى المسيحيين بان يرجعوا المعابد التي كانوا حولوها الى كنائس وانشأ يناهض النصرانية مباشرة واني ان يعين المسيحيين في الوظائف وطرد المعلمين المسيحيين من المدارس قائلاً انه لا يحق لهم ان يدرسوا كتباً يذكر فيها اسم الارباب وهم لا يعتقدون فيها . وسعى الى اعادة الدين القديم الى حاله بان عهد الى الكهنة ان يقرؤا على العامة مواظ ودروساً دينية الا ان الزمن خافه فسافر في حملة على البارثيين وغلبهم واصيب بسهم في احدى المعارك . وقيل انه صرخ وهو يجود بنفسه «لقد غلبت يا غاليلي !» القضاء على الوثنية — لم يقض على دين السوق القديم لاول مرة فقد اهدى الشرق في الحال اما في الغرب فلم يبق مسيحيون الا في المدن بل ان الامة ظلت هنا أيضاً تعبد الاصنام وذلك لان الامبراطورة الاولى المسيحية لم يريدوا ان يقضوا القضاء الاخير على دين المملكة القديم بل كانوا يحمون القسوس المسيحيين كما يحمون كهنة الارباب يرأسون الجماع الدينية ويقون احباراً عظاماً . وكان الامبراطور فراسين سنة ٣٨٤ اول من ادى ان يلعب بالحبر الاعظم واذ عم التسامح في ذاك القرن بدى باضطهاد الدين الروماني منذ غدا غير رسمي . واطلى الموقد المقدس الذي كان يشتعل في رومية منذ احد عشر قرناً وضرت الكاهنات اللاتي كن في معبد فستا يوقدن النار كما خمدت . واحتفل آخر مرة بالالعاب الاولمبية في بلاد يونان سنة ٣٩٤ . وعندئذ خرج النساك في مصر من الصحراء لينقضوا مذابح الارباب المزورة ويحلموا بقاياها في قبور انوبيس وسيرايس . وقام وارسل الاسقف السوري في مقدمة عصاية من الجند والمشعوذين غرق معبد المشتري في اقامة وأنشأ بحجوب البلاد ويخرب المزارات فقتله الفلاحون فجعلته الكنيسة من القديسين فما هو الا قليل حتى لم يبق عبدة اوثان الا في القرى بأوون اليها فراراً من المراقبة وهم فلاحون ممن بقوا يبصرون الاشجار المقدسة والينابيع ويحتمون في المزارات البعيدة . واخذ المسيحيون يطلقون اسم الوثنيين (الفلاحين) على من كانوا سبهم الى ذاك العهد بالظرفاء وبقي ذاك الاسم يطلق عليهم . وهكذا اشتدت الحال على الوثنية في ايطاليا وغاليا واسبانيا الى اواخر القرن الرابع وطوي بساطها تحت طي السكوت .

التنظيم الجديد في الامبراطورية

رومية والقسطنطينية — خرب الغرب وقل سكانه في القرن الثالث بما نواتر عليه من الحروب والغارات فاصبح الشرق اليوناني القسم المهم من الامبراطورية . وكان ديوكسين قد تخلى عن رومية وجعل عاصمته في نيكوميديا في آسيا الصغرى . اما قسطنطين فتوسع

في الامر أكثر من ذلك فانشأ رومية جديدة في الشرق وكانت القسطنطينية على رأس من انجر في محل لا يفصل اوربا عن آسيا غير خليج البوسفور الضيق في ارض كثيرة الكروم والغلات وتحت سماء صافية الاديروانشأ طواري من الروم مدينة بيزانس وكان لها من الآكام ما يجعلها سهلة على الدفاع ومرفأ بها المعروف بقرن الذهب من احسن مرافئ العالم يؤوي ١٢٠٠ سفينة ويمكن سده بسلسلة طولها ٢٥٠ مترًا الثلاثا تخطاه اساطيل العدو . فهناك أنشأ قسطنطين مدينته الجديدة القسطنطينية (مدينة قسطنطين) وجعل في اطراف الاسوار عالية وانشأ فيها ساحتين اثنتين تحيط بهما الروقة . وأنشأ فيها قصرًا ومعلمًا ودور تمثيل واقية وحمامات ومعابد وكنيسة مسيحية

ونزع قسطنطين من المدف الاخرى ما كان فيها من التماثيل والقنوش البارزة المشهورة ليزين بها مدينته ولأجل اسكانها نقل اليها سكان المدف المجاورة بالقوة وقدر مكافآت والقاب تشريف للأمر الكبرى التي تنتقل اليها وقرر كما كان الحال في رومية توزيع الخطة والخمر والزيت على الناس وتوفير المشاهد والفرج لهم

فكان تأسيس تلك العاصمة من السرعة الغربية على نحو ما يحب القوم في الشرق فبدأ العمل بذلك في ٤ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ٣٢٦ واحتفل بافتتاحها في ١١ ايار (مايو) سنة ٣٣٠ ولكن استمر بحيث تبقى على الدهر فقد صيرت القسطنطينية على هجمات المهاجرين عشرة قرون وبقيت بمقام عاصمة أبدًا والمملكة الرومانية تمزق ولا تزال الى اليوم اول مدينة في الشرق

ولما ترك الامبراطور رومية لم تعد مقرًا للحكومة وظل فيها مجلس اعيانها وان لم تعد له سلطة وقيسب مزاراتها احتفالاتها كما بقيت الى اواخر القرن الرابع مركز الحزب الديني القديم . القصر - اخذ الامبراطرة الذين نزلوا الشرق في التمود عاداته (١) وأنشأ يابسون ثيابًا ضافية من الحرير والقصب ويجعلون على رؤوسهم تاجًا مرصعًا بالؤلؤ ويهيجون في قصورهم حيث كانوا يجلسون على عرش من ذهب يحف بهم وزراءهم ويفصلهم عن الناس جمهور من الحشم والخدم والموظفين والحرس . وعلى من ينال شرف الخطوة من

(١) كثيرًا ما يتولى الامبراطورية اثنتان احدهما في الشرق والاخر في الغرب وان تكن المملكة واحدة . فالامبراطوران وان كان احدهما ينزل الاستانة والاخر ايطاليا كانا يرضيان بان يكونا كشخص واحد . فكان القوم اذا خاطبوا احدهما يخاطبونه بالجمع فيقولون له انتم كأنهم يخاطبون الامبراطورين كليهما وهكذا نشأت عادة الخطاب بالجمع للمفرد لان الناس في القديم كانوا يخاطبون بصيغة المفرد «أنت» حتى الملوك والامبراطرة

مواجهتهم ان يسجد امامهم ويمرغ وجهه في الارض تلامة العباداة والخضوع ويطأون عليهم القاب «المولى» و«الجلالة» ويعاملونهم معاملة الارباب وكل ما يمس اشخاصهم مقدس فيقولون القصر المقدس والغرفة المقدسة . ومجلس الامبراطورية المقدس والخزانة المقدسة .

فكان عيش الامبراطور في الامبراطورية الغربية (ايطاليا) من القرب الاول الى الثالث اشبه بحياة حاكم او قائد امافصر الامبراطور في الامبراطورية الشرقية (القسطنطينية) فهو اشبه بقصر ملك فارس . وقد أطلق على طريقة الحكم في الامبراطورية الشرقية اسم الامبراطورية الواظئة معارضة لطريقة الحكم السالفة في القرون الثلاثة التي اقبلوها بالامبراطورية العالية .

الموظفون - اصبح الموظفون اكثر عدداً مما كانوا ويحفظ بالامبراطور جيش صغير من الخاصة يحرسون قصره وهناك حرس وقرنة وكلاء وخدم ومجلس عال وحجاب وسعاة وامناء سريقتسمون الى اربعة مكاتب . واصبح الموظفون في الولايات اكثر سواداً ايضاً اذ رأى الامبراطور ديوكليدين الولايات متسعة فقسّمها الى عدة قطع في غالباً مثلاً قسم ولاية ليون الى اربع واكتين الى ثلاث . وبعد ان كان في الامبراطورية ٤٦ والياً اصبح فيها ١١٧ ثم فعلوا الوظائف فجمعوا مع الولاة والوكلاء قواداً عسكريين من دوقات وكنيسة في الولايات الواقعة على التخم .

واصبح جميع الموظفون لا تصلهم اوامر الامبراطور مباشرة فلا يخاطبون الا كبار الموظفين رؤساءهم . فيضع الولاة لقائدي حرس القيعر والموظفون في الاشغال العمومية لحرس المدينة . وجباة الاموال الى الكونت الذي يتولى الاعطيات المقدسة . والوكلاء للكونت المشرف على الاملاك والضباط الى موالى الاجناد وجميع موظفي القصر يرجعون الى مولى التشريفات وخدمة القصر الى رئيس الغرفة المقدسة . وهو لاء الرؤساء كالوزراء

وهذه الطريقة لا يصعب علينا فهمها فقد اعتدنا ان نرى موظفين وقضاة وقواداً وجباة ومهندسين على اختلاف في اعمالهم التي يتولونها ولكل واحد عمله الخاص ويرجع امرهم الى ناظر هو رئيس ديوانه . بل ان عندنا من النظارات اكثر مما في الاسنانة . الا ان هذه الاداة الادارية التي القناها لاننا نعرفنا منذ الطفولة ليس فيها التباس ولا خروج عن حد الطبيعة . فقد كانت الامبراطورية الشرقية اثوذجاً في هذا الباب واحتفظت به المماكة البيزنطية ومن ذاك العهد حاولت جميع الحكومات المطلقة ان تنسج على منوالها لان في ذلك من التسهيل في العمل ما ينتفع به من يتولون اعمال الحكم .

المتجمع في الامبراطورية الشرقية - كانت هذه الامبراطورية هي الحد الفاصل

في تاريخ الحضارة اجتمعت فيها سلطة الحاكم الروماني المطلقة مع نخفخة ملوك الشرق يتألف منها سلطة لم يكن بها عهد الى ذلك العهد . وهذه السلطة التي لم يسمع بتسلها تأتي على كل شيء في بعدها فلم يعد سكان الامبراطورية وثنين رومانيين منذ القرن الرابع بل صاروا يدعون باللاتينية الرعايا (الخاضعون) وبالرومية « العبيد » فكانوا كلهم من ثم عبيد الامبراطورية ولكنهم يختلفون في انقام وهم درجات في الشرف الذي يوليهم اياه مولاهم ويورثونه ابناءهم واليك تلك المناصب بحسب درجاتها .

(١) اشرف الاشرف وهم الاسرة الامبراطورية

(٢) المشاهير وهم وزراء رؤساء الدواوين

(٣) المعتبرون وهم كبار ارباب المناصب

(٤) المجددون وهم كبار الموظفين (ويدعون الاعيان)

(٥) اهل الكمال

ولكل صاحب شأن مقامه ولقبه ووظائفه . واكثر الناس احتراماً الندماء والموظفون حتى صرح ان يدعى ذلك العهد عيد الانقلاب والتشريعات . وما نطق شهوداً اي حد تبلغ السلطة المطلقة اذا دعمها الجنود في الانقلاب والميل الى ترتيب كل امر بالاكثر من القوانين وعليه فقد كانت الامبراطورية الشرقية مثلاً تاماً لاجتماع يدار بالآلة العلماء والحكومة فنيته في ارادة قيصرها فحازت اقصى ما يتطال اليه حتى اليوم انصار السلطة المطلقة وسيكافح بعد اشياخ الحرية زمناً طويلاً تلك التقاليد التي ابقتها امبراطورية الشرق .

حكومة المدينة — لم يعن الرومان بجباية اموال الرعايا بانفسهم بل كان الامبراطور يكتب بيان الخراج المطلوب من كل ولاية ا وذلك كل خمس سنين في الغالب) ويحدده كما يريد . ويعلم الوالي كل مدينة ما يجب عليها اداؤه . فحكومة المدينة هي التي تقدم المبلغ المطلوب . وما دامت المدينة غنية يجبي الوالي خراجها موزعاً له بين السكان فاذا عجزوا عن الدفع يتحتم على من تولوا الخراج ان يسدوا العجز لانهم مسئولون عن الخراج وخزانة الامبراطورية لا تتنازل عن حقوقها .

ولقد كان منصب الجباية حتى القرن الثالث مرغوباً فيه كأنه من أسباب الشرف فيعد الجاني في مدينته كعضو الثيوخ في رومية . واذا افتقرت البلاد يعود منصب الجباية من المناصب التي تكسر متوليها فتزحف النفوس في توليتها . فرأى الامبراطورة ان يسنوا قانوناً لعقاب من يأبى جباية الخراج فصار الجاني يتولى ذلك رغم أنه ويجب على كل من يملك خمسة وعشرين فداناً من الارض ان يكون احد الجباة طوعاً أو

كروها . وكثير من الجباة كانوا يؤثرون ان يخرجوا عما يملكون من الاراضي ويهربوا ويدخلوا في سلك الرعي والخورة او الاستخدام والجندية . فصدر الامبراطرة اوامره بالبحث عن هؤلاء الفارين وان يعادوا الى مدنها بالقوة . وقد جاء في احد القوانين المسنونة انهم عبيد الامبراطورية

فكانت الحكومة تحاول ان تبني محاسن الشيوخ في المدن على هذه الكيفية واذ كانت تخرب بيوتهم بخراجها اصبح تند الجناة ابدًا في قلة . وكان مجلس الشيوخ يتألف على عهد الامبراطورية الفرعية من مئة عضو . وفي القرن الرابع نشبت فتن في احدى الولايات فأمر احد الامبراطرة ان يأتيه بروموس ثلاثة من الجباة من كل مدينة فكتب اليه الوالي « ليسع حكمك ان يقرر ما الذي يجب ان نعمله في المدينة التي ليس فيها ثلاثة من الجباة »

المستعمرون . وقع في الامبراطورية الرومانية مثل ما وقع في عامة المجتمعات القديمة مثل اسبارطة ويونان وايطاليا وهوان يغسل الاحرار ويخلفهم العبيد ولم يبق في القرى ما يكفيها من الحراثين . لاجرم ان اندبته الرومانية لم تخرب بل كانت آخذة بالناء . فقد كان عدد الوطنيين في القرن الاول زهاء مليون نسمة وفي القرن الثالث (٢١٢) وقد صدر أمر الامبراطور تيج جميع سكان الامبراطورية حق الوطنية فصار الوطنيون الرومانيون يعدون بالملايين (١) ويغنون باسحلال سائر سكان العالم بيد ان الحكم الروماني كان سببا في اسحلال شعوب المملكة كما اسحعل به من قبل اهل ايطاليا وكان يقتضي له كثير من الجنود وكثير من العبيد

وبهذا الحكم يفلح الاغنياء ويصعب على صغار ارباب الاملاك ان ينفقوا امام الكبراء فيستخدمون في الجندية او يخرجون بيوتهم بأيديهم . ويقتني صاحب الاملاك الواسعة اراضيهم حتى انهم لم يبق في بعض البلاد غير املاك واسعة يحرثها العبيد . وهؤلاء السكان من العبيد لا يتجددون فاذا عرض عارض من العوارض المألوفة اذ ذاك من مثل وباء وحرب وغارة برابرة وهلك جمهور من الحراثين في احدى الاملاك تبقى الارض بورا

نقلت القرى على التدرج ولا سيما ما كان منها على التحوم من الناس ولم يبق سكان الا في المدن بل صار في عدة أنحاء من المملكة فقار حقيقية خلت من السكان والعمران

(١) كان سكان المملكة يدعون كلهم بالرومانيين منذ ذلك العهد ولما دخل البرابرة الى غاليا لم يجدوا فيها غاليين بل رومانيين حتى كان الشعب في الشرق حيث كان السكان يتكلمون باليونانية يدعى الى عهد الفتح العثماني بالشعب الروماني وما زالت الى اليوم بلاد الاستانة تدعى روم ايلي

فانشأ الامبراطرة يسكنون فيها عصابات من البربر من خربوم وأسروهم ليجيوا به
موات تلك القرى . الا ان هؤلاء البرابرة لا يملكون الاراضي بل يستعصرونها فقط مثل
اهيلوتيين في اسبارطة ويقضى عليهم ان يبقوا في الارض التي أنزلوا فيها لا يهاجرونها ولا
اولادهم بحال يؤدون الى صاحب الارض مالا مقررا فمن ثم كانوا مستأجرين الى الابد
بالقوة . وليس هذا النظام جديدا بل كان في ايطاليا على عهد الامبراطورية الشرقية
أناس من الطواريء من الاحرار الفقراء قيدوا انفسهم في خدمة صاحب ملك عظيم
لينالوا منه أرضا يزرعونها . وزاد سواد هؤلاء الطواريء زيادة كبرى لما ضموا اليهم
الاسرى من البربر

وهذه الطريقة الشديدة لم تكف في احياء امة لان اولئك الخرائين كانوا يفرون
او يهلكون وفي القرن الخامس بعد مرور الجيوش العظمى من المغربين (داكيز وايتيلا)
كان في اراضي المملكة فراغ كبير تعذر على الامبراطرة ان يسدوه . وبقي في غالبا
واسبانيا وايطاليا وفي الغرب كله جزء من الاراضي بورا ثقلة العاملين فيها واقفرت ولايات
النجوم وقد اضطلع الشعب الروماني في جميع حوض الطوبة من سويسرا الى البلقان منذ
القرن السادس فلم يكن في تلك البلاد الا امة جرمانية اوسلافية . حتى ان الفرنك
يحدثوا في البلجيك غير قفر .

البرابرة في الجيش الروماني - هذه الاراضي الخالية تستدعي سكانا جديدا فكان
البرابرة يحاولون على الدوام ان يتخطوها وما دام للحكومة الرومانية بعض جيش لا يصعب
عليها ان تردهم على اعقابهم . الا ان الامر في التجهيد صار الى الصعوبة كايجاد اموال . وألف
سكان الامبراطورية حياة السكون ولم يعودوا يهتمون بخدمة الجندية . حتى اضطرت
الحكومة ان تطلب جندا من كبار ارباب الاملاك فياخذ هؤلاء بعض الطواريء الذين
يعملون في اراضيهم فكان هؤلاء المساكين المأخوذون بالقوة من وراء محاربتهم جندا
غير كفوء للقتال . وندت الجنود منذ القرن الرابع من الضعف بحيث لا تستطيع حمل
الدروع واستعاضت عن الخوذ بالقبعات

واصبح القواد يثثرون ان يستعملوا الخاربين من البربر لانهم يقاتلون بشدة على الاقل
وقد جندت الامبراطورية في خدمتها منذ زمن جنودا من الجرمانيين يقاتلون جراتا
ويقاتلون بأسلحتهم وكان اكثرهم من الفرسان واخذ امبراطرة الرومان في القرن الرابع
يخذون منهم عصابات يرمتها ينزلون مع نسائهم واولادهم وخدمتهم في اراض يهبونهم اياها
على سبيل الجزية . ويحتفظ هؤلاء المحاربون منازلهم في ارض رومانية بلقتهم وعاداتهم

وبإسلاحهم وزعمائهم ويدعون "المحالفين" وبلغ بالامبراطور انه اخذ يقبل منهم في جيشه شعوباً برمتها مثل الوزيغوت والبورغند وكانوا اجتازوا النخوم بالقوة احياناً ثم آثروا ان يكونوا في خدمته على ان يقاتلوه . فأصبحت اذ ذاك جيوش رومانية مؤلفة من شعوب بربرية يقودها قائد بربري . ولقد كان الجيش الروماني الذي رد غارة اثيلا سنة ٤٥١ مؤلفاً من الوزيغوت والفرنك والبورغند وحصار كثير من القواد الرومان منذ القرن الرابع (سيلفانوس واريوكاست اومعظمهم في القرن الخامس) مثل ستيككون ورسيمير وادواكر امن اصل بربري ولم تعد الامبراطورية الرومانية شمية الا باناس من المحاربين من البرابرة فاحتلها بعد انشاء جنسهم



